نظريات اجتماعية

بداياتها التاريخية
وأهم منظريها ومدارسها الرئيسية

تأليف
أ.د. لوجلي صالح الزوي

جامعة سرت
Sirte University
1989

نظريات اجتماعية

بداياتها التاريخية
وأهم منظريها ومدارسها الرئيسية

اسم الكتاب: نظريات اجتماعية
بداياتها التاريخية وأهم منظريها ومدارسها الرئيسية
المؤلف: أ. د. لوجلي صالح الزوي
دار الكتب الوطنية- بنغازي
رقم الإيداع المحلي: 2016/54م
رقم الإيداع الدولي (ردمك): ISBN: 978-9959-8912-4-2

جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة سرت

لا يجوز طبع أو نشر أو نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو جزء منه، إلا بموافقة خطية مقدمة من الناشر مباشرة.

All rights reserved .

No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, Electronic or mechanical, Including photocopying, Recording or by any information storage retrieval system, Without the prior permission in writing of the publisher.

منشورات جامعة سرت

☎ +218 54 5260363 +218 54 5265704
✉ ص. ب 674
🖷 +218 54 5260361 +218 54 5262152

www.su.edu.ly
info@su.edu.ly

نظريات اجتماعية

بداياتها التاريخية
وأهم منظريها ومدارسها الرئيسية

تأليف

أ. د. لوجلي صالح الزوي

أستاذ علم الاجتماع - جامعة بنغازي

منشورات جامعة سرت

2021

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

(سورة طه، الآيات 25-27)

إهداء

بكل الحب الذي في هذا الكون
أهدي هذا الجهد المتواضع
إلى نجلي العزيزين:
صالح وإدريس
اللذين غيرا خريف حياتي إلى ربيع دائم

وإلى أمهما الودود، رمز الحنان،
والحب الصادق

المؤلف

المحتويات

شكر وتقدير 13

الفصل الأول: الفكر الاجتماعي من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر 17

أولاً: ابن خلدون 1332-1406 19

منهج ابن خلدون 22

نظرية ابن خلدون الاقتصادية 23

نظرية ابن خلدون السكانية 24

نظرية ابن خلدون التطورية 27

مقارنة التطورية الخلدونية وتطورية كل من:سان سيمون، وكونت، وسبنسر، ودوركايم. 28

ثانياً: المفكرون الأوروبيون 33

أولاً: توماس مور 34

ثانياً: توماس هوبز 37

ثالثاً: جان جاك روسو 43

هوامش الفصل الأول 51

الفصل الثاني: نظرية علم الاجتماع 55

القوانين العلمية 68

تطور نظرية علم الاجتماع 69

ملامح تطور النظرية السوسيولوجية المعاصرة 71

هوامش الفصل الثاني 75

الفصل الثالث: النظرية العضوية 77

أولاً: أوجست كونت 1798- 1857م 82
مراحل التطور العقلي والاجتماعي عند كونت 84
ثانياً: هربرت سبنسر 1820- 1903م 92
ثالثاً: إميل دوركايم 1858- 1917م 99
حياته الأكاديمية 103
رابعاً: فردناند تونيز 1855-1936م 116
الجماعة والمجتمع في فكر تونيز (المعرفة ونقيضها) 119
ملخص للمدخل العضوي 130
أهداف هذا المدخل 131
افتراضات هذا المدخل 131
المنهج المتبع من قبل أصحاب هذا المدخل 132
النماذج العلمية لمفكري هذا المدخل 132
هوامش الفصل الثالث 133

الفصل الرابع: نظرية الصراع 137

تمهيد 139
أولاً: كارل ماركس 1818- 1883م 142
ماركس والصراع الطبقي 149
ثانياً: فلفريدو باريتو 1848- 1923م 160
ثالثاً: روبرت إيزرا بارك 1864 - 1944م 173
ملخص واستنتاجات حول وجهة نظر بارك 186
رابعاً:ثورشتاين فبلن 1857- 1929م 187
التطورية التكنولوجية عند فبلن 193

ملخص لنظرية الصراع 197
هوامش الفصل الرابع 199

الفصل الخامس: النظريات السلوكية الاجتماعيـة 203

أولاً: ماكس فيبر. 1864.1920م 208
البيروقراطية عند فيبر 215
ثانياً: جورج هربرت ميد 223
العقل والذات والمجتمع 233
ثالثاً: جورج زيمل 243
رابعاً: وليام جرهام سمنر 251
ملخص واستنتاجات لوجهة نظر سمنر 259
هوامش الفصل الخامس 260

الفصل السادس: النظرية البنائية الوظيفية 263

تمهيد 265
أولاً: تالكوت بارسونز 268
الفعل الاجتماعي 271
النسق الاجتماعي 273
ثانياً: أميتاي أتزيوني 279
علاقة التغير بالمستقبل 280
ملخص استنتاجات أتزيوني 285
هوامش الفصل السادس 287

قائمة المراجع 289

شكر وتقدير

أود في البداية أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم التقدير إلى الزميلين العزيزين اللذين كلفا بتقييم هذا العمل وذلك على السيل العارم من التشجيع الذي أمطراني به وهما: الأستاذ الدكتور صبحي محمد قنوص والأستاذ الدكتور عبد الله عامر الهمالي كما أنني ممتن أشد الامتنان لما قاما به من تصويب لبعض الأخطاء المطبعية واللغوية التي وردت في المخطوطة الأولى لهذا الكتاب والتي لم تكن في الأساس معدة للنشر وإنما سلمتها إلى أحد طلابي المتميزين الذي أعتز كثيراً بتدريسه في مرحلة الإعداد لدراسة الماجستير وإشرافي على رسالته في نفس المرحلة وهو الدكتور محمد فرج رحيل وذلك لأخذ رأيه فيها بعد أن أبلغني بأن عميد كلية الآداب في جامعة سرت متحمس جداً للنشر ويرغب في نشر كتب في شتى المجالات العلمية في كليته إلا أن الدكتور محمد ما إن اطلع على المخطوط الذي يبدو أنه ارتاح إلى المادة العلمية التي اشتمل عليها حتى قام بتسليمه مشكوراً إلى إدارة النشر بالجامعة التي قامت بدورها بتكليف المقيمين اللذين قيما هذا المخطوط وعلى الرغم من أن الدكتور صبحي قنوص قيم الكتاب وهو في منطقة أرض بالعون بمدينة بنغازي التي كانت حينها تحت القصف المكثف المتبادل بين القوى المتناحرة في المدينة في بداية عام 2015 إلا أنه لم يترك شاردة ولا واردة من الأخطاء المطبعية بل وحتى النحوية إلا وأحصاها جزاه الله أحسن الجزاء عما بذله من جهد صادق خدمة للعلم وطلابه.

كما لا يفوتني كذلك أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور عبد الله الهمالي الذي قيم المخطوط وهو خارج البلاد بعد أن غادر منزله مجبراً أواخر العام 2014 في ظروف الحرب السالفة الذكر ولا يفوتني أن أشكر الأستاذ رفاعي عبد الله الدالي الذي ساهم مشكوراً في نقل الكتاب إلى المقيم الأخير في القاهرة.

كما يسعدني كذلك أن أشكر طلابي الأعزاء في المرحلتين الجامعية والعليا الذين كانت ملاحظاتهم إيجابية في الغالب حول مادة المخطوط العلمية منذ الشروع فيه عام 1993وحتى وصوله إلى مراحله الأخيرة عام 2014 حيث كانت ملاحظاتهم دافعاً قوياً للاستمرار في تأليف هذا الكتاب وكان طلاب الدراسات العليا على وجه الخصوص يحثونني دائماً في بداية كل فصل دراسي وبشكل مستمر على نشر هذا المخطوط كي تعم الفائدة كما كانوا يقولون وكنت أقول لهم قد يكون ذلك في الفصل القادم إن شاء الله وكنت أحرج في بداية كل فصل دراسي من عدم تمكني من تلبية طلبهم والذي تحقق الآن والحمد لله والشكر موصول لكل من مد لي يد العون بالمساعدة في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود وأخص بالذكر الدكتور حسين أبو مدينة عميد كلية الآداب بجامعة سرت وطلابي الأعزاء في مرحلة الدراسات العليا في جامعة التحدي (سرت الحالية) الذين صار أغلبهم الآن أعضاء هيئة تدريس في قسم علم الاجتماع في جامعة سرت. وفي الختام فإنني وحدي المسؤول عمّا ورد في هذا الكتاب من مادة علمية فإن كانت تستحق الثناء فذلك فضل من الله وله الحمد على ذلك وإن كان هناك تقصير فإنني أسأل الله التوفيق في الطبعات القادمة. وأخيراً نأمل من نجلي العزيزين صالح وإدريس وأمهما السماح عن التقصير في واجبي كأب في الترفيه عنهما لانشغالي الدائم في إعداد هذا الكتاب وغيره من البحوث أملاً أن تتحسن ظروف البلاد وتتاح لهم الفرص الطيبة في نيل الكثير من حقوقهم التي أشعر بأنني قصرت في أدائها.

لوجلي صالح الزوي

كتب هذا الشكر والتقدير بعد تجاوزي لعام من النزوح إلى مدينتي [أجدابيا]
يوم الخميس 2015/11/19 م

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي متعني بالصحة والعافية حتى وصل هذا الجهد المتواضع إلى نهايته التي نأمل أن تكون مرضية حيث بدأت مسيرة هذا الكتاب منذ أكثر من عشرين عاماً وبالتحديد بدءًا من العام الجامعي 1994/1993 عندما كلفت بتدريس مادة نظرية علم الاجتماع لطلاب وطالبات الدراسات العليا بقسم علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة قاريونس (جامعة بنغازي حالياً) وعلى الرغم من أنني لم أكن متخصصاً في هذه المادة إلا أنه بحكم الدراسة في الولايات المتحدة فقد درست هذه المادة في مرحلة الماجستير كمادة أساسية ودرستها بشكل مكثف جداً في مرحلة الدكتوراه كمادة أساسية كذلك وعلى الرغم من إلمامي بكثير من جوانبها لم أطلب تدريس المادة لأنني كما سبق وأن قلت لم أكن متخصصاً فيها إلا إنني كلفت بتدريسها لطلاب الدراسات العليا من قبل رئيس قسم علم الاجتماع وبعد التشاور معي لبيت طلبه وذلك لعدم وجود من يقوم بتدريسها في العام الدراسي المشار إليه وقد أرهقني ذلك التكليف أيما إرهاق حيث بدأت أعود إلى المراجع الأجنبية التي قرأتها أثناء دراستي في الولايات المتحدة وبدأت أترجم الكثير مما وقع تحت يدي منها وخاصة ما يتعلق بالمقرر لتلك المرحلة وأوزع ما ترجمت منها على الطلبة مطبوعاً أسبوعياً تقريباً إضافة إلى حث الطلبة على الاستعانة بالمراجع العربية المتوفرة في مكتبة الكلية ومكتبة الجامعة، وكان كتاب: Sociological Theory أو نظرية علم الاجتماع للكاتب جرهام كينلوتش هو المرجع الأساسي الذي استعنت به قبل إن أعرف فيما بعد أنه ترجم إلى العربية لأنه كان ضمن الكتب التي كانت مقررة علينا أثناء الدراسة في مرحلة الماجستير كما استعنت كذلك بكتاب: Masters of Sociological Thought لعالم الاجتماع المعروف لويس أ. كوزر وهو كذلك كان مقرراً علينا في نفس المرحلة. وهو ما جعل هذا الكتاب يتخذ من تصنيف كينلوتش لمدارس نظرية علم الاجتماع أساساً له وقد اعتمدت على هذين الكتابين بشكل كبير إضافة إلى العديد من المراجع الأجنبية الواردة في ثبت مراجع هذا الكتاب منها ما يقرب من أحد عشر مرجعاً كانت

مقررة أثناء دراستنا في مرحلة الدكتوراه.

وقد قمت بتقسيم المدارس الأساسية في نظرية علم الاجتماع إلى أربع مدارس وهي: النظرية العضوية Organic Theory، ونظرية الصراع Conflict Theory، والنظرية السلوكية الاجتماعية Social Behaviorism Theory، والنظرية الوظيفية البنائية Structure Functionalism Theory وقد توسعت في شرح كل مدرسة من هذه المدارس أكثر بكثير مما فعل كينلوتش الذي أورد كل هذه النظريات بشكل موجز جداً.

وفي الختام حاولت أن أجتهد في تقديم هذا العمل الذي اعتمدت في أكثر من نصف المادة الواردة فيه على مصادر أجنبية والباقي على مصادر إما عربية أو مترجمة إلى اللغة العربية وقد أوردت العديد من الأفكار عن كثير من المنظرين التي لم أجدها في الكثير من الكتب العربية التي اطلعت عليها وفي الختام نأمل أن يكون التوفيق حليفي فيما بذلته من جهد متواضع في إعداد هذا العمل وفي نفس الوقت فإنني على استعداد تام لتقبل أي نقد من المتخصصين في هذا المجال ومن قراء هذا النوع من المعرفة العلمية واعداً إياهم بالأخذ بالمفيد من آرائهم مستقبلاً إذا ما كانت في العمر بقية.

الواقع أن المنظرين الذين تناولناهم في هذا الكتاب يمكن أن يصنف الكثير منهم في أكثر من مدرسة من مدارس علم الاجتماع لكننا أردنا أن نتحدث عنهم فيما كتبوا في الجانب الذي سوف نتحدث عنهم فيه مع العلم أن الكثير منهم كتبوا في أكثر من جانب من جوانب النظرية الاجتماعية، وختاماً هذا ما استطعت أن أتناوله في هذا المصنف المتواضع ومرة أخرى أقول على من يرى فيه نقصاً مهماً أن ينبهني إليه مشكوراً وسوف أعمل على تلافي ما أستطيع أن أتلافى من نقص في المستقبل بإذن الله والله من وراء القصد.

والله ولي التوفيق

أ. د. لوجلي صالح الزوي

بنغازي الجديدة (الليثي) في 2014/10/2م

الفصل الأول

الفكر الاجتماعي
من القرن الرابع عشر
إلى القرن الثامن عشر

ويشتمل هذا الفصل على النقاط الآتية:

- **أولاً : ابن خلدون**
- **ثانياً: المفكرون الأوروبيون**

الفصل الأول

الفكر الاجتماعي
من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر

سوف نتحدث في هذا الفصل عن البدايات التاريخية الأولى للتفكير الاجتماعي ونبدأ أولاً بأهم المفكرين في هذا المجال وهو العلامة ابن خلدون الذي يعد بدون تحيز رائد الفكر الاجتماعي الحديث وهو الذي سبق أوجست كونت الذي يعتبره كثيرون مؤسس علم الاجتماع الحديث لكن الحقيقة أن ابن خلدون قد سبقه بأكثر من أربعمائة عام وبعد ابن خلدون نتناول ما قدمه المفكرون الذين عرفوا بالإصلاحيين في أوروبا قبيل الثورة الصناعية وبعدها ونخص بالذكر هناك توماس مور وتوماس هوبز وجان جاك روسو حيث نتناول ما قدمه كل منهم بشكل موجز تمهيداً لطرح فكرة نظرية علم الاجتماع بمفهومها الحالي وذلك على النحو التالي:

أولاً: ابن خلدون 1332-1406

ولد العلامة ولي الدين أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون في تونس عام 1332م/ 722هـ وتوفي في القاهرة عام 1406م/ 808 هجري ويعود نسبه إلى أسرة عربية يمنية من ملوك كندة قدمت إلى الأندلس مع دخول جيوش الفاتحين وانتقلت إلى إشبيلية ثم إلى تونس حيث تولى جده الوزارة في عهد أبي حفص كما تولى والد ابن خلدون الشؤون العسكرية والإدارية.

تلقى ابن خلدون علوم الحديث والفقه واللغة وحفظ القرآن الكريم ثم توسع في علوم المنطق والفلسفة والأدب وبعد أن داهم وباء الطاعون البلاد التونسية انتقل إلى ابن

تافراكين بعد أن دعاه ليقوم بالتوقيع باسم السلطان والمراسيم حتى عمل في الكتابة لدى الأمير أبي عنان صاحب فأس وتنقل في العديد من المناصب العلمية والإدارية إلى أن وصل إلى الحجابة (رئاسة الوزراء) عند سلطان تلمسان.

ثم استقر به المقام في قلعة ابن أبي سلامة لمدة أربع سنوات ألف خلالها كتاب العبر والانتهاء من كتابة مقدمته المشهورة ثم عاد إلى تونس ومنها إلى مصر حيث اشتغل بالتدريس والقضاء والبحث إلى أن توفي في القاهرة بمصر سنة 1406م.

وقد وصفه صديقه لسان الدين بن الخطيب بأنه " رجل فاضل حسن الخلق جم الفضائل باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، قوي الجأش، طامح لفنن الرياسة، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا، شديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، حسن العشرة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية (1) هذا هو وصف أحد أصدقائه الذين عاشروا ابن خلدون وهو وصف يشير إلى الكثير من الخصال الحميدة التي كان يتحلى بها ابن خلدون.

لعل من أشهر أعمال ابن خلدون كتاب التاريخ المؤلف من عدة أجزاء وتعد المقدمة التي كتبها لكتاب التاريخ من أشهر ما كتب ابن خلدون وهي من المؤلفات المتميزة والفريدة من نوعها وذلك لأنها جمعت حصيلة خبرة ومعرفة العلامة ابن خلدون واحتوت على معارف وآراء ونظريات في عدد من ميادين العلوم الاجتماعية والإنسانية. إن مقدمة ابن خلدون عمل لا يضاهى فقد تناول فيها بالدراسة والبحث عدد من الميادين مثل علم الاجتماع الاقتصادي وعلم الاجتماع السياسي وعلم النفس الاجتماعي كما تناول قضايا تتعلق بالسكان والقضايا الديموغرافية إضافة إلى عدد من النظريات الاجتماعية الحديثة نجد بداياتها الحقيقية كانت عند ابن خلدون بين الأمور الاجتماعية والقوى الطبيعية. كما أنه اعتمد في تحليل وتعليل الظواهر الاجتماعية بأمور ومسائل اجتماعية أحياناً وبعوامل وأسباب اقتصادية في أحيان أخرى معتمداً على منهج علمي وفكر نقدي وأصالة وابتكار(2)

والمقدمة من الأعمال المتميزة التي كتبت في مجال الاجتماع الإنساني أو العمراني البشري كما يسميه ابن خلدون وقد سبق فيها علماء الاجتماع الغربيين بحوالي أربعمائة سنة تقريباً بمناقشة العديد من قضايا علم الاجتماع المهمة والتي مازالت محل اهتمام علماء الاجتماع حتى الوقت الحالي.

العمران البشري عند ابن خلدون "ليس اجتماعاً منعزلاً منغلقاً على نفسه بين قلة من الأفراد يتعاونون على قضاء حاجات آنية بلا تفاعل فيما بينهم ولا نظم ولا ظاهرات اجتماعية، لأن هذا في الواقع مجرد تجمع عددي، أو هو ما يطلق عليه علماء الاجتماع كلمة (حشد) وهي كلمة تطلق في العادة على أبسط أنواع التجمع البشري، أي ذلك التجمع الذي يحدث بلا قصد بل نتيجة لصفات الإنسان البيولوجية والنفسية" إن مثل هذا التجمع البشري ليس عمرانا بل هو صورة سابقة على العمران ومختلفة عن المعنى الذي يفهمه ابن خلدون للعمران. ذلك بأن الاجتماع الإنساني الذي يتكون منه العمران البشري هو حسب رأي ابن خلدون الاجتماع الدائم الذي يحصل سواء في القرية (الحلة) أو المدينة (المصر) حيث تنشط الظاهرات والنظم الاجتماعية نتيجة للتفاعل المستمر بين الأفراد، وبذلك تنشأ الحضارة في هذا المجتمع بسبب التطور الحاصل في هذا النوع من الاجتماع الإنساني. ولعل هذا المنحى يتضح لنا بجلاء من خلال فهمنا لتعبير ابن خلدون "للأنس بالعشرة". والمعنى الذي يوحي به هذا التعبير هو المعاشرة الدائمة لا الاجتماع العابر كي تحصل المؤانسة والمعاشرة في الحياة الإنسانية، ثم تتطور هذه المعاشرة إلى اجتماع إنساني دائم تنشأ عنه نظم وظاهرات. إذ المقصود بالاجتماع الإنساني اجتماع بشر متفاعلين تنشأ بينهم علاقات تتطور إلى ظاهرات ونظم، وذلك يكون تحقيقاً للغريزة الاجتماعية في الذات الإنسانية. ثم أن الدولة والملك والكسب والعلوم والصنائع التي لا يفتر ابن خلدون عن الحديث عنها هي ظاهرات معقدة في المجتمع لا تحدث بمجرد اجتماعات عابرة مؤقتة وإنما هي تحدث بالتفاعل والتطور المستمرين في الحياة الاجتماعية. (3) وكما نعلم جميعاً أن الاجتماع الإنساني أساسي في حياة الإنسان وهذا ما

يعبر عنه علماء الاجتماع بقولهم: "الإنسان مدني بطبعه " أي لا بد من اجتماع الناس مع بعضهم البعض والذي به تتكون المدن وهو الذي يسميه ابن خلدون بالعمران.

منهج ابن خلدون:

أما إذا أردنا الحديث عن المنهج العلمي الذي اتبعه ابن خلدون فإنه يمكن إيجازه فيما يلي:

أ- يؤكد ابن خلدون على أن الباحث لا يقبل شيئاً على أنه حق إلا بعد أن يتأكد بوضوح على أنه كذلك.

ب- أكد على ضرورة الأخذ بمنهج المقارنة بين ماضي الظاهرة وحاضرها، ودراسة تطور الظاهرات والنظم العمرانية دراسة تاريخية، وذلك لأن العمران متطور ومتبدل.

ت- أكد ابن خلدون على أهمية وصول علم العمران إلى صوغ القوانين التي تحكم العمران لأن الوصول إلى هذه القوانين وظيفة من وظائف العلم.

ث- ركز على أهمية الملاحظة، التي تأتي علميتها من مسلكيها التاليين:

المسلك الأول: يتمثل في القيام بملاحظات حسية وتاريخية قوامها جمع المواد الأولية لموضوع البحث من المشاهدات ومن بطون التاريخ.

المسلك الثاني: يتمثل في القيام بعمليات عقلية يجريها على هذه المواد الأولية ويصل بفضلها إلى الغرض الذي قصد إليه من هذا العلم، وهو الكشف عما يحكم الظاهرات العمرانية من قوانين (4)من العرض السابق للمنهج العلمي عند ابن خلدون يمكن القول إنه يؤكد على الكثير من الأمور التي يهتم بها المنهج العلمي في العصر الحديث وهي التقصي الدقيق لأحوال الظاهرة المدروسة ومقارنتها بغيرها من الظواهر والكشف عما يحكم الظاهرة من قوانين وبعد التأكد من صحة جميع النتائج التي تحكم الظاهرة المدروسة واستخدام العقل في فحص الكثير من جوانبها وبعد التقصي والفحص الدقيق والتحري يمكن الوصول بعد ذلك إلى صياغة النظريات والقوانين التي تحكمها وهذا هو ديدن العلم الحديث الذي لا يحيد عنه أي علم من العلوم في الوقت الحاضر.

نظرية ابن خلدون الاقتصادية:

يعلق ابن خلدون أهمية كبرى في تعليلاته للظواهر الاجتماعية والحوادث التاريخية، على العوامل الاقتصادية، ولقد سبق في ذلك النظرية الماركسية بحوالي أربعة قرون فهو يصنف الشعوب حسب طرق إنتاجها ونحلها في المعاش ويربط بين الاقتصاد والمجتمع عن طريق الدولة ويعتبر العمل قوام الحياة الاقتصادية، كما يربط بين السكان والاقتصاد، موضحاً أهمية النشاط البشري وتقسيم العمل ودورة الحياة الاقتصادية.

يقول ابن خلدون في مقدمته "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم في المعاش فإن اجتماعهم إنما للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحضر من الفدن والمسارح للحيوان. إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين لهذا النوع من المعاش وحصل ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضروري واستكثروا في الأقوات والملابس والتألق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن، والأمصار للتحضر" (5). والبدو عنده هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي. (6) ويرى ابن خلدون أن البدو أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما يتطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج أهل الحضر وهو ظاهر وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر (7) أما الحضر عنده فهم المنتحلون في معاشهم الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وارفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري. (8) إذن كان منهج ابن خلدون الاقتصادي يعتمد على نظرية اقتصاديات

الحجم الكبير بمعنى أن فردين يعملان مع بعض ينتجان أكثر مما لو عمل كل منهما بمفرده ويكون لديهما فائض في الإنتاج زائد عن حاجتهما وأن الثلاثة عندما يعملون مع بعض ينتجون أكثر مما ينتج الاثنان وهكذا كلما زاد عدد العاملين في مجال معين كان الإنتاج أكثر من حاجتهم من المواد المنتجة.

نظرية ابن خلدون السكانية:

يعد العلامة ابن خلدون من أوائل المتطرقين إلى قضية السكان التي ناقشها باستفاضة في مقدمته الشهيرة وقد أثرت أفكاره في تقدم الدراسات السكانية خلال الفترة التالية لها وقد شرح آراءه في هذا الخصوص في نظريته المشهورة عن التغيرات الدورية للسكان وعلاقتها بالأحوال السياسية والاقتصادية للمجتمع والنموذج الذي يلي هذه الصفحة يوضح نظرية ابن خلدون في التغير الدوري للسكان بكل بساطة.

والمعروف أن ابن خلدون كان أول من جاء بفكرة " اقتصاديات الحجم الكبير والتي تقوم على فكرة التخصص وتقسيم العمل والتي يمكن شرحها ببساطة شديدة في أن رجلين يعملان معاً يستطيعان إنتاج أضعاف ما لو عمل كل منهما بمفرده بمعنى أشمل زيادة حجم الجماعة يزيد من فرص التخصص وبالتالي يكون في إمكانهم استغلال الموارد بصورة أفضل تقود إلى إنتاج يفوق الزيادة السكانية واحتياجاتها الضرورية" (9). وهذه النظرية مازالت ذات تأثير كبير في مجال الاقتصاد والصناعة وقد استخدمت فكرتها العامة في الوقت الحاضر في تسيير العمل في المصانع الكبيرة وهو النظام الذي يعرف بخط الإنتاج في صناعة السيارات وغيرها من الصناعات العصرية.

يرى ابن خلدون أن المجتمعات البشرية "تمر خلال مراحل تطورية محددة تؤثر على عدد المواليد والوفيات في كل مرحلة. إذ يشهد المجتمع في المرحلة الأولى من تطوره زيادة معدلات المواليد ونقص في معدلات الوفيات، بما يؤثر على نمو السكان ويزيد عددهم وعندما ينتقل المجتمع إلى المرحلة الأخيرة في تطوره يشهد ظروفا ديموغرافية مخالفة تماماً، ينخفض فيها معدل الخصوبة والمواليد، ويرتفع معدل الوفيات". (10) ويرجع ابن

خلدون سبب ازدهار السكان في المرحلة الأولى بقوله: إنما يعود إلى نشاطهم وثقتهم بأنفسهم ومقدرتهم أما تدهور عدد السكان في المرحلة الأخيرة من تطور المجتمع فهو يعود إلى انتشار الأوبئة والمجاعات والاضطرابات والثورات الأمر الذي يحد من زيادة النسل.

ولكي نوضح نظرية اقتصاديات الحجم الكبير عند ابن خلدون والتي ملخصها أنه إذا عمل اثنان مع بعضهما فإنهما سوف ينتجان أكثر مما لو عمل كل منهما بمفرده ولتوضيح ذلك نستعرض ما قاله ابن خلدون في هذا الخصوص حيث يقول "إن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم فأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبون منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى.....

مخطط لنظرية ابن خلدون في التغير الدوري للسكان(*)

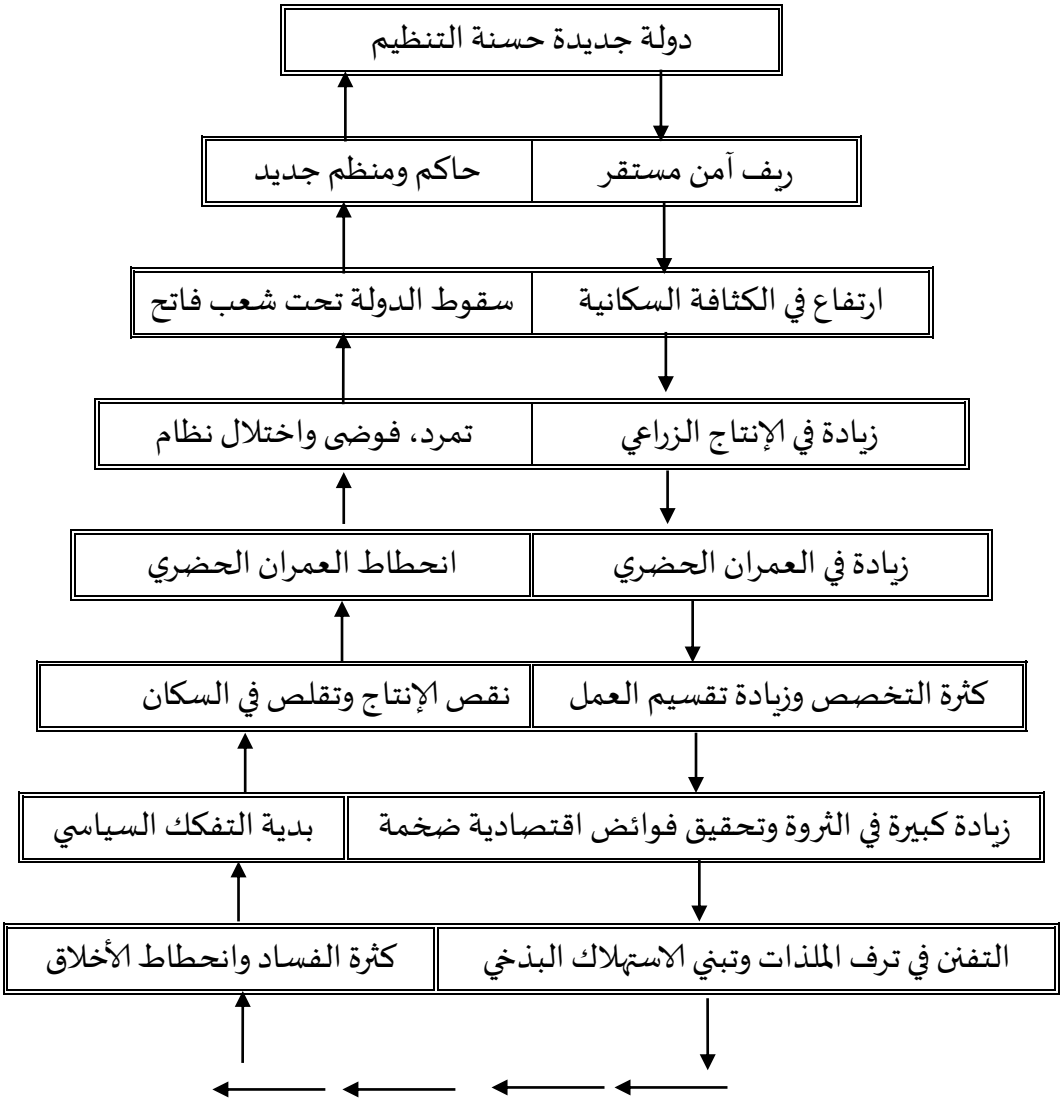

(*) عن محمد العوض جلال الدين، مرجع سبق ذكره، ص 21.

وقد تبين إنما هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها فكثرت بينهم، فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار في صناعتها والقيام عليها". (11). وتعد هذه النظرية من النظريات الجادة في مجال الاقتصاد حيث إن تعاضد مجموعة من أصحاب الحرف يؤدي إلى وفرة المادة المنتجة من تلك الحرفة وبالتالي يزداد الرخاء وتزداد ثروة الأمة مما يؤدي إلى رفاهية شعبها وهذا يمكنهم من تبادل ما زاد عن حاجتهم من السلع مع غيرهم من الشعوب فيعم بذلك الرخاء وتزدهر الأمة وقد استفاد الكثير من الاقتصاديين الذي جاءوا بعد ابن خلدون والذين اطلعوا على أعماله خاصة بعد ترجمة مقدمته المشهورة وغيرها من أعماله إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الأوروبية.

نظرية ابن خلدون التطورية:

فكرة التطور كما هو معلوم في مجتمعنا العربي ترجع في أساسها إلى التراث الإسلامي ومن قبله إلى الفلسفة اليونانية وإلى أرسطو بالذات وهي نظرية ترتيب الكائنات في سلم العالم ترتيباً ما يزال يحتفظ بقيمته حتى الآن في حقل العلوم على الأقل والذي طبقاً له تقسم الكائنات إلى كائنات غير عضوية تضعف فيها الصور وتتغلب فيها الصورة على الهيولى. وكائنات عقلية خالصة أو فكرية خالصة.

في التراث الإسلامي الذي اعتمده ابن خلدون نجد ابن مسكويه وابن الطفيل والقزويني قد كانوا ملتزمين بالنظرية اليونانية لم يزيدوا عليها شيئاً يذكر. لكن عند ابن خلدون نجد عناصر جديدة أولها: ما سماه باستحالة الكائنات أو تحولها من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها وهو ما يمكن أن نسميه بالديناميكا أو عنصر الحركة. العنصر الثاني أن هذه الحركة تسير إلى ما هو أعلى وأرقى ولا ترجع إلى الوراء أو إلى الأدنى. العنصر الثالث: أن هذا التطور المتنامي يمكن أن نستخرج منه قوانين للعقل يربط بها أسباب التطور بمسبباتها. العنصر

الرابع: هو عنصر الإرادة. إن هذه القوانين كما نجدها في الطبيعة نجدها كذلك في المجتمع.

يزيد ابن خلدون إمعانا في البحث عن أساب التطور في المجتمع فيعزوها في الغالب إلى الدولة فيقول في هذا الموضوع " إن السبب في تبدل الأحوال والعوائد هو أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه. فأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة فلا بد أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم، ويأخذوا الكثير منها، ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك، فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول، فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء، وكانت الأولى أشد مخالفة. فلا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجمالة. فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان، لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة". (12)

مقارنة التطورية الخلدونية وتطورية كل من: سان سيمون، وكونت، وسبنسر، ودوركايم.

العلوم الاجتماعية منذ ظهورها متعارضة كلياً مع وجهة النظر الخلدونية، فالعلوم الاجتماعية منذ ظهورها في أوروبا سنة 1848 كانت وفية إلى نوع محدد من التطورية أي أنها تحت ستار المجتمع الحديث، اعتبرت العلاقات التقنية والاقتصادية في النظام الرأسمالي نموذجاً أو مثلاً يفترض بالمجتمعات الأخرى المسماة متأخرة أو متخلفة أن تحتذي به يوماً لتلحق بالمجتمعات المتقدمة. وقصارى القول، أن العلاقات العميقة والمعقدة التي نشهدها في العمران البدوي والحضري عند ابن خلدون تشكل جزءاً من اختلاف وجهات النظر هذه.

الاختلاف بين سان سيمون وابن خلدون هو أن سان سيمون يرى أن الصناعة هي أساس السلطة في المجتمع الحديث حيث يرى أن المجتمع الحديث يستند بأكمله إلى الصناعة التي هي ضمانة وجوده الوحيدة والمورد الأوحد لجميع ثرواته ورفاهيته. وهذا يتعارض مع فكر ابن خلدون، فنظرية سان سيمون مع أنها اكتشفت الواقع الاجتماعي

وحددته ككل يتراوح بين صور آلية وصور عضوية، لا يبدو أنها تحل مسألة الطبيعة والكل الاجتماعي الذي حللته الخلدونية جيداً في العمران البدوي قبل حديثها عن العصبية وعن السلطة الحضارية خصوصاً (13). مع ما بين المنظرين من فاصل زمني كبير يزيد عن أربعمائة عام حيث عاش الأول فيما عرف بعصر التنوير بينما كتابات ابن خلدون كانت في العصر الذي كانت فيه أوروبا تغط في سبات عميق.

أما بالنسبة لأوجست كونت فإن هناك تعارضاً واضحاً بين الوضعية عنده وبين النظريات الخلدونية. حيث غابت الحتمية عن تحليل الطبيعيات الاجتماعية عند كونت لأن الفكرة المركزية عنده التي تتضمن تاريخ البشرية تبعاً لثلاث مراحل كبرى تبدو وكأنها تستبعد العملية التطورية في أساس السلطة السياسية التاريخية. لا يوجد بنظر كونت سوى ثلاث سلطات: سلطة النظام التقليدي، ثم سلطة هدم المؤسسات القائمة في هذا النظام، وأخيراً السلطة التي تبدأ ببداية القرن التاسع عشر وتنحصر مسألتها الرئيسية ببناء نظام جديد يتميز بالاستمرار والعقلانية معاً.

لقد برهن ابن خلدون خطأ هذا التفكير بفعل ظاهرة الاستمرار في أساس السلطة السياسية. وهناك تعارض فيما يخص مصدر النظام القائم. فكونت يثبت العكس عندما يحصر التقدم بتطور النظام ونموه، كما أن سير دراسته يناقض تماماً سير النظرية الخلدونية التي تقدم حصيلة تراجع العصبية وتفككها في العمران البدوي مع تفكك كامل النظام الحضاري.

فالأفكار لا تسير العالم ولا تكوّن أجهزة توجيه النظام السياسي، إنما الذهنيات الحضارية هي التي تقود بالأحرى المؤسسات من خلال نشوء سلطة المجتمعات كما يرى ابن خلدون وكما يفيد بأن الأخلاق (انطلاقاً من الدين والماورائيات) هي التي نظمت في الأصل أساس العصبية. (14)عليه فإن الأمل كبير حسب ما يرى ابن خلدون في أن يعيد المجتمع بناء الذهنية الحضارية التي تعيد التوازن إلى المجتمع عن طريق المؤسسات التي تؤكد سلطة المجتمع على جميع أفراده.

أما إذا انتقلنا إلى سبنسر فإنه تجدر الإشارة إلى وجود تعارض كامل بين تطورية سبنسر والتطورية الخلدونية. فالحتمية السياسية الفاعلة في أساس السلطة السياسية الموضوعية، تولد في رأي ابن خلدون مستقبل الإنسان الاجتماعي والإنسان الفردي مما يتيح لنا فهم مسألة أساس تكوُّن عوامل العصبية الديناميكية. أما برأي سبنسر فلا يتضمن الواقع آليات تكوين السلطة السياسية، أو آليات تناقضها الداخلية، كما أن مستقبل تلك السلطة لا ينجم عن مثل تلك الأنظمة السياسية، ويبقى بنظره مغلقاً عن التفسير والدرس. (15). ومهما كان الأمر فإننا نتبين التعارض الملموس بين منهج تكوين العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع المرتبط بالفلسفة الغربية في القرن التاسع عشر، وبين مسلك تكون النظرة الخلدونية منذ القرن الرابع عشر.

وأخيراً نتناول وجهة نظر دوركايم في التطور وما هو الفرق بينه وبين ابن خلدون في هذا الخصوص حيث ميز دوركايم بين سلطتين أو نموذجين من المجتمعات طبقاً لتقسيم العمل فيهما وذلك على النحو التالي: المجتمع القديم (التقليدي) حيث يكاد تقسيم العمل أن يكون معدوماً، والمجتمع الجديد (الحديث)حيث يزداد تقسيم العمل باستمرار، ويعترف دوركايم بقيام عصبية يطلق عليها اسم التضامن الآلي. وقد أشار ابن خلدون إلى أن الأفراد يعرفون في العمران البدوي روابط تضامن إلى مرتكز على العصبية وليس فقط على الشعور بالتشابه أو التماثل كما يقول دوركايم. أما في العمران الحضري فتنفصم عرى العصبية فلا يتم الترابط الاجتماعي بفعل تضامن عضوي كما يرى دوركايم نابع من شعور التكامل المتبادل بين الأفراد. (16) وهذا ما نراه اليوم في المجتمعات الحديثة التي كانت في الماضي القريب مجتمعات بدوية يسود فيها الترابط على أساس العصبية القبلية وعندما تحولت بعد أن دخلت في مرحلة التحديث إلى مجتمعات حضرية صار الترابط فيها على أساس تبادل المصالح ليس إلا.

علل ابن خلدون الانتقال من العمران البدوي باعتماد مقياس تاريخي حاسم متمثل بعصبية البدو بينما يكتفي دوركايم بتنبيهنا إلى أن الانتقال من التضامن الآلي إلى التضامن

العضوي يكون حصيلة التطور الإنساني أي حصيلة تقويم الفرد التدريجي الذي يغدو ضرورياً بحكم تقسيم العمل الاجتماعي. وبالمقابل يعتبر ابن خلدون حضارة العمران البدوي الجديدة تعبيراً عن تراجع العصبية وتراجع الدولة خصوصاً. إذ إن الفكر الخلدوني يحلل العوامل الاجتماعية وفقاً لمفهوم تفكك السلطة الحضارية لا وفقاً لمفهوم التطور أو التقدم. (17) لا أوافق على أن التحضر يؤدي إلى تراجع العصبية القبلية كلية وإنما هي قضية نسبية فكثير من الدول العربية التي وصلت إلى مستوى عال من التحضر مازال شعبها مصراً على التمسك بالعصبية القبلية. والمثال الواضح على ذلك هو حال الشعب الليبي هذه الأيام الذي وصلت فيه نسبة التحضر إلى حوالي 90% حسب آخر إحصاء سكاني وهو إحصاء عام 2006 ورغم هذه النسبة العالية جداً من التحضر إلا أنه مازال مصراً على القبلية والتمسك بها بكل ما أوتي من قوة وهو ما لمسناه بكل وضوح في الانتخابات النيابية والبلدية الأخيرة وفي تصعيد (اختيار) أعضاء ما كان يعرف باللجان الشعبية في السابق.

هكذا نصل إلى مسألة التعارض بين التضامن الآلي المتسم بالعجز والعمران البدوي المتحقق بالعصبية من ناحية، وبين التضامن الآلي أو فقدان القواعد وانعدام الامتثال لها من ناحية ثانية. إن مهمة المجتمعات المتقدمة هي كما يقول دوركايم من اختصاص عمل العدالة.

وأخيراً فإن ابن خلدون ودوركايم يتفقان على أن فاعليات الأنظمة الاجتماعية الحضرية والحديثة لا تناسب الفرد كما أن تقسيم العمل لا يؤدي إلى التضامن أي لا يولد العصبية.

وفي الختام فإن ابن خلدون حسب اعتراف الكثير من مفكري الغرب المعاصرين أنفسهم يعد المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع فهو قد سبق علماء الغرب الذين نعدهم مؤسسي علم الاجتماع أمثال أوجست كونت وسبنسر وغيرهم بأربعة قرون من الزمان أو يزيد قليلاً وهذا الأمر يجب أن لا يغيب عن أذهاننا عند نقاشنا للكثير من القضايا الأساسية في علم

الاجتماع التي تناولها ابن خلدون بأسلوب يكاد لا يختلف عن ما نتبعه في الوقت الحاضر في بحوثنا ودراساتنا.

يتضح مما تقدم أن فكر ابن خلدون كان فكراً اجتماعياً يمكن أن يوصف بأنه إلى حد ما له صبغة علمية مقارنة مع مراحل التفكير العلمي التي كانت سائدة في ذلك الوقت وكما سبق وأن ذكرنا كانت له وجهات نظر موفقة في طرح العديد من القضايا بأسلوب يمكن اعتباره علمياً خاصة وأنه سبق المفكرين الاجتماعيين الأوروبيين بأكثر من أربعمائة سنة وهي مدة ليست بالقصيرة وتشير إلى عبقرية ابن خلدون في النظر إلى العديد من القضايا الاجتماعية وتفسير الظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره بأسلوب لا يعتمد على الظن أو الخيال وإنما على الوقائع والمعايشة لتلك الأحداث وليس كما فعل بعض المؤرخين الذين سبقوه فسر كثيراً من الأحداث التاريخية بأسلوب لا يمكن تصديقه وخاصة ما هو متصل منها بظواهر الاجتماع الإنساني وأحوال المجتمعات.

ويرى ابن خلدون أن منهج البحث في علم العمران لا بد أن يعتمد أولاً على الملاحظة المباشرة وتفسير الظواهر وتحليها باستخدام منطق التعليل العلمي والاعتماد على منهج المقارنة أي منهج البحث المقارن، كما يحب الاعتماد على قياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران وما يتوفر من حقائق أو معطيات منطقية، الحيطة عند التعميم وما يتبعه معظم الباحثين الاجتماعيين في الوقت الحاضر. ثانياً دعا ابن خلدون في أكثر من موقع من كتابه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" إلى ضرورة قيام علم مستقل للاجتماع، وأن المجتمع الإنساني كيان طبيعي وضروري تسيره مجموعة من القوانين العامة التي يجب أن يكشف عنها علم الاجتماع، وهو يرى أن الاجتماع البشري أمر ضروري بمعنى أن الإنسان مدني بطبعه ولا بد له من الاجتماع مع غيره من البشر، وأن التطور خاصية مهمة من خواص المجتمع الإنساني، ويؤكد ابن خلدون على أن المجتمع الإنساني تتحكم فيه مجموعة من الظواهر الاجتماعية والطبيعية فالأولى تعود نشأتها إلى المجتمع بينما الثانية مستقلة عن

المجتمع، كما أن للسلطة أهمية خاصة في الحفاظ على المجتمع وضمان بقائه واستمراريته.

هذا باختصار ملخص عن العلامة العربي عبد الرحمن بن خلدون الذي يرى فريق من علماء الاجتماع أنه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع وهو الذي أقامه على أسس ودعائم سليمة.

ثانياً: المفكرون الأوروبيون

تعرف مرحلة التفكير الإنساني التي سادت خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر في أوروبا باسم الحركة الإنسانية أو حركة الإصلاح الديني التي سيطرت على كامل قارة أوروبا في القرنين الخامس والسادس عشر وذلك نتيجة لظهور مشاكل اجتماعية وسياسية ودينية وكان التنافس في هذه المرحلة على أشده بين الكنيسة والمؤسسات الحاكمة ما أدى إلى ظهور حركات إصلاح دينية تنادي بإصلاح المجتمع، ما أدى إلى انتهاج رواد حركة الإصلاح في ذلك الوقت أساليب متعددة للتعبير عن أفكارهم التي لم يستطيعوا التعبير عنها بصراحة خوفاً من بطش الحكام أو رجال الدين الذين كانوا يضربون حصاراً فكرياً على مجتمعاتهم مما جعل هؤلاء المفكرين يخشون على حياتهم من التعبير الصريح عن أفكارهم ويتخذون سبلاً شتى لتوصيل أفكارهم إلى عامة الناس، وهي الفترة التي سبقت ظهور المؤسسين المحدثين لعلم الاجتماع في أوروبا والذين كان في مقدمتهم الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت الذي أعطى لعلم الاجتماع اسمه الحالي، على الرغم من أنه معروف لدينا جميعاً نحن العرب على أقل تقدير والكثير من علماء اجتماع الغرب أن المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع هو العلامة المؤرخ العربي التونسي عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة والذي سبق أوجست كونت بأكثر من أربعمائة سنة، حيث عبر ابن خلدون عن أفكاره السياسية بوضوح تام وبشكل مباشر دون اللجوء إلى اتخاذ الأساليب غير المباشرة لتوصيل أفكاره إلى من يهمه الأمر من الناس في عصره كما فعل من جاء بعده بعدة قرون من الأوروبيين.

سوف نتناول في هذا الجزء أعمال ثلاثة مفكرين مثلت أفكارهم البدايات الأولى للتفكير الاجتماعي وهم: توماس مور الذي ولد في إنجلترا في منتصف القرن الخامس عشر وهو كاتب سياسي ساخر ومن أهم وأشهر أعماله كتاب اليوتوبيا، وتوماس هوبز الذي ولد في أواخر القرن السادس عشر في إنجلترا ويعتبر من أعظم فلاسفة السياسة الإنجليزية وهو من أصحاب الاتجاه العقلاني ومن أشهر أعماله كتاب التنين، وأخيراً جان جاك روسو وهو فيلسوف فرنسي ولد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو الذي كتب عدة مقالات في الفنون والعلوم والقضايا التربوية ويعد العقد الاجتماعي قمة رسائله في السياسة والحكومة المدنية.

أولا: توماس مور

عاش توماس مور خلال الفترة 1477-1535 في إنجلترا وهو من أبرز المفكرين الذين قادوا حركة الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي ليس في بريطانيا فقط وإنما في أوروبا بشكل عام وقد كان لآرائه الأثر الكبير على الفكر الإنساني خاصة في مجال الحقل التربوي.

وحيث إن البطش كان على أشده بأصحاب الفكر الإصلاحي في ذلك الوقت فإنه " لم يتمكن من الإعلان عن آرائه بصراحة خشية مصادرة بحوثه أو وقوعه تحت طائلة العقاب فاستعار لبحوثه شخصيات خرافية في مجتمعات خرافية عبر من خلالها عما يجيش في خواطره من ميول وحاجات ورغبة في الإصلاح الاجتماعي.

ويعد كتاب اليوتوبيا Utopia "التي تعني: البلد أو المجتمع الذي لا يوجد إلا في الخيال" من أشهر أعماله وقد استطاع من خلاله نقد الحياة الاجتماعية في عصره والدعوة عن طريق خفي إلى الإصلاح، كما بين فيه الفساد الأخلاقي في المجتمع الذي عاش فيه (أي المجتمع الإنجليزي في القرن السادس عشر) وذلك عن طريق المقارنة بين هذه الأخلاق والأخلاق السائدة في مدينة أحلامه.

ومن خلال كتابه السياسي الساخر "اليوتوبيا" عبر توماس مور عن نفوره من المجتمع

الاستحواذي الذي أصبح فيه الاستغلال من الأخلاق الفاضلة وعليه فإن الشراء بثمن رخيص والبيع بثمن غال يعد من الأمور الفاضلة. واستخدم مور نمطاً من السخرية يمكن أن يصلح لأية فترة يسودها الاختلال الاقتصادي وهو يسخر من الثروة ولا يعتقد أنها تحقق السعادة بل قد تجلب التعاسة فالسعي وراء الثروة هو الذي يدفع الناس إلى التقاتل والحروب وهو الذي يدفع الحكام إلى بذل الجهود المضنية من أجل بسط سلطانهم على غيرهم من الأمم بدلاً من بذل الجهد في إصلاح أمور شعوبهم وحكم بلدانهم حكماً صالحاً: الجريمة شائعة بصورة تبعث على الإزعاج وتقابل بوحشية مماثلة في القانون الجنائي ومع ذلك فالشدة لا تفيد بشيء، لأن الجريمة أصبحت وسيلة اكتساب العيش الوحيدة المتاحة أمام أعداد كبيرة من الأشخاص. ما الذي نفعله بهذه القوانين خلاف أن نخلق لصوصاً ثم نعاقبهم. (18) ويرى اليوتوبيون أنه من العجب أن يكون عقاب السارق في بعض المجتمعات الإعدام، وهم يرون ما من شيء يمنع السرقة إذا لم نوفر للسارقين فرص عمل شريف، وأي حاكم يقوم بمثل هذا التصرف أي يقوم بإعدام السارق الذي لا تتوفر لديه فرصة عمل يعتبر من وجهة نظر اليوتوبيين أحمق.

كان مور مولعاً في صباه بدراسة الآداب والفلسفة اليونانية، وألف مناظرة دافع فيها عن جمهورية أفلاطون. كما أنه جد في دراسة أعمال رجال الكنيسة، واكتسب معرفة عقلية بالمشكلات الدولية في القرن السادس عشر وذلك بفضل المناصب التي تقلدها، وقد عاصر مور بدء الاكتشافات الجغرافية العظيمة، وبلغته أنباء الحياة الطبيعية التي يحياها سكان أمريكا الأصليون، واستهوته حياتهم لدرجة أنها أثرت في أفكاره تأثيراً بليغاً. وقد تجلى ذلك في أنه صار يؤمن بأن الحالة الطبيعية التي تكمن فيها البراءة والطهر، لدرجة أن هذه الفكرة صارت بارزة في جميع كتاباته. كذلك تأثر بالدراسات الدينية ولاسيما بآراء القديس أوغسطين وتوماس الأكويني. (19) ونظرا لما كان يتمتع به من قدرة غير عادية على إيصال أفكاره للناس بأسلوب بسيط وجذاب وذلك بسبب إلمامه بأفكار من سبقه من الفلاسفة والمفكرين فقد وجدت أفكاره التي كانت تميل إلى التمسك بأخلاق

الإنسان الطبيعي صدىً واسعاً لدى شريحة كبيرة من المجتمع الذي كان يخاطبه.

يصنف توماس مور كأحد مؤسسي الاشتراكية الخيالية وهو من الفلاسفة العقلانيين الإنسانيين في عصر النهضة، تربى في أسرة برجوازية وشغل فيما بين عام 1529 وعام 1532 منصباً هاماً وهو حامل أختام الملك. وقد أعدم بفصل رأسه عن جسده لرفضه الاعتراف بالملك رئيساً للكنيسة (20). ويتحدث مور عن الرقيق فيصنفهم إلى نوعين: نوع يأتي بالميلاد وهو يتألف من أولئك الذين يباعون ويشترون في الأسواق، والنوع الآخر هو الذي عبارة عن الطبقة الكادحة التي تعيش في بؤس وفقر وهم رقيق بالاختيار في النظام اليوتوبي. وكان مور متمسكاً بتعاليم الكنيسة وقد كان مثله مثل غيره من مفكري عصره الذين لم يستطيعوا الإعلان عن آرائهم بشكل مباشر خشية مصادرة أبحاثهم ووقوعهم تحت طائلة العقاب فاستعاروا لأبحاثهم شخصيات خيالية في مجتمعات خيالية يعبرون من خلالها عن اتجاهاتهم الفكرية.

كان كتاب اليوتوبيا من أشهر كتبه وهو كتاب يحتوي على قصة اليوتوبيا صور فيه حالة إنجلترا في القرن السادس عشر وتحدث في اليوتوبيا عن ما ينبغي أن يكون عليه حال إنجلترا لإنهاء الشرور التي يعيش فيها المجتمع في ذلك الوقت، وقد رسم مور في كتابه شخصية أستاذ برتغالي أطلق عليه اسم روفائيل كان عاشقاً للمغامرات فترك كل ما يملك ورافق أحد المغامرين وفي إحدى مغامراته عثر على جزيرة يوتوبيا، وكلمة Utopia كما سبق وأن أشرنا تشير إلى مجتمع خيالي لسعادة الإنسان خالٍ من النقائص البشرية يعيش فيه الأفراد بدون صراع أو تنافس فيما بينهم وغيرها من المساوئ التي تنجم عن التفاعل البشري سواء في الماضي أو الحاضر، وقصة اليوتوبيا كانت تدور حول جزيرة تتكون من اتحاد مجموعة من المدن والأراضي المحيطة بها، يمثل كل مدينة ثلاثة من عقلاء شيوخها، ينتخبون وينتدبون سنوياً للذهاب إلى عاصمة البلاد حيث يتشاورون في المصالح المشتركة للجزيرة وتضم كل مدينة 100,000 مواطن وتيسيراً لعملية الانتخابات تقسم المدينة إلى أربعة أقسام وكل قسم يقسم إلى جماعات تضم كل جماعة 30 عائلة تنتخب قاضياً

وينتخب كل عشرة من هؤلاء القضاة سنوياً قاضياً أعظم ويبلغ عدد القضاة العظام 200 قاضياً في كل أنحاء الجزيرة وهم الذين يؤلفون مجلس الشيوخ الذي ينتخب أمير الجزيرة من بين أربعة أشخاص يرشحهم الشعب ويحكم هذا الأمير الجزيرة طيلة حياته إلا إذا ظهرت عنده نزعة الظلم والاستبداد فيعزل. ويعاون الأمير مجلس مكون من عشرة من القضاة يجتمعون كل ثلاثة أيام للتشاور مع الأمير بشأن المسائل العامة للدولة ولحل المشاكل التي تنشأ بين الناس. كما تعرض في كتابه للحديث عن العائلة التي كان يرى أنها ليست وحدة اقتصادية وسياسية فحسب يحكمها الأب الذي تقوم الزوجة على خدمته وخدمة أولاده، والتعليم في اليوتوبيا عملي الطابع حيث يدرس الطلاب علوماً مثل الحساب والهندسة والزراعة ويسمح لكل دارس باختيار المهنة التي يرغب فيها ويحق للمتفوقين أن يتفرغوا لدارسة العلوم التي نبغوا فيها. والقوانين في اليوتوبيا قليلة ودستورها خال من التعقيد والحيل القانونية ويحتوي على مواد تشريعية تعني بحاجات الناس الأساسية، لأن أهل اليوتوبيا يعرف عنهم حبهم للصدق وإيثارهم للمصلحة العامة. (21) وهكذا تمكن من جعل المدينة اليوتوبية التي تصورها والتي هي أقرب ما تكون إلى المدينة الفاضلة تحظى بالقبول بين الأوساط الشعبية في بلاده لما فيها من ترسيخ لمبدأ الديموقراطية التي كانت غائبة في العصر الذي قدم فيه هذا التصور.

ثانيا: توماس هوبز

هوبز فيلسوف إنجليزي عاش خلال الفترة 1588-1679. حيث كان ميلاده " في قرية وستبورتWestport بالقرب من مدينة مالسبري Malesbury في مقاطعة ولتشير Wiltshireجنوبي إنجلترا في الخامس من أبريل عام 1588. وقد وضعته أمه قبيل مولده الطبيعي لما أصابها من هلع لما تردد من شائعات حول قرب وصول الأسطول الإسباني العظيم المسمى بالأرمادا. وكثيرا ما كان يشير هوبز إلى هذه الواقعة التي يعزو إليها طبيعته الهيابة "(22) وهذه الطبيعة الهيابة رافقته طوال حياته وهي التي جعلته يبتعد عن المواجهة مع السلطة طوال حياته حيث وقف إلى جانب الملك عندما احتدم الصراع بينه

وبين البرلمان واعتقد أنه بهذا الموقف كان لا يريد مواجهة الملك لدرجة أنه صار متطرفاً في مناصرته للملكية في بلاده.

يرى هوبز أن سيرة حياة الإنسان كلها قائمة على غريزة البقاء، وكانت هذه الغريزة بالإضافة إلى الحياة الإنسانية كالحركة بالإضافة إلى الطبيعة. وعليه من الخطأ الاعتقاد بحياة اجتماعية تحمل الإنسان على الاجتماع والتعاون، وإنما الأصل أو "حالة الطبيعة" أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وأن الكل في حرب ضد الكل، وأن الحاجة واستشعار القوة يحملان الفرد على الاستئثار بأكثر ما يستطيع الظفر به من خيرات الأرض، وإن أعوزته القوة لجأ إلى الحيلة. يشهد بذلك ما نعلمه من أجدادنا البرابرة وعن المتوحشين، وما نتخذه جميعاً من تدابير الحيطة وأساليب العون، وما نراه في علاقات الدول بعضها ببعض، وغاية ما تضعه الحضارة أن تحجب العدوان بستار "الأدب" وأن تستبدل بالعنف المادي النميمة والافتراء والانتقام في حدود القانون. (23) وحقيقة وجهة النظر هذه نراها الآن في حياة المدينة من نفاق اجتماعي ودسائس ومكائد ضد من نكرههم بدلاً من المواجهة المباشرة معهم.

كان هوبز عالماً تقليدياً (كلاسيكياً) أبان حكم الملك جيمس الأول، ثم رياضياً وفيلسوفاً صاعداً في عهد الملك شارل الأول، ثم فيلسوفاً وموضع ريبة في عهد جمهورية كروميل Cromwell، الذي كان آنذاك يتربع على رأس الجمهورية الوحيدة في تاريخ إنجلترا التي قامت على أنقاض عرش الملك شارل الأول، ثم بعد أن عادت الملكية إلى إنجلترا في عهد الملك شارل الثاني كان هوبز قد أصبح مؤرخاً وشاعراً. وهو من الناحية السياسية يعتبر (ملكي متطرف)، وقف في صف الملك عندما احتدم الصراع بينه وبين البرلمان. ولو أن البعض ينفي عنه صفة التطرف للملكية لأنه عاد إلى إنجلترا من فرنسا في عهد جمهورية كروميل ولم يخش على نفسه من العودة في ظل النظام الجمهوري على الرغم من أنه كان يفاخر بأنه أول من هرب وكان يصف نفسه بالجبن وهي صفة أكد عليها معظم الذين كتبوا عن حياة هوبز. (24) ومن أهم المناصب التي شغلها هوبز منصب معلم الملك شارل الثاني وهو منصب رفيع جداً في ذلك الوقت جعله يحظى بمكانة خاصة بين الحاشية الملكية وبين المواطنين.

يعتبر كتاب التنين الذي صدر في لندن عام 1651 من أشهر أعمال هوبز وهو كتاب يتناول فلسفة جديدة في عنوان جديد، قال عنه أحد المفكرين بأنه المؤلف الرئيسي في فلسفة هوبز السياسية "ليس من بين المؤلفات السياسية الكبرى في العصر الحديث مؤلف يماثل التنين في اتساقه ودقته ومتانة بنيانه سوى أصول فلسفة الحق لهيجل". ويصفه ميشيل أوكشوتMichael Oakeshott بقوله: "كتاب التنين هو أعظم تحفة - إن لم يكن التحفة الوحيدة - في الفلسفة السياسية التي كتبت باللغة الإنجليزية. ولا يمكن لتاريخ حضارتنا أن يزودنا إلا ببضعة مؤلفات قليلة على هذا القدر من الاتساع في المجال والمستوى من الإنجاز، ومن هنا فيجب ألا يحكم عليه إلا بأرفع المقاييس"(25). التي تليق بهذا المفكر العبقري الذي ترك أثراً واضحاً في الفكر الاجتماعي في القرن السابع عشر عندما كتب كتاب التنين الذي كان يدعم في سلطة الملك بهذا الحيوان أسطوري ولو أن البعض كان يرى أنه كان يقصد تدعيم سلطة الدولة لتكون منيعة وقوية في نفس الوقت.

والتنين أو اللوياثان Leviathan الذي اختاره كعنوان لكتابه هو حيوان أسطوري، جاء ذكره في أسفار العهد القديم للديانة اليهودية، واللوياثان كلمة عبرية تعني الملتوي أو الملتف. وقد صوره هوبز على أنه وحشاً بحرياً هائل يقهر كل الوحوش الأخرى ويسيطر سيطرة تامة على جميع الحيوانات الموجودة في مملكته ويبث فيها الرعب. أما موضوع الكتاب فيتمثل في إقامة دولة قوية منيعة تقضي على كل ضروب الفوضى والاضطراب والفتن والحروب الأهلية وتحقق الأمن والحماية لمواطنيها. وعلى هذا الأساس فإن البشر العقلاء الواقعيين سوف يرون أنهم في حاجة ماسة لأن يحكموا بواسطة دولة قوية منيعة تكون على غرار التنين تقوم بحمايتهم وتكون محاولة تقويضها ضرباً من الجنون لأنه لا توجد قوة على الأرض تعادل قوتها. والتنين الذي صوره هنا هو الدولة نفسها كما يرى البعض وليس الحاكم أو الملك كما يقال خطأ في كثير من الأحيان. بينما التنين هو الملك أو الحاكم كما يعتقد البعض الآخر الذين يرون أن هوبز كان يعني بالدولة الحكم المطلق الذي يتمتع به الحاكم مما يجعل الأفراد يرهبونه كما يرهبون الوحش الطاغي المذكور في

الكتاب المقدس. وتظهر صورة هذا الوحش على غلاف كتاب التنين مصوراً على هيئة عملاق يحمل في يده اليمنى السيف لأنه هو الذي يملك القوة ويسن الشرائع ويضع القوانين، وهو الذي يعلن الحرب، ويشن المعارك. وهو في نفس الوقت يحمل عصا البابوية في يده اليسرى، ومعنى ذلك أنه يشرف على الكنائس والأمور الروحية والمسائل الدينية العامة. وذلك يعني في النهاية أن التنين يمسك بالسلطتين المدنية والدينية في آن واحد. (26). ويقول هوبز في مقدمة كتاب التنين "إن دهاء الإنسان وتحايله هو الذي خلق هذا الوحش الطاغي الذي نسميه الدولة. فالدولة في نظره تتمثل في الحكم المطلق الذي يتمتع به الحاكم مما جعل الأفراد يرهبونه كذلك الوحش الطاغي الذي سمي الكتاب باسمه. ويكشف لنا هذا الكتاب عن آراء هوبز في علم النفس والأخلاق والسياسة. أما فيما يتعلق بعلم النفس فهو من أنصار المذهب الحسي أي أنه لا يعترف كثيراً بوظيفة العقل في اكتساب المعرفة بل يقول بأن كل المعرفة تأتي عن طريق الحس. أما في الأخلاق فهو من أنصار المادية النفعية. ومن حيث السياسة من أنصار الحكم المطلق وقد أشاد به في كتابه المذكور. (27) هذا الوحش الطاغي الذي سماه الدولة مهم جداً لحفظ التوازن والنظام بالنسبة للمجتمع والحكم المطلق الذي يتمتع به الحاكم هو الذي يجعل الأفراد يرهبونه كما يرهبون التنين ذلك الوحش الطاغي الذي سمي الكتاب باسمه.

وقد بنى هوبز نظريته في نشأة المجتمع على أن الإنسان أناني بطبعه، وأن هذه الأنانية تجعله لا يفكر إلا في نفسه. وفي سعادته الفردية: إذ يقول "إن أول خطأ يجب أن نتحرر منه هو الاعتقاد الذي كان سائداً منذ عهد أرسطو بأن الإنسان (اجتماعي بطبعه) وأنه يحمل معه منذ ولادته غريزة العيش في مجتمع" وهذا الاعتقاد في نظر هوبز منشؤه الجهل بطبيعة الإنسان "فإذا اختبرنا الأسباب التي تدفع الناس إلى الاجتماع وجدنا أن المجتمع نظام خلقته الإرادة الإنسانية".

ويدلل هوبز على رأيه هذا بقوله: "إذا كان الناس بطبيعتهم يحبون بعضهم بعضاً ويميل بعضهم إلى بعض، فلماذا يتشكك المرء ويتوجس خيفة حين يقابل إنساناً لا يعرفه؟

إننا لا نقبل من تلقاء أنفسنا على هذا الشخص الغريب، بل إننا نرهبه. وعندما يأتي الليل نغلق نوافذنا ونصد أبوابنا. فالإنسان - من حيث هو إنسان - ليس هو الهدف الذي نسعى إليه. ونحن لا نرغب في الاجتماع بأمثالنا إلا لبواعث مغرضة. وإذا كان أعضاء المهنة الواحدة يتعاونون فما ذلك إلا لينمي كل منهم ثروته". (28)

المجتمع إذن في رأي هوبز ظاهرة مصطنعة. ولكن ما الغرض الذي دفع الإنسان إلى اصطناع حياة المجتمع؟ يقول هوبز "للإجابة على هذا السؤال يجب أن نحدد الحالة الطبيعية التي كان عليها الإنسان في بدء نشأته. فإذا حددنا (قانون الطبيعة) سهل علينا بعد ذلك أن نعرف على أي الأسس يجب أن يقوم القانون السياسي".(29)

هوبز من أنصار النظام الملكي كما سبقت الإشارة وهو يرى أنه بعد قيام الاتفاق الحر أو التعاقد بين الملك أو الحاكم المطلق وبين الشعب. فكل ما يفعله الحاكم المطلق يفترض أن يكون محققاً للتوازن ومن أجل تحقيق الأمن والحماية.. فما يفعله هو العدل حتى ولو كان للناس رأي آخر في أفعاله فهو الحاكم المطلق وليس للأفراد أن يستردوا ما عهدوا به إليه وأي محاولة لاسترداد السلطة الممنوحة للملك يعتبر القائم بها متمرداً وعلى الجماعة وليس الملك أن تبتره من عضويتها ويبدو أن الانحياز المطلق للملكية قد جعل هوبز يعتقد أن الملك الطاغية هو الذي سيسلب هذا الملك حقاً أساسياً له بينما لم ير هوبز أن الملك الطاغية هو الذي يسلب حقوق الشعوب وأن كل ثائر وطني يحاول استرداد تلك الحقوق يعتبر بطلاً.. وبالتالي نستنتج أن هوبز يرى أن الدولة (تكوين صناعي بمقتضى تعاقد إرادي) فالمجتمع لم ينشأ تلقائياً وإنما إرادة الناس هي السبب في وجوده. والخير كما يراه هو الذي يحقق اللذة للفرد والشر يخلف الآلام. وبما أن نظريته قائمة على التحليل النفسي للطبيعة الإنسانية فقد اعتبره الكثيرون أبا علم النفس الاجتماعي. (30)

كان هوبز يأمل أن يضع نظرية سياسية تقوم على أسس وقواعد راسخة، بحيث تقضي على البلبلة والاضطرابات الفكرية التي كانت تسود الحياة الإنجليزية آنذاك، فحتى الحرب الأهلية كانت في نظره حرب أفكار جزئية وحيدة الجانب تتصارع بسبب سوء الفهم.

ولم يكن مذهب هوبز ناجماً عن ظروف خاصة تعرض لها بلده وإنما كان مذهبه بداية لنشأة علم السياسة وفي هذا يقول هيجل: في إنجلترا في القرن السابع عشر نشأ علم السياسة العقلي، لأن النظم والحكومة التي كانت قائمة بين الإنجليز في ذلك الوقت، قادتهم بصفة خاصة إلى التفكير في العلاقات الداخلية السياسية والاقتصادية، ولا بد أن نذكر هوبز هنا بوصفه الممثل لهذه الحقيقة. فهيجل، إذن، لا يعد مذهب هوبز مجرد رد فعل محلى ذا قيمة تاريخية فحسب لكنه يصفه بأنه بداية لنشأة علم السياسة العقلي. (31). وإذا كان قد قال في نهاية كتاب التنين " أن اضطرابات الوقت الحاضر هي التي وقتت صدور هذا الكتاب " فهو قد فكر في هذه الاضطرابات بوصفه مفكراً يسعى إلى حل مشكلات الإنسان أينما وجد، وإنهاء الصراع بين الفرد والمجتمع، أو تفسير خضوع المواطن لسلطة الدولة، لكنه لم يكن يفكر بوصفه مواطناً إنجليزياً تحزنه أحوال بلاده المتردية فقط. بل كان يرى في الحرب الأهلية مثالاً لفساد التنظيم السياسي الذي يقوم على أسس غير سليمة، لهذا فكر في تصور نظام حكم جديد يحقق قيام المجتمع البشري المستقر. (32). ومن الصفات التي اتسم بها هوبز أنه مستقل ذهنياً أي أنه كان يفكر بطريقة مستقلة ولا يلزمه إلا سلطان العقل فقط بمعنى أنه لم يكن يجاري السلطة عندما كان يفكر، كما أنه كان مشاكساً كثير الخصوم، وكان يتخذ موقف المتشكك من الكثير من المعارف والآراء والأفكار السابقة لعصره، وهو يرى أن العقل واحد وعام عند جميع أفراد البشر وأن الناس متساوون جميعاً في قدراتهم العقلية وإذا ما حكم كل شخص عقله بأمان ونزاهة فإنه سيصل إلى نفس النتائج التي توصل إليها الفيلسوف العقلاني. (33).

فكرة العقد الاجتماعي قديمة جداً فقد وردت في القوانين الرومانية القديمة ثم تطور خلال العصور الوسطى إلى أن وصلت قمتها خلال مرحلة الإصلاح الديني، وأن نمو فكرة التسامح الديني ترجع بالدرجة الأولى إلى العقد الاجتماعي، وإلى فكرة القانون الطبيعي التي ارتبطت به، وأن فكرة العقد الاجتماعي يمكن أن تنحصر في القول بأن: التجمع البشري الذي يشكل الدولة جاء نتيجة لاتفاق واعٍ بين الأفراد بعضهم ببعض من ناحية وبينهم

وبين الحاكم من ناحية أخرى. ومن هنا كان هناك نوعان من العقود هما: أ - ميثاق يتعلق باتحاد الأفراد مع بعضهم البعض وتحولهم بذلك من الفردية إلى المواطنة وقبول رأي الأغلبية في القرارات التي يتخذونها بشأن تنظيم حياتهم. ب - ميثاق الرعايا مع حاكمهم: وذلك بإقرارهم بسلطة الحاكم عليهم وخضوعهم لنوع معين من الحكومة.

يرى هوبز أن الصراعات الإنسانية سببها الأول يعود إلى أن لدى الإنسان شهوة عارمة للقوة تؤدي بكل فرد إلى أن يبالغ في تقدير خسارته أو متاعبه على حساب الآخرين واتخذ من شرور الناس ورغبتهم في الاستحواذ على ما في أيدي غيرهم وأنه لا مخرج للناس من ذلك إلا بأن يتعاقدوا على التنازل عن حقوقهم في الحرية لواحد منهم يقوم بحكمهم بواسطة السلطات التي تتجمع في يديه فيكون له مطلق الحق في أن يتصرف بحياة الناس كما يشاء متى ما ضمن لهم حياتهم وأمنهم ضد الخطر الخارجي والداخلي. ولهذا ليس لهم أن يحاسبوه أو يفسخوا اتفاقهم معه لأنهم تنازلوا بالتعاقد عن إرادتهم والتزموا بالطاعة التامة لحاكمهم بموجب تعاقدهم بينهم وبين بعضهم البعض لا بينهم وبين الحاكم (34).

وأخيراً يمكن القول إن أفدح الأخطاء التي وقع فيها هوبز أثناء صياغته لنظريته في الحكم هي إعطاء الحاكم حقاً مطلقاً وسيادة بدون حدود، وهذا الطرح يعارض فكرته العقلانية عن الدولة، وكما سبق وأن ذكرنا فإن الصفات التي يضعها هوبز للحاكم ينبغي أن تكون صفات خاصة بالدولة.

ثالثا: جان جاك روسو

ولد روسو في سويسرا عام 1712 لأسرة فرنسية الأصل. وتوفيت أمه وعمره ثمانية أيام ونكب بأبيه وعمره ست سنوات وفقد وطنه وعمره ستة عشر عاماً. وقد كان لآرائه السياسية دوراً كبيراً في تطور الديموقراطية الحديثة في أوروبا. واستقر في آخر أيام حياته في فرنسا حتى وفاته عام 1778..

كان روسو فاشلاً في التعليم في سنوات عمره الأولى لدرجة أن خاله زج به عند كاتب

المدينة لكنه كره هذه المهنة فصرفه إلى أخرى ليتعلم النقش على المعادن وذلك بأن وضعه مع أحد النقاشين ليتعلم منه حرفة يدوية فكان معلمه شديد القسوة فظاً غليظاً يريده أجيراً عنده، والفتى يريد أن يلم بالنقش والرسم فاختلفت طريقاهما، وساءت حال الصبي، فلجأ إلى الكذب والسرقة والكسل والنفاق وأحس من نفسه بهذا السقوط لكنه كان مسيراً وليس له اختيار فيما ينوي القيام به، لدرجة أنه تعود قراءة الكتب الساقطة وألِفَ الأهواء السافلة، فعزم على أن يتخلص من هذه الهاوية. وفيما كان يفكر ذات مساء وهو عائد من نزهة مع زميلين له، أقفلت في وجهه أبواب المدينة وسمع البوق يلعن ذلك الإغلاق، فحثى الخطى وكاد أن يصل، لكن الحراس منعوه من الدخول، فقضى تلك الليلة خارج أسوار المدينة وفي الصباح قرر رفيقاه العودة وقرر هو أن يفر إلى غير عودة. وكان ذلك في عام 1728 وكانت رحلته مع زميليه في أحد أيام الآحاد إلى المنطقة المحيطة بمدينة جنيف، وقد رافق خلال تلك المدة شذاذ الآفاق ومحترفي الإجرام والرذيلة فساءت أحواله وانحط مستواه مثلهم.

غادر روسو جنيف وهو في السادسة عشرة من عمره وأصبح هائماً على وجهه يحترف شتى الحرف في بعض البلدان الأوروبية مثل سويسرا وإيطاليا وبعد ثماني سنوات من الضياع قيض الله له سيدة في مدينة سافوي يسرت له شيئاً من الاستقرار استطاع خلالها أن يكون نفسه ثقافياً إذ تعلم الموسيقى واللغة اللاتينية وقرأ لكثير من الفلاسفة. وبعد خمس سنوات من الإقامة في سافوي عاد إلى باريس إلا أنه غادرها مرة أخرى إلى البندقية، وأخيراً عاد إلى باريس ليستقر بها استقراراً نهائياً وكان قد بلغ من العمر الثالثة والثلاثين.

هذه الحياة التعيسة البائسة التي عاشها روسو كان لها أثر بالغ على آرائه حيث مكنته من التعرف على حياة الفقراء والأغنياء، كما تمكن من الاتصال بالعديد من العلماء الذين عاشوا في عهده مثل فولتير وكانت هناك رقابة شديدة على أعماله وقد تعرض للاعتقال والنفي.

يصنف روسو إلى جانب هوبز في نظرتهم إلى نشأة المجتمع بشكل تعاقدي، إلا أن روسو

كما يرى بعض الباحثين أعطى لنظرية العقد الاجتماعي مضموناً أجد وأبعاداً أوسع. فالإنسان البدائي (كما يرى روسو) كان إنساناً صالحاً والحياة الطبيعية الفطرية الأولى هي السعادة المثلى (35) ومما جعل رسو يمتدح حياة الفطرة ما شاهدته في المجتمع الذي كان يعيش فيه من تحكم روح الأنانية والنفاق والرياء من الناحية الأخلاقية، زد على ذلك عدم المساواة من الناحية الاجتماعية مما جعل الأغلبية ترزح تحت نير الأقلية. فعدم المساواة في الثروة يجعل أغلبية الشعب في ذل لأن القلة التي تتحكم في الثروة تتحكم أيضاً في أرزاق الأغلبية مما يؤدي إلى انعدام الحرية بالنسبة للأغلبية. ويرى روسو أن عدم المساواة مرتبط بالحياة المدنية، لهذا نجده يبجل عهد الفطرة وينادي بالرجوع إليه لأنه عهد تساوى فيه الناس وعاشت فيه الإنسانية في رخاء وسعادة ولم يعش فيه أحد عالة على غيره ولم يقم فيه أحد بتكديس الثروات على حساب الآخرين، فعاش الناس جميعاً في أحضان الطبيعة، وتمتعوا بخيراتها على قدم المساواة. (36) يقول رسو في عبارة مشهورة "إن أول إنسان وضع يده على قطعة أرض معينة وقال إنها ملكي، ووجد من حوله قوماً بسطاء يصدقون ادعاءه، كان هذا أول فرد أنشأ المجتمع المدني، وهو بهذا أول من خلق الجرائم والحروب والقتل والبؤس والفظائع بين أفراد الجنس البشري. ويقول أيضاً "إنه بمجرد أن عرف الأغنياء لذة السيطرة لم يتوانوا بعد ذلك في احتقار كل من يقع عليه نظرهم، واستخدموا ما عندهم من الأرقاء وسيلة لإخضاع غيرهم. وهكذا أدى عدم المساواة في الملكية إلى عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار الرهيب، لأن الغني يريد أن يغتصب الفقير، والفقير يريد أن يسطو على الغني " (37). ثم كتب للشعب من أهله وأهل البشرية جميعاً كيف يكون المجتمع المثالي، وكيف تصان الحرية، وتضمن الحقوق، وتؤسس الحكومات، وكيف يعمل الوزراء والأغنياء، وكيف ينصف الفقير، وكيف يحمى الجائع ويكسى العريان فكان كتابه "العقد الاجتماعي" الذي أوضح فيه كل شيء حول هذه المواضيع.

وعندما كتب روسو عن التربية وبين كيف نربي ونهذب ونعلم أطفالنا على الرغم من تساؤل النقاد الخبثاء كيف يكون روسو كاتباً في التربية وهو لم ينل حظه من التربية

الخلقية والعلمية، فحين أراد أن يعلم أولاد السيد "مابلي" فشل أشد الفشل، وإذا كان يربى أولاد البشرية فلماذا لم يُعْنَ بأطفاله من شريكته "تريز" فألقى بهم في ملجأ اللقطاء؟ فبدلاً من أن يربي أولاد البشرية كان عليه أن يربي أولاده. (38)

على كل حال كان كتابه " أميل" مثابة لكل مدرس ومرجعاً لكل أم، وملاذاً لكل بيت والكتاب مؤلف من خمسة أبواب أو كتب يتبع المؤلف فيها خطى الطفل حتى زواجه. فالكتاب الأول يعالج الطفل وهو وليد حتى يتعلم المشي والأكل والكلام. والثاني حتى الثانية عشر، والثالث من الثانية عشرة إلى الخامسة عشر، والرابع يعني بالتربية الأخلاقية والدينية، والخامس يتكلم عن زواج الشاب والفتاة التي يزف إليها وتربية الفتيات. (39)

ويبدأ الكتاب الأول بجملته المشهورة: "كل شيء يخرج حسناً من يدي مبدع الأشياء، لكنه يتشوه بين يدي الإنسان " وهذه الجملة تلخص كل تفكير روسو. فهي تبدئ وتعيد في الهجوم على المجتمع والفنون والعلوم وتفرض الدواء في الرجوع إلى الطبيعة ثم يقول "إن الإنسان حين نتركه بين الناس يصبح أسوأهم، فالسلطة والحاجة والمذاهب الاجتماعية كلها تقتل الطبيعة في نفسه ولا تعوضه شيئاً مكانها" ثم يبسط طرق التربية، فيرى أن إحداها تأتي من الطبيعة، والثانية من الناس، والثالثة نتلقاها من الأشياء "فيجب أن نختار بين أن نجعل من الطفل إنساناً أو مواطناً، ونستطيع مع ذلك أن نجعله كليهما" وأحسن الطرق هي التي تزرع في نفسه كلمة " أنا " لتدخله في وحدة عامة، فالفرق كبير بل مضاد بين المواطن وبين الإنسان. ويختصر الطريق فيقول: افعل كل ما تراه معاكساً للحال الموجودة في التربية آنذاك.

ويرى أن أول مربي هو المرضع، فيلزمها نقداً بارعاً، ويتساءل: هل يمكن أن نقبل تربية طفل لم يخرج من غرفته أبداً؟ فإذا مشى خطوة على الأرض أو نزل درجة من سلم حسبنا أننا فقدناه، فالواجب أن نمرنه على ممارسة التعب لا على تحمله. وليست الحياة في أن يتنفس بل في أن يتحرك، والإنسان لا يعد عمره بعدد السنين التي عاشها، وإنما بالسنين التي أحس فيها بالعيش: "إن الإنسان المدني يولد ويعيش ويموت في العبودية. فمنذ ولادته

نضعه في قماط نخيطه عليه، وحين موته نسجنه في نعشه".

ثم ينتقل إلى الرضاعة فيدعو إلى حليب الأم ويحرم كل حليب غيره، ويرجو أن تكون تربية الطفل خشنة لأنها سنة الطبيعة التي لا ترحم وأكثر الأطفال يموتون في الثامنة لضعفهم ورقتهم، وينصح الآباء في التلطف داخل البيت فالأم هي المرضع الحقيقي والأب هو المعلم الحقيقي. فهو لا يجد معلماً خارج البيت يقوم بتدريس الأطفال تدريساً حسناً مثل الأب والأم. (40)

يقول روسو: "إن المدن هي مقبرة الجنس البشري، وبعد أجيال ينمحي الجنس البشري أو يشوه، فيجب تجديده، والريف هو الذي يسدي إلينا جميل التجديد " ويعود إلى طفله ويرى " أن التربية تبدأ مع ولادته وقبل إن يتكلم الطفل أو يسمع، يتعلم " ويجب أن يتعود الطفل رؤية الأشياء البشعة والجديدة والغريبة وكل شيء جميل أو مرعب، فإذا صادفته مرة لم تفزعه، وكذلك تعويده الضجة. ويجب أن يلمس الطفل كل شيء، فعلينا أن نمرن كل حواسه ويقول: إن أول بكاء للطفل هو التماس ورجاء، فإذا لم نلتفت إليه أصبح بكاؤه أمراً، وأحياناً يبكي الطفل لا لطلب العون وإنما للعبث، فإذا كنتم لا تستطيعون عونه فالبثوا مكانكم لأنه إذا عرف كيف يشغلكم بأمره، أصبح سيداً بعد قليل، وهنا الطامة الكبرى، ولذلك يجب أن لا نهتم أو نخاف بكاءه العابث، فلا نلتفت إليه.

أما الكتاب الثاني فيبدأ بالطفل وبالتحديد من الشهر الثامن عشر حتى الثانية عشرة ويعالجه بالتربية السلبية. ويرى أن المهم في التربية هو ألا نربح الوقت وإنما نخسره. وكثير من المربين والأساتذة يهرعون إلى تعليم الطفل وتثقيف فكره وتكوينه، لكنه كان على عكسهم تماماً حيث يرى بأنه "إذا استطعت أن تصل بالطفل إلى أن يكون طفلاً قوياً سليماً إلى سن الثانية عشرة، من أن يميز بين يده اليمنى ويده اليسرى... بأن لا تفعل شيئاً، فقد فزت بتربية مثالية" وهو ضد الوحشية التي تخيف الأطفال وتعدهم لشيء معين فتضيع أحسن سني أعمارهم سدى ويقول نحن نربي الأطفال في سبيل سعادة تنتظرهم لكن السعادة في نظره أن نقلل من رغباتهم أو الإسراف فيها وأن نقف بهم عند حدود

الحالة الطبيعية وعلى الطفل "أن لا يكون رجلاً ولا بهيمة ولكن يكون طفلاً" يجب أن نعطي الطفل ما يحتاج إليه وليس علينا أن نطيع دموعه. وروسو يرى أن لا نناقش الطفل بالعقل فهذا يبعده عن سنه، ومن العبث أن ندافع عنه ونحميه بالسلاسل والقيود، لأننا بذلك نزعج حاضراً خوفاً من مستقبل قد لا يتأكد وقوعه بالشكل الذي نخافه. وأن لا نلجأ إلى العقوبات الجسدية وإنما نحول بينه وبين الشر. فإذا أردنا طفلاً قوياً سليماً، عرضناه لكل شيء، فندعه يمشي عاري الرأس وأن يتحمل البرد في جلد، وأن ينام على سرير غير وثير وهكذا.

وفي الكتاب الثالث يعالج تربيته بالطريقة الإيجابية فلن تنفع معه في هذه السن الطريقة السلبية لذلك يدعوه على مشاهدة الطبيعة وإلى النظر إلى شروق الشمس وغروبها فلا تجريد ولا غموض، بل مشاهدات يكتسبها. ولا نعلمه العلوم وإنما نمهد له طرق تذوقها ونحبب إليه طرق تعلمها كأن نعهد إليه بآلات يركبها ويسيرها ويتعلم ميكانيكية سيرها. ونمرنه على قياس المسافات في نزهة الغابة وهكذا.

في الكتاب الرابع يبلغ طفل روسو أميل سن الخامسة عشرة، وقد نما جسمه، فلن نستطيع منع الأهواء عنه ولكن توجيهها واستغلالها وأول هذه الأهواء محبة ذاته، فالطبيعة تحولها بعد قليل إلى غطرسة وتكبر أو حسد ويحسن أن نبين له طريق التعاون والتكاتف مع غيره من أبناء المجتمع، فلا يرفع عينيه لينظر إلى السعداء والأغنياء فحسب، وإنما يجيل طرفه كذلك في حال من يستحقون الشفقة والعون ويعلم الفضيلة ويبعد عن الرذيلة ويتعلم الصدق بإبعاده عن الخطأ.

وفي الكتاب الخامس يتحدث عن تربية الفتيات فيتحدث عن صوفيا فتاة جديرة بإميل وذلك لأنها طاهرة عفيفة مرحة فيها فتنة النساء وسحرهن وتربت على خدمة البيت وأعدت للسعادة الزوجية وعليها أن تبقى جاهلة لطيفة. (41)

من أبرز أفكار روسو الاجتماعية والدينية والسياسية هو إيمانه بفكرة الدولة الطبيعية وبفكرة المجتمع الطبيعي الذي يمكن أن يعيش فيه الناس في بساطة وفي أمن

وسلام وحرية ومساواة بعيدين عن ترف الحياة المدنية وتعقيداتها ومفاسدها، لا شيء يقيد حريتهم ولا طمع يشغل بالهم. (43). ويبحث روسو عن أسباب يبرر بها مشروعية انتقال الحياة الطبيعية إلى الحياة الاجتماعية. ويرى أن طبيعة الإنسان تجعله لا يتنازل عن حريته لأن معنى ذلك هو تنازل الإنسان عن صفته الإنسانية بل التنازل عن واجبات الإنسان نحو نفسه وإن فعل ذلك فهو إذن ضد الطبيعة الإنسانية وبالتالي لا يمكن لأي إنسان أو شعب أن يتنازل عن حريته لأي شخص، وعلى الرغم من ذلك فإن الأفراد لم يجدوا وسيلة أفضل من التنازل عن جزء من حقوقهم الشخصية للمجتمع لشخص معين أو لبضعة أشخاص ووظيفة هذا التعاقد هو حماية المتعاقدين بواسطة القوة المعطاة فتتحقق بذلك المساواة بين الجميع وتصبح إرادة المجموع نافذة. (41) وقد ردد روسو في القرن الثامن عشر رأي هوبز عن أن حياة المجتمع ليست من فطرة الإنسان، وإنما اضطر إليها بحكم الحاجة إلى الاستقرار وإلى تبادل المنافع. وردد كذلك ما ذهب إليه هوبز من أن الأفراد نظموا حياة المجتمع عن طريق اتفاقية تنازلوا فيها عن بعض حقوقهم، وهو ما أطلق عليه روسو " العقد الاجتماعي".

غير أن روسو يختلف عن هوبز في نقطة مهمة، وهي أن الأخير قد صور حالة الإنسانية الأولى على أنها حالة شقاء للإنسان كان يسود فيها النزاع والصراع وعدم الاستقرار. أما روسو فقد كان يعتقد أن الإنسان طيب بفطرته، وأن حياة المجتمع قد غيرت فطرته وجعلته يميل من الخير إلى الشر ومن التلقائية والصراحة إلى الزيف والرياء والنفاق. (44) ويعد كتاب العقد الاجتماعي الذي نشر في سنة 1762 من أشهر مؤلفات روسو، وهو المؤلف الذي نبذ فيه فكرة الإنسان البدائي كمثل أعلى وتخلى عن المدح والإطراء الذي كان يكيله للمجتمعات البدائية، حيث اعترف في هذا الكتاب بضرورة وجود حكومة تتولى الإشراف على التنظيم الاجتماعي الذي يختاره المجتمع ليتحقق له عن طريقه الحرية والوئام والأمن والعدالة والمساواة وتحترم فيه القوانين. ويرى روسو أن نظام الهيئة السياسية عقد حقيقي بين الشعب والرؤساء الذين يختارهم، عقد يلزم كلا الفريقين

بمراعاة الشروط التي اشترطت فيه، فالشعب ملزم بتنفيذ كل ما جاء في العقد وكذلك الحاكم يجب أن يلزم نفسه بأن لا يستعمل السلطة التي عهد بها إليه إلا وفق ما تقتضيه المصلحة العامة.

هوامش الفصل الأول

1- نجوى قصاب حسن، التفكير الاجتماعي عند الغرب، مطبعة ابن حيان، دمشق، 1984، ص ص 133-134.

2- المرجع السابق نفسه، ص ص 135-136.

3- محمد عبد الرحمن مرحبا، جديد في مقدمة ابن خلدون، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1989، ص ص72-74.

4- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة، الكتاب رقم 44 لسنة 1981، ص ص81-82.

5- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة، 1984، ص 120.

6- المرجع السابق نفسه، ص 121.

7- المرجع السابق نفسه، ص 123.

8- المرجع السابق نفسه، ص ص120-121.

9- محمد العوض جلال الدين، بعض قضايا السكان والتنمية في السودان والعالم الثالث، مركز الدراسات والبحوث الإنمائية كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، جامعة الخرطوم، الخرطوم، (بدون تاريخ)، ص ص19. 22.

10- على عبد الرازق جلبي، علم اجتماع السكان، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص 49.

11- عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص 360.

12- المرجع السابق نفسه، نفس الصفحة.

13- نور الدين حقيقي، الخلدونية: العلوم الاجتماعية وأساس السلطة السياسية، ترجمة إلياس خليل، منشورات عويدات، بيروت – باريس الطبعة الأولى، 1983، ص ص35-36.

14- المرجع السابق نفسه، ص ص39-42.

15- المرجع السابق نفسه، ص ص42-43.

16- المرجع السابق نفسه، ص ص44-47.

17- المرجع السابق نفسه، ص ص49-50.

18- جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ترجمة راشد البراوي، دار المعارف بمصر الكتاب الثالث..

19- حمد غريب محمد سيد، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995. ص 201.

20- ا لموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ص 508.

21- ميكافلي، الأمير ترجمة فاروق سعد في غريب تاريخ الفكر الاجتماعي، ص ص201-204.

22- إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز: فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985، ص ص 40-41.

23- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر القاهرة، (بدون تاريخ)، ص 55.

24- عبد الفتاح إمام، مرجع سبق ذكره، ص ص28 -40.

25- عبد الفتاح إمام، المرجع السابق نفسه، ص 21.

26- عبد الفتاح إمام، المرجع السابق نفسه، ص ص286-287.

27- السيد محمد بدوي، مبادئ علم الاجتماع، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، 1970، ص 66.

28- المرجع السابق نفسه، نفس الصفحة.

29- المرجع السابق نفسه، ص 67.

30- زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي نشأته وتطوره، دار المعارف 1981، ص 235-236.

31- عبد الفتاح إمام، مرجع سبق ذكره، ص 11.

32- المرجع السابق نفسه، ص 11.

33- المرجع السابق نفسه، ص 11.

34- عبد المجيد عبد الرحيم، تطور الفكر الاجتماعي، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 189.

35- ميكافلي، الأمير، ترجمة فاروق سعد، در الآفاق، 1990، ص 243.

36- السيد محمد بدوي، مبادئ علم الاجتماع، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، 1970، ص 71.

37- المرجع السابق نفسه، ص ص71-72.

38- سامي الدهان، جان جاك روسو، دار المعارف بمصر، سلسلة كتاب اقرأ 197، مايو 1959، ص ص95-96.

39- المرجع السابق نفسه، ص 97.

40- المرجع السابق نفسه، ص ص97-99.

41- المرجع السابق نفسه، ص ص99-104.

42- عمر التومي الشيباني، تطور الأفكار والنظريات التربوية، 1977، ص ص162-163.

43- زيدان عبد الباقي، مرجع سبق ذكره، ص ص145-148.

44- السيد محمد بدوي، مرجع سبق ذكره، ص 70.

الفصل الثاني

نظرية علم الاجتماع

Sociological Theory

ويشتمل هذا الفصل على النقاط الآتية:

- القوانين العلمية
- تطور نظرية علم الاجتماع
- ملامح تطور النظرية السوسيولوجية المعاصرة

الفصل الثاني

نظرية علم الاجتماع
Sociological Theory

بذلت جهود متواصلة في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري تحاول البحث عن إيجاد تفسيرات للظواهر الفيزيقية والاجتماعية، وتحاول في الوقت ذاته فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية. وكل نموذج من نماذج هذا التفسير يعبر عن رؤية ووجهة نظر خاصة للحقيقة الاجتماعية، كما أن تغير نماذج هذا التفسير من التفسير الغيبي غير المبني على حقائق علمية وغير العقلاني إلى التفسير الديني ثم إلى التفسير العقلاني وأخيراً إلى التفسير الذي يعبر عن تغير الرؤى لما يحدث في المجتمع، تلك الرؤي التي هي وليدة تغير الظروف والأوضاع الاجتماعية والفكرية من المرحلة الميتافيزيقية إلى المرحلة اللاهوتية والفلسفية ثم إلى المرحلة الوضعية. وهذا مهد الطريق لصياغة النظرية الاجتماعية ولكن قبل الحديث عن النظرية الاجتماعية Sociological Theory اسمه التعميم Generalization وهو ما يمكن أن نصل إليه إذا ما تمكنا من ضم مجموعة من المفاهيم إلى بعضها لتشكل معاً تعبيراً يحدد علاقات ذات معنى بين هذه المفاهيم، وعادة ما يحدد التعميم علاقات كمية تتنبأ بأنه إذا تغير أحد المتغيرات بطريقة منتظمة، فإن تغيرات محتملة سوف تحدث بالنسبة للمتغير الآخر.

لتوضيح ذلك فإننا نقول إن التعميم يمكن أن يصاغ على النحو التالي: من المعتاد أن تنخفض معدلات المواليد في المجتمع إذا ارتفع فيه مستوى التصنيع. في هذه الصياغة عندنا مفهومان (المواليد ومستوى التصنيع) بالإضافة إلى عبارة تعكس علاقات كمية بينهما.

إن هذا التعميم لم يأت من فراغ وإنما جاء بعد تفحص دراسات متعددة لمعدلات المواليد ومعدلات التصنيع في العديد من الدول الصناعية الحديثة مما أكد العلاقة التي تحدثنا عنها والتي يمكن أن نطلق عليها التعميم التجريبي أو الإمبيريقي Empirical والتي تعتبر صالحة طالما توافقت مع الحقائق المشاهدة.

والآن دعنا نفترض أن البيانات التي كانت مركزة على معدل المواليد ومستوى التصنيع لم تجمع بعد، في هذه الحالة لا بد أن التعميم سوف يفترض بكل بساطة إمكانية وجود علاقة محتملة أو كامنة بين هذين المفهومين. وسوف نكون قادرين على تقييم صلاحية العلاقة المبينة أعلاه عن طريق التحقيق العلمي الدقيق فقط، الذي يهدف إلى جمع الأدلة ذات الصلة بالموضوع. إن التعميم الذي لم يتم تأكيده بشكل مناسب عن طريق الدليل التجريبي يسمى فرضاً ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يرقى الفرض إلى مستوى التعميم. عليه فإن هذا النوع من التعميم مهم لأنه يساعد على تعريف المشكلات البحثية المستقبلية التي يجب أن تدرس بدقة العلاقة بين المفاهيم المختلفة.

لعل البعض منا يعلم أن التعميمات تأخذ أهمية متزايدة إذا أمكن جمعها مع بعض لتشكل نظرية. وعلى هذا الأساس فإن النظرية عبارة عن مجموعة من التعميمات المتداخلة التي أمكن توحيدها بطريقة معينة لتشكل نظاماً تفسيرياً منطقياً لا يمكن أن يتعارض فيه أحد التعميمات مع الآخر. فالنظريات إذن لا تقدم فقط تفسيرات للحقائق المشاهدة لكنها يمكن أن تعتبر كذلك مصدراً أساسياً لفروض جديدة.

ولتوضيح ذلك أكثر دعنا نعود إلى التعميم السابق الذي كان اهتمامه منصبا على أن التصنيع يؤدي إلى انخفاض معدل المواليد، فإذا أضفنا إلى ذلك تعميماً آخر وهو أنه في مثل تلك المجتمعات يؤدي الانخفاض في معدل الوفيات بشكل منتظم إلى انخفاض معدل المواليد. من الممكن أن نأخذ هذين المقترحين على أساس أنهما مجموعة من التعميمات المتقاربة منطقياً والتي يمكن أن نستنتج منهما الفرض التالي: أن سكان المجتمع الذي تعرض للتصنيع سوف يتزايدون بشكل سريع في بادئ الأمر ثم يستقر معدل النمو بعد

ذلك نتيجة للانخفاض المتتالي في معدل الوفيات ومعدل المواليد. (1) وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا بعد الثورة الصناعية حيث ارتفع معدل المواليد في بداية الثورة الصناعية وذلك نتيجة لارتفاع معدلات الدخل وتحسن المستوى المعيشي والرعاية الصحية والقضاء على الكثير من الأمراض السارية وكل ذلك أدى بالتالي إلى زيادة معدل المواليد وانخفاض معدل الوفيات وكانت النتيجة زيادة السكان زيادة ملحوظة إلا أنه بعد أن وصلت الثورة الصناعية إلى ذروتها منذ بداية القرن العشرين أدى ذلك إلى انخفاض معدل المواليد بشكل كبير في معظم البلدان الأوروبية وهو ما جعل نمو السكان في بعض الدول الأوروبية يصل إلى الصفر في كثير من الأحيان.

الخلاصة إن التعميم " هو إطلاق الصفات المجردة على جميع الظواهر التي تشترك في هذه الصفات. وتوقع وجود هذه الصفات في كل ظاهرة جديدة من نفس النوع. أما إذا أيدت التجارب والملاحظات العلمية صحة فرض من الفروض دون أن يوجد فرض آخر يناقضه أو يتعارض معه، فإن الفرض الصادق ينتقل إلى مرحلة تعميمات علمية". (2) ومن المعلوم أن التعميم العلمي هو المرحلة التي تسبق النظرية.

إن العرض الذي بيناه هنا يوضح كيف أن التعميمات ذات الصلة تكون قادرة على إنتاج تعميم أكثر شمولية على شكل نظرية. لكي نتثبت من هذا الفرض فإنه يكون من الضروري فحص أدلة واقعية من خلال بحث مناسب عن السكان أثناء تعرضهم لظاهرة التصنيع.

لا نستطيع فهم النظريات والقوانين العلمية دون فهم واستيعاب الفرضيات العلمية التي تشكل المادة الأساسية للنظريات والقوانين. فالفرضية هي في الواقع مجموعة من الأفكار والآراء والمفاهيم والحقائق غير المبرهنة وغير المعززة بالأرقام والبيانات والحجج الإحصائية والرياضية التي تثبت صحتها وواقعيتها وموضوعيتها وقدرتها على تفسير جانب من جوانب الواقع الاجتماعي أو الحياة العقلية والسلوكية التي تميز الأفراد والجماعات في المجتمع. ويمكن أن تتحول الفرضية إلى تعميم ويتحول التعميم إلى نظرية إذا استطاع

الباحث أو العالم المختص برهان صحتها وإثبات مفاهيمها من خلال إجراء الدراسة النظرية أو الميدانية حولها. ويمكن أن تتحول النظرية إلى قانون كوني إذا كانت قادرة على تفسير الظاهرة أو النظام أو المشكلة تفسيراً منطقياً وعلمياً وعقلانياً مهما كانت ظروف وملابسات وأجواء الظاهرة أو المشكلة ومهما كان موقعها الزماني أو المكاني. (3) إلا أننا لا نستطيع الوصول إلى القوانين الكونية في العلوم الاجتماعية بنفس السهولة التي تصل فيها العلوم الطبيعية إلى القوانين الكونية وذلك لصعوبة تقنين مادة التجريب في العلوم الاجتماعية وهي الظواهر الاجتماعية وإخضاعها للتجريب والاختبار بنفس الكيفية التي تخضع فيها الظاهرة في العلوم الطبيعية.

والنظرية العلمية تحتل مكانة متميزة في البحث العلمي بصفة عامة سواء أكان موضوع البحث ظاهرة طبيعية أو ظاهرة إنسانية. ويعلق عليها نفر من الباحثين أهمية خاصة في تحديد هوية أي علم من العلوم، حتى أن بعضاً من هؤلاء الباحثين يذهب إلى حد جعل دورها أكثر أهمية من دور المنهج العلمي على اعتبار أن المنهج شيء مشاع بين كل العلوم. أما نظرية أي علم من العلوم – كعلم النفس أو علم الاجتماع مثلاً - فهي التي تحدد موضوعه وتنظم عملياته وأدواره بل ومساره. (4) هذا على خلاف المنهج العلمي الذي يعد أساساً واحداً لكل العلوم، وأن اختلفت تفصيلات أدواته وتقنياته باختلاف الظاهرة المدروسة. فالملاحظة مثلاً خطوة أساسية في كل بحث علمي، طبيعي أو إنساني، والاختلاف إنما يكون في أدوات الملاحظة التي قد تكون المنظار الفلكي أو الاختبار النفسي أو دليل الملاحظة كما في علم الاجتماع. (5)

أما عندما نتحدث عن النظرية الاجتماعية على وجه الخصوص فإننا نجد أن النظرية الاجتماعية نشأت نتيجة للتغيرات المهمة التي تعرض لها الفكر الإنساني وذلك نتيجة لما تمتع به الفكر البشري من تحرر من القهر الذي تعرض له في الماضي نتيجة لتحالف رجال الدين مع الساسة في أوروبا وكانت لكل مرحلة من المراحل التي مر بها الفكر الإنساني قضاياها الخاصة، " ففي مرحلة عصر التنوير تميز البحث الاجتماعي بمحاولة استكشاف

الطبيعة الأساسية للإنسان، ثم أكثر أشكال البناء الاجتماعي ملاءمة لدعم إمكاناته بما يجعل سلوكه إيجابياً في تشكيل واقعه المحيط، وبما يخلق إمكانية أن يكون ناتج العملية الاجتماعية التي أسسها لصالحه."(6)

أما في أعقاب الثورة الفرنسية فقد سادت الاتجاهات النظرية العامة وهي المثالية الوضعية والنفعية والتجريبية التي "استمر اهتمامها الأساسي مركزاً حول الإنسان الذي يتحمل عبء العملية الاجتماعية، ومن هو الإنسان الذي يجب أن يستفيد من نتاجها؟ هل على الإنسان أن يواصل الثورة التي بدأت حتى يخلق البناء الذي يساعد على تفجير إمكانياته، أو عليه أن يتوقف ليفرض النظام والاستقرار على الواقع الذي ينبغي أن يكون خالياً من الصراع والتناقض؟ "(7)

في إطار هذا الصراع بين الاتجاهات النظرية المختلفة، كانت النظرية الاجتماعية تسعى إلى البحث عن مكانها بين التوجهات النظرية المختلفة، فهل تتخذ من الأنساق الفلسفية مثالاً لها لبناء إطارها النظري فيكون اعتمادها على المقولات المنطقية التي مصدرها العقل؟. أم تتخذ من العلوم الطبيعية مثالاً تحذو حذوه فيكون بناؤها النظري يعتمد على الواقع. في الحقيقة لا يوجد في الوقت الحاضر بناء متكامل لنظرية علم الاجتماع حظي بالصدق أو القبول العام. ولقد اعتقد علماء الاجتماع الأوائل أنهم استطاعوا اكتشاف مجموعة من "القوانين الاجتماعية" الأساسية، هي في المحل الأول قوانين للتطور الاجتماعي، واعتبروا أنها تشكل بناء لنظرية قادرة على توجيه الفكر والسلوك. أما علماء الاجتماع المحدثون فهم أقل تواضعاً بصفة عامة في مطالبهم، ذلك أن اهتمامهم انصب أساساً على توضيح طابع المدخل العلم اجتماعي أو المدخل السوسيولوجي (أي أنهم اهتموا بالناحية المنهجية أكثر من اهتمامهم بالنظرية)، وصياغة مفاهيم أكثر تحديداً، وتصنيفات أكثر ملاءمة. وأسفر نشاطهم مؤخراً عن صياغة ذلك النوع من التعميمات الضيقة التي ينطوي عليها نشاط التصنيف ذاته. (8)

لقد شاع الافتراض القائل بأن العلوم الاجتماعية هي علوم عامة، شأنها شأن العلوم الطبيعية، تهدف إلى إقامة نسق نظري، وإن كانت حتى الآن ما تزال في مرحلة مبكرة من تطورها. ولقد رفضت هذه الفكرة من جانب بعض الفلاسفة وعلماء النظرية الاجتماعية الذين حاولوا أن يضعوا تفرقة حاسمة بين العلوم الطبيعية من جهة، والعلوم الثقافية والتاريخية من جهة أخرى، حيث أكدوا أنه بينما تهدف الأولى إلى " التفسير السببي " فإن الثانية تسعى إلى تفسير أو فهم المعنى. لقد كانت هذه القضية إحدى المسائل الرئيسية في الجدل الحديث في مجال العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع خاصة، وطالما أن هناك جدلاً ما يزال قائماً حول إمكانية تطبيق مناهج العلوم الطبيعية بكفاءة في دراسة الظواهر الاجتماعية، إلا أن هناك بعض النقاط التي نود الإشارة إليها هنا بشكل سريع ومنها أنه يمكن القول إن أقوى الانتقادات التي أثيرت ضد الطابع العلمي للعلوم الاجتماعية أنها لم تستطع في الحقيقة أن تخلص إلى أي شيء يماثل القانون الطبيعي. وقد يكون من الممكن الرد على هذه الانتقادات بأن العلوم الاجتماعية ما تزال في مهدها (وهو ما يردده البعض غالباً)، ومعنى ذلك أنها سوف تحقق فيما بعد مستوى نظرياً عالياً. لكن هذه الإجابة ليست مقنعة تماماً، إذ إن النقاد سوف يذهبون إلى أن الزعم بعدم النضج قد استمر لفترة طويلة من الزمان، دون أن تظهر أية علامة على النمو. والحقيقة أن هذه الانتقادات فيها شيء من المبالغة، إذ إننا نجد في علم الاجتماع، برغم تعقد موضوعه، ارتباطات سببية، وعلاقات وظيفية، أمكن صياغتها بدرجة معقولة من الاحتمال. فقد استطاع دوركايم في دراسته للانتحار، وكذلك ماكس فيبر في تحليله للعلاقات البروتستانتية والرأسمالية، التوصل إلى مثل هذه الارتباطات. يضاف إلى ذلك أن أولئك الذين ينكرون الطابع العلمي لعلم الاجتماع يمكن أن يكونوا هم أنفسهم موضع نقد.

هناك وجهة نظر أخرى، تتوسط بين أولئك الذين ينظرون إلى علم الاجتماع بوصفه نسقاً تاريخياً، والذين يعتبرونه "علماً طبيعياً للمجتمع". فبينما يؤكد أصحاب وجهة النظر الأولى الطابع العلمي لعلم الاجتماع، يقرون أن دراسة المجتمع تتطلب نموذجاً نظرياً

مختلفاً، ومناهج تختلف عن تلك المستخدمة في العلوم الطبيعية. غير أن هذه النقطة تبدو في بعض جوانبها بسيطة للغاية. فكل علم يجب أن يكون له إطاراً ملائم للتفسير وكذلك مناهج مناسبة، لكن تظل في الوقت ذاته الوحدة الأساسية للمنهج العلمي قائمة.

على أية حال يمكن أن نؤكد هنا على أن النظرية الاجتماعية لم تتخذ شكلها العلمي إلا في القرن التاسع عشر، عندما بدأ المفكرون ينظرون إلى المجتمع على أنه كيان منفصل وحقيقي، وأنه وحدة خاضعة في حد ذاتها للتحليل الذي يمكن أن يستخدم في تفسير الظواهر الاجتماعية الموجودة داخل المجتمع. أما قبل القرن التاسع عشر، فإن كل المحاولات التي كانت تحاول أن تفسر المجتمع كانت تتسم بالنزعات الميتافيزيقية، واللاهوتية، والفلسفية، وقد فشلت جميعها في أن تدرس المجتمع دراسة علم اجتماعية (سوسيولوجية) (9).

عليه فإن النظرية الاجتماعية تمثل مجموعة من الافتراضات التي تهتم بالمجتمع والظواهر الاجتماعية، فيما يتعلق بكونها حقيقة اجتماعية منفصلة، وهكذا يمكن أن نقول إن النظرية الاجتماعية تقف على النقيض مع أنساق الفكر القديمة التي تؤكد على التفسيرات الغيبية، واللاهوتية، والطبيعية لهذه الظواهر. وعلى الرغم من أنها تأثرت بوضوح بالاتجاهات الفكرية السابقة وعلى وجه الخصوص فلسفة عصر التنوير، فإن النظرية الاجتماعية تستند على وجود النسق الاجتماعي، كوحدة مستقلة في مقابل الظواهر الميتافيزيقية أو اللاهوتية. لهذا فإن تطور النظرية الاجتماعية في هذه الحالة يمثل تطور النسق الجديد، الذي استبدلت فيه التفسيرات الميتافيزيقية والدينية بفكرة الحقيقة الاجتماعية Social Reality التي فهمت واستخدمت لشرح وتفسير الظواهر الاجتماعية (10) إن الجهود المبذولة من قبل علماء الاجتماع قد اتجهت حتى الآن ثلاثة اتجاهات وهي:

الاتجاه الأول: يهدف إلى بناء نظرية في علم الاجتماع تتناول بناء الإنسان وبما أننا نعرف أن البدايات الأولى في علم الاجتماع كانت من خلال كتابات كونت، وماركس، وسبنسر، وفيبر وغيرهم من الذين كانت كتاباتهم تهدف إلى تطوير المعرفة العلمية عن دراسة الحياة

الاجتماعية للإنسان دراسة كلية. ويتميز هذا الاتجاه بمنهجيته وبموقفه التاريخي وهو يسعى إلى التوصل إلى تحديد مراحل تطور الإنسان وحياته الاجتماعية اعتماداً على البيانات التاريخية، مما جعل هذا الاتجاه يتردى في الخطأ حين حاول التنبؤ بالمستقبل.

الاتجاه الثاني: وهو الاتجاه نحو بناء نظرية منهجية لطبيعة الإنسان والمجتمع وهو الاتجاه الذي يبدو واضحاً في كتابات زيميل وتقوم نظرية هذا الاتجاه على تصور مجرد وثابت لمكونات البناء الاجتماعي لكنها بالغت في محاولة الوقوف في وجه الاتجاه السابق.

الاتجاه الثالث: وهو الاتجاه نحو دراسة الواقع والمشاكل الاجتماعية المعاصرة دراسة إمبيريقية Empirical من خلال النظر إلى علم الاجتماع على أنه دراسة لقطاعات معينة من المجتمع. وقد أجريت بالفعل دراسات كثيرة ومتعددة تناولت مختلف مناحي الحياة الاجتماعية بالدراسة والبحث المعمق.

وفي ضوء ما سبق فإنه لكي تكون النظرية علمية وقادرة على تفسير الظواهر والعلاقات والتغيرات والملابسات التي تتعلق بموضوعها ومادتها يجب أن تتوفر فيها الشروط التالية:

1- يجب أن تكون أفكار ومبادئ ومفاهيم النظرية مترابطة ومتكاملة بحيث تخلو مادتها من التناقض والتضارب.

2- يجب أن تكون النظرية معبرة عن فكرة أو أفكار أو مبادئ واضحة ومركزة ومتسلسلة تسلسلاً نظامياً ومنطقياً بعيداً عن التعقيد والتشويش والارتباك.

3- يجب أن تكون المادة العلمية للنظرية مشتقة من طبيعة الواقع الاجتماعي الذي توجد فيه، وينبغي أن لا تكون معتمدة على أفكار فلسفية أو لاهوتية أو ذاتية حيث إن مثل هذه الأفكار لا تخضع إلى أساليب التحليل والتجريب والفحص الميداني الموضوعي. كما يجب أن تكون النظرية قادرة على معالجة سلبيات وتناقضات الواقع الذي اشتقت منه مادتها العلمية الأساسية معالجة موضوعية حقيقية.

4- على النظرية أن تكون قادرة ومتمكنة من تفسير جميع الظواهر والملابسات التي تهتم

بدراستها وتحليلها والتفسير ينبغي أن يكون عقلانياً ومستمداً من طبيعة الظاهرة أو المشكلة المدروسة وليس من تصورات وتخيلات ومقاصد وأهواء ومصالح الباحث الذي يقوم بدراستها والاهتمام بها.

5- ينبغي أن تكون صحة النظرية نسبية وليس مطلقة. كما يجب أن تكون قابلة للتغير والتعديل تبعاً لتغير الظروف الموضوعية والعوامل الفاعلة التي تحدد درجة قوتها وزخمها.

6- النظرية الجيدة والصحيحة هي النظرية التي تتوصل إلى نفس الحقائق والاستنتاجات إذا تكررت دراستها وفحوصها وإثباتاتها خلال فترات زمنية مختلفة وفي أماكن جغرافية مختلفة.

7- يجب أن تنفرد النظرية بتفسير الحقائق التي تشتمل عليها. فوجود نظرية أخرى تفسر نفس الحقائق التي تفسرها النظرية الأولى يضعف الأهمية العلمية للنظريتين(11). الخلاصة أن أهم شروط النظرية العلمية الوضوح والدقة والتفرد والإيجاز والتفرد يعني تجنب تكرار ما لا يلزم تكراره وأن تكون واقعية في وضوح قضاياها، وقابلة للاختبار في الواقع فضلاً عن قدرتها على التنبؤ بمسار الوقائع والظواهر.

إن نظرية علم الاجتماع هي الفكر الأصيل في علم الاجتماع وهي تمثل إطار تصوراته ومفهوماته والتي جميعها تحدد خطوط رؤيته وقنوات وظائفه وأدواره ولكي تكون نظرية علم الاجتماع قادرة على الوفاء بهذا لا بد أن تحافظ على خصائص النظرية العلمية أولاً. وتنسق مع طابع علم الاجتماع ثانياً، وتساعده على القيام بوظائفه العلمية المختلفة ثالثاً. أما وظائف النظرية العلمية فإنها تتلخص في الآتي:

أولاً: تساعد على نضوج واكتمال العلم. فكلما كانت نظريات علم من العلوم كثيرة ومتشعبة كان العلم ناضجاً وقادراً على تفسير ظواهره وعلاقاته وتفاعلاته وعناصره التي يهتم بدراستها.

ثانياً: تقوم بتفسير الظواهر الواضحة والغامضة والتفاعلات الأساسية والثانوية والعوامل الموضوعية والذاتية لعلم من العلوم.

ثالثاً: تتكون النظرية من المفاهيم والمصطلحات الفنية التي لا غنى عنها لأي علم من العلوم. وعندما يزداد عدد النظريات وتتضاعف تزداد بالتالي المفاهيم والمصطلحات التي تكتنفها النظريات وتنمو العلوم نمواً سريعاً.

رابعاً: إن النظرية تحدد ميادين الدراسة في مختلف العلوم، كما تحدد نوع الحقائق التي ينبغي أن يتجه إليها الباحث في ميدان دراسته. وبدون النظرية تتداخل ميادين البحث وتتلاشى الحدود التي تفصل بعضها عن البعض الآخر. (12) أما عند الحديث عن نظرية علم الاجتماع على وجه الخصوص فإننا يجب أن نطرح السؤال التالي: ما هي نظرية علم الاجتماع؟، وماذا يقصد بالاتجاهات النظرية في علم الاجتماع؟ وقبل تقديم الإجابة لهذين السؤالين لا بد من الوقوف على بعدين أساسيين وهما:

1- أن نظرية علم الاجتماع من المفروض أن تكون نظرية علمية وتحمل في شكلها ومضمونها خصائص النظرية العلمية وشروطها بوصفها أركاناً ضرورية تمكنها من أداء دورها، بالنسبة لعلم الاجتماع وما تنجز خلاله من بحوث.

2- أن نظرية علم الاجتماع يجب أن تعبر تعبيراً واضحاً وشاملاً عن موضوع علم الاجتماع وتحمل في نفس الوقت طابعه الذي يميزه عن غيره من العلوم الإنسانية التي تنشغل بجانب أو أكثر من جوانب الحياة الإنسانية. وهذا يقتضي ابتداءً توضيح الكيفية التي يتناول بها هذا العلم موضوعه العام، والوظائف الأساسية العلمية والمجتمعية التي عليه الوفاء بها والتي تجعل لوجوده معنى ودلالة بالنسبة للعلوم الأخرى، على اعتبار أن هذه بمثابة الأرضية التي ينبغي على نظرية علم الاجتماع أن تتحرك عليها وخلالها.(13)

قد يكون من الصعب على غير المتخصصين في بعض الأحيان الفصل بين القضايا التي يتناولها علم الاجتماع والقضايا التي تتناولها بعض العلوم الإنسانية الأخرى مثل الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وعلم النفس، والفلسفة، والتاريخ والاقتصاد وغيرها من

العلوم وذلك لتداخل القضايا التي يتناولها كل علم من هذه العلوم، بل إن بعضها قد يدرس قضية واحدة بحيث يتناولها كل علم من هذه العلوم من زاوية تختلف عن تلك التي يتناولها منها العلم الآخر، إلا إنه بالنسبة للمتخصصين يعتبر أمر الاختلاف بين هذه العلوم واضحاً وجلياً لدرجة أنه يكون من الممكن رسم الحدود التي تفصل بين مختلف فروع العلوم الإنسانية بكل سهولة ويسر خاصة على المستوى النظري على الرغم من أن الحدود بينهما قد تكون مختلطة على مستوى الممارسة. فقد يكون هناك خلط بين قضايا علم الاجتماع وقضايا الفلسفة الاجتماعية، فقد يوجد خلط مثلاً بين القضايا التاريخية التي تركز على فهم البشر من خلال دراسة اعتمادهم المتبادل في صيغة الماضي، وبين علم الاجتماع الذي يدرس الإنسان أثناء وجوده في جماعة متفاعلة من خلال الماضي والحاضر، ويفرق تيماشيف بين عالم الاجتماع والمؤرخ بالقول " إن المؤرخ هنا يشير إلى المتغير؛ أما عالم الاجتماع فيهتم أساساً بما هو دائم ومتكرر؛ أي أن التاريخ يصف مجموعات متنوعة ووفيرة من الأحداث والمواقف التي يمارس فيها بنو البشر اعتمادهم المتبادل. أما علم الاجتماع فإنه يحلل الأحداث والمواقف المختلفة إلى عناصرها الأساسية المحدودة نسبياً، ليصوغ القوانين التي تحكم عملها. فالهدف الرئيسي لعلم الاجتماع يتمثل في اكتشاف القوانين أو الأحكام التي تحدد العلاقات الضرورية والثابتة بين عدد محدود من العناصر التي يمكن بواسطتها تحليل الحقيقة الاجتماعية، وهذا الهدف يطابق أهداف الفيزياء والكيمياء وعلم النفس في مجال كل منهما الخاص". (14)

الخلاصة في هذا المجال أن الخبرات المتراكمة لدينا في مجال البحث العلمي تؤكد على أن القيام بجمع بيانات بدون وجود نظرية توجه جامع هذه البيانات في الاتجاه المناسب لاستخدام هذه البيانات، يمكن أن يقود إلى اعتبار البيانات التي جمعها غير ذات أهمية تذكر، وهي فاقدة للمعنى والوظيفة التي جمعت من أجلها، وفي الوقت ذاته تعد النظرية بلا معطيات وبيانات تدلل على وجودها عملاً فارغاً من المحتوى وهي في هذه الحالة عبارة عن مفهومات ومصطلحات مجردة. عليه فإن معظم الباحثين في الحقل العلمي بشكل عام

والعلوم الإنسانية بشكل خاص يؤكدون على أهمية العلاقة الجدلية بين البحث العلمي والنظرية العلمية.

القوانين العلمية :

أما إذا انتقلنا إلى القوانين التي عادة ما تكون أكثر ثباتاً من النظريات فإننا سنجد أن القانون عبارة عن علاقة ضرورية تقوم بين ظاهرتين أو أكثر فعندما نقول بأن الظاهرة أ هي سبب وقوع الظاهرة ب، فإننا نعني بأن وقوع الظاهرة أ كان قبل وقوع الظاهرة ب، أي أن الظاهرة ب. تعتمد على الظاهرة أ. إذن توجد هناك علاقة سببية ومنطقية بين الظاهرتين.

تنقسم القوانين إلى قسمين هما: القوانين السببية Causal Laws والقوانين الوظيفية Functional Laws. القوانين السببية هي الأحكام الموضوعية والعقلانية التي تفسر العلاقة المنطقية بين حادثتين أو ظاهرتين. الحادثة المستقلة والحادثة المعتمدة. فالقانون الذي ينص على أن المطر يعتمد على التبخر، والتبخر يعتمد على الحرارة هو قانون سببي عقلاني يربط بين ظاهرة مستقلة كالحرارة مثلاً وظاهرة معتمدة كالتبخر أو المطر. أما القوانين الوظيفية فتعبر عن العلاقات بين الظواهر دون أن تشرح تلك العلاقة. وتعبر العلاقة الوظيفية عن كل ترابط بين ظاهرتين توجدان في آن واحد، وتتغيران تغيراً نسبياً بحيث تعتبر كل منهما شرطاً من شروط وجود الأخرى دون إمكانية القول بأن إحداهما سبب والأخرى نتيجة، والقوانين الوظيفية تكثر في العلوم الاجتماعية، وعليه فإن العلوم الاجتماعية لم تستطع لحد الآن اكتشاف القوانين السببية الثابتة التي تعرفها العلوم الطبيعية ولم تتمكن من بناء وتكوين القوانين الواضحة التي تستطيع تفسير ظواهرها والأشياء التي تدرسها تفسيراً منطقياً وعملياً وذلك لصعوبة حقولها الدراسية وكثرة العوامل والمتغيرات التي تؤثر فيها.

أما القوانين الوظيفية الكونية فهي كثيرة ومتفرعة في علم الاجتماع وتدخل تقريباً في جميع حقوله واختصاصاته الضيقة ومن هذه القوانين ما يلي:

أ- يتحول المجتمع البشري من مجتمع بسيط إلى مجتمع مركب ومن مجتمع مركب إلى مجتمع معقد.

ب- يستطيع المجتمع إحراز التقدم الاقتصادي السريع إذا توازنت كمية الموارد الطبيعية مع كمية السكان. (15)

وهكذا نرى أن العلوم الاجتماعية قد حققت بعض التقدم في مجال تكوين النظريات والقوانين الاجتماعية التي لها مصداقية علمية راسخة والتي سوف تعمل على ترسيخ المعارف الاجتماعية وجعلها أكثر علمية. وقد لاحظنا مما تقدم أن مرحلة تكوين النظرية العلمية تبدأ عادة بالفرض ثم تنتقل إلى التعميم ثم تنتقل إلى النظرية وبعد ذلك يمكن أن نصل إلى القوانين العلمية التي تعتبر أكثر رسوخاً من النظريات العلمية إلا أن القوانين العلمية تعتبر قليلة جداً في العلوم الاجتماعية إن لم نقل نادرة.

تطور نظرية علم الاجتماع:

مر الفكر الإنساني خلال مراحل تطوره بعدة مراحل متميزة تمثل تطوره عبر العصور والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

1- مرحلة الحكمة الشعبية folk wisdom.
2- المرحلة الثيولوجية theology (اللاهوتية) أو الدينية.
3- المرحلة الفلسفية.
4- المرحلة أو النزعة الطبيعيةNaturalism.
5- المرحلة العقلانية Rationalism.
6- المرحلة الذرائعية Pragmatism (العملية).

لعل بعضنا على أقل تقدير يعلم أن علم الاجتماع قد نشأ في المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الفكر البشري ومن خلال أوضاع تاريخية معينة أي أنه نشأ خلال مرحلة تمتد من نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين أي بعد الثورات السياسية في أوروبا

والطفرة التي صاحبت عملية التصنيع وقد صور روبرت نسبت Robert Nisbet هذه الفترة على أنها فترة ثورتين رئيسيتين: الثورة الصناعية والثورة الفرنسية. فقد ألقت الثورة الصناعية الضوء على القضايا المتعلقة بالأحوال المتعلقة بالعمل وأضاع الملكية وأحوال حياة أهل المدينة وتأثير دخول التقنية على أحوال الناس ونظام العمل في المصانع في أن الحياة الديموقراطية أثارت الأفكار المتعلقة بالثورة والحكم المركزي أو تمركز الحكم في مواقع بعينها والنزعات القومية والبيروقراطية والعلمانية. (16) ومن ثم جاءت المشكلات الاقتصادية والسياسية في مقدمة تلك الأمور الداعية إلى الحاجة إلى فهم المجتمع كوحدة للتحليل في حد ذاته. وقد استفادت نظرية علم الاجتماع من التراث الفلسفي لعصر النهضة ومرحلة عصر التنوير وبدأت بتطبيق ذلك الإرث الفكري لدراسة الفرد والمجتمع.

وعندما حدثت التطورات الاقتصادية وظهرت الفلسفة الذرائعية تم تأكيد سيادة المنهج العلمي وبروزه بشكل فعال تم على إثر ذلك تعديل التراث الفلسفي بما يتماشى مع تلك التطورات. وقد غيرت نظرية علم الاجتماع محور اهتمامها وفرضياتها طبقاً لتلك التطورات، وذلك من الفرضيات الفلسفية التجريدية إلى العلمية ولتصبح أكثر رسوخاً وواقعية وتجريبية بصورة فعلية. ونتيجة لذلك تغيرت محاور اهتمامات نظرية علم الاجتماع وفرضياتها بشكل كبير من الفلسفة والتجريد إلى الواقعية والتجريبية (17) وعليه يكون من الضروري التأكيد على أن ظهور نظرية علم الاجتماع كان استجابة للتغيرات السياسية والاقتصادية في المجتمع الأوروبي، وأن نظرية علم الاجتماع حاولت دراسة هذه المشكلات باعتبارها نظاماً فكرياً جديداً، وأن هذه النظرية تغيرت مع تغير المجتمع نفسه، مستجيبة بذلك للإدراك والفهم المتغير للوقائع الاجتماعية. وبهذه الطريقة تطورت نظرية علم الاجتماع في نطاق فلسفة القرن التاسع عشر وتم تعديلها بصورة موسعة خلال تطور المنهج العلمي العام الذي يهتم بدراسة المجتمع وبصورة تكشف عن التصورات المتغيرة باستمرار حول النظام الاجتماعي والتقدم الذي تمر به تلك المجتمعات.

على الرغم من اهتمام عدد كبير من الكتاب بدراسة الكيفية التي تغيرت بها نظرية علم

الاجتماع إلا أن تحليل وليم كاتون William Catton في كتابه المعنون: تطور الفكر السوسيولوجي. يحظى باهتمام خاص لأنه رأى في هذا المؤلف أن أهداف علم الاجتماع تتحول من عصر ما قبل المرحلة العلمية إلى المرحلة العلمية ومنهجه تغير من الكونية والعمومية إلى منهجية أكثر تحديداً مثل الطريقة التجريبية المعروفة للعلوم الطبيعية وبذلك فإن كاتون يرى أن مضمون هذا النظام العلمي محدود ثقافياً ويتبنى محوراً محدود النطاق إلى حدٍ كبير كما أنه ينصرف إلى إيضاح مفاهيمه الرئيسية بشكل عام يرى كاتون بأن علم الاجتماع قد تحول من الفلسفة وعلم اجتماع الوحدات الكبرى والاتجاه الثقافي إلى العلمية وعلم اجتماع الوحدات الصغرى والموضوعية في الحكم على الأشياء وصار يؤكد بصورة عامة على فاعلية المنهج العلمي الذي صار يشكل الفلسفة المسيطرة على علم الاجتماع. (18)

ملامح تطور النظرية السوسيولوجية المعاصرة

كان للتطور السريع الذي حصل في مجال العلوم السياسية والاقتصادية والتطور الحضري السريع الذي كان نتيجة مباشرة للثورة الصناعية وما صاحبها من مشكلات اجتماعية أثر مهم في ظهور وتطور علم الاجتماع الذي تكفل بمعالجة المشاكل التي كانت مصاحبة لذلك التطور وهو ما دعا إلى الحاجة الماسة لتنظيم شؤون حياة المجتمع بشكل علمي وعملي منظم. وكان الفضل في هذا التطور يعود إلى العلماء الذين أثروا في هؤلاء المفكرين المعاصرين الذين استمدوا أصول نظرياتهم من آراء علماء الاجتماع الأوائل أمثال كونت، وسبنسر، ودور كايم، وزيمل وأضفوا عليها بعض خصائص الحياة المعاصرة.

وقد حمل لواء هذه الحركة الاجتماعية في بداية ظهورها علماء يعتبرون من روادها الأوائل منهم على سبيل المثال لستر وارد L. Ward (1841-1913) الذي أعتبر علم الاجتماع علم العلوم وهو في هذا الصدد ينقل فكرة أوجست كونت الذي ذهب إلى أن قيام علم الاجتماع يحقق وحدة المعرفة وهو العلم الذي يتزعم العلوم الإنسانية كما تأثر بدور كايم

الذي اعتبر المجتمع قوة روحية تخلق القيم الأخلاقية والعقلية والمعايير الجمالية. وتدور النظرية السوسيولوجية عند لستر وارد حول أربع مسلمات أساسية:

المسلمة الأولى: تشير إلى قانون التطور بالمعنى الذي ورد في أعمال سبنسر، وقد قسم وارد التطور إلى: التطور الكوني Cosmogeny، والتطور الحيوي Biogeny، والتطور البشري Anthropogeny، والتطور الاجتماعي Sociogeny.

المسلمة الثانية: هي تشعب التطور بعد المرحلة الإنسانية ويعني ذلك أن يصاحب التطور الانتقائي - الناتج عن قوى مطلقة أطلق عليها وارد مصطلح النشوء - ظهور الغائية Forces أو السلوك المقصود للإنسان، القائم على المعرفة، وتوقع المرء لنتائج أفعاله.

المسلمة الثالثة: هي أن كل علم إنما يمثل دراسة منظمة لمجموعة معينة من القوى Forces. ويرى وارد أن القوى الاجتماعية هي قوى نفسية واضحة، وإن كانت تنحصر في الشعور، باعتباره القوى المحركة للظواهر الاجتماعية.

المسلمة الرابعة: تتمثل في مبدأ التكامل الإبداعي أو توازن القوى، وهو مبدأ كوني عام يبتدئ في كل جزء من الطبيعة بل إن التحول من مرحلة تطورية إلى أخرى يتم عن طريق توازن القوى. (19)

من المعروف أن عالم الاجتماع المعاصر *سمنر* Sumner 1840- 1910 قد اهتم بالعلاقات الاجتماعية وتطورها والقوانين التي تخضع لها في دراسته للاتجاه التطبيقي ووضع نظريته في تصنيف المجتمعات حيث قسمها إلى جماعات داخلية وأخرى خارجية وذلك على أساس تصنيفه للعلاقات والعمليات الاجتماعية وركز اهتمامه على دراسة العادات والعرف والتقاليد ومختلف مظاهر السلوك الجمعي ومعظم ملاحظاته مستمدة من الملاحظة والتجربة ومن الميدان الاجتماعي وقد أسبغ هذا الاتجاه على الدراسات الاجتماعية صفات خاصة حددت شخصية علم الاجتماع المعاصر. على كل حال نظر سمنر إلى المجتمع بوصفه نسقاً من القوى التي تخضع لقوانين يتمثل عمل العالم في فحصها ودراستها. وعلى الناس أن يستجيبوا للقوانين الاجتماعية كما يستجيبون للقوانين

الفيزيائية، وعليهم أن يتعلموها ويطيعوها. ولذلك فإنه عبر عن تسليمه غير المشروط بمبدأ الحرية.

قانون التطور هو القانون الأساسي عنده. وهو عملية تلقائية تسير في اتجاه واحد ولا يمكن ردها أو إعاقتها، ويستحيل تغييرها بواسطة الجهود الإنسانية. ويندفع التطور قدماً بواسطة الصراع من أجل البقاء، وهو نضال مرير وتنافس حاد بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان ولذلك يجب أن لا يلام أي شخص يضع العقبات والعراقيل أمام شخص آخر فتلك سنة الحياة فالبقاء للدؤوب والمعتدل أو أن البقاء للأصلح. (20)

لعل ألبيون سمول Albion W. Small (1854-1926) من بين العلماء الذين ساهموا بقدر لا بأس به في تطور معرفتنا العلم اجتماعية (السوسيولوجية) ولكن أهم ما يمكن أن يرتبط بسمول هو كونه أول رئيس لقسم علم الاجتماع الجديد الذي أسس في جامعة شيكاغو سنة 1892 والذي يعد هو الأول من نوعه في جميع الجامعات في العالم وقد عرف سمول باستخدام مصطلح المصلحة الذي هو محور اهتمام نظريته الاجتماعية. والمصالح هي أبسط أساليب الحركة التي يمكن تتبعها في السلوك الإنساني، الذي يتجلى في عملية التطور والتوافق وإشباع المصالح. وتنقسم الأخيرة (إشباع المصالح) إلى ست فئات: الصحة، والثروة، والمشاركة الاجتماعية، والمعرفة، والجمال، والحق. فالمصالح - من المنظور الذاتي - تفهم بوصفها رغبات، أما من المنظور الموضوعي فإنها تدرك بوصفها مطالب.

وتحكم المصالح كل من الحياة الفردية والاجتماعية. والفرد - في أي زمان - هو نتاج لصراع مستمر بين مصالحه، كما أن المجتمع هو نتيجة للجهود المضنية التي يبذلها الأفراد لتحقيق مصالحهم. ويؤكد سمول على العلاقة التساندية بين الأفراد والجوانب الاجتماعية من صراع المصالح فيقول: "إن الفرد ليس وسيلة للمجتمع كما أن المجتمع ليس وسيلة للفرد، وإنما يعد كل منهما وجهاً للآخر، فالمجتمع مركب من أوجه نشاط الأشخاص، والشخص هو مركز الدفعات الشعورية التي تتحقق في المجتمع بصورة كاملة"(21).

استخدم سمول اصطلاح المجتمع Societyفي هذا الصدد، بينما كان يستبدله في أعماله المبكرة باصطلاح Association. وكان يصر على أن الاختلاف بين المصطلحين ليس مجرد اختلاف لفظي. فكلمة Society توحي بنظرة استاتيكية كما يقول بينما تنطوي كلمة Association على نظرة دينامية. وكان يأمل في دراسة عملية التجمع الإنساني Association Human، حيث إن الصراع في هذه العملية هو النمط الأول الذي ينطوي على تصادم المصالح. وذهب سمول - متمسكاً بمفاضلته الأخلاقية - إلى تأكيد أن الصراع يحل نفسه ويتحول إلى تعاون بواسطة التنشئة الاجتماعية. (22)

وأخيراً فإن تطور علم الاجتماع في البلاد العربية يحتاج إلى وقفة جادة ومتأملة لاختبار المعرفة التي تم تحصيلها من خلاله وتحليل الموقف النظري الذي يوجه أبحاثه نحو الاتجاه الصحيح حتى نتمكن من حصاد المعرفة العلمية الجيدة والفكر الناضج الذي قدمه هذا العلم لبلادنا والذي يمكن أن يضاف أو يقارن باتجاهات الفكر العالمي في ميدان فهم المجتمع بشكل خاص والعلاقات الإنسانية بشكل عام. ففي الجامعات العربية بشكل عام والجامعات الليبية بشكل خاص دخلنا في العقد السابع أو يزيد قليلاً على تقديم علم الاجتماع إلى جامعاتنا العربية لكن مساهمتنا في مجال تطوير نظرية علم الاجتماع مازال محدوداً إن لم نقل معدوماً باستثناء التأليف والترجمة فقد قدم فيهما الكثير من المهتمين بهذا المجال جهداً لا بأس به.

هذه لمحة موجزة عن النظرية الاجتماعية نهدف من ورائها إلى جعل القارئ يلم بأساسيات النظرية الاجتماعية التي سوف نتناولها بشكل مفصل في الفصول التالية بإذن الله ونحن نؤكد هنا على أن هناك تنوعاً كبيراً في مداخل النظرية الاجتماعية وفي نماذجها المتعددة التي لن نستطيع أن نلم بها بشكل شامل في هذا الكتاب كلها وعليه ستظل أزمة نظرية علم الاجتماع مستمرة وستظل يوجه لها النقد ولن يستطيع أحد حل الخلاف حولها لكننا نحاول في هذا الكتاب الوصول إلى الحد الأدنى على أقل تقدير من فهم النظرية الاجتماعية وتقديمها بشكل مبسط لكي نساعد الطالب المبتدئ على الولوج في ميادينها المختلفة.

هوامش الفصل الثاني

(1) Defleur, L. Melvin, and others, Sociology: Man in society, SCOTT, Foresman and Company 1977 pp. 19-20.

(2) بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بدون تاريخ، ص 174.

(3) الحسن، إحسان محمد، الأسس العامة لمناهج البحث الاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص 32.

(4) Barron, M. Contemporary Sociology, Dood &Mead Company,N. Y. 1965 p. 986.

(5) عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة، الكتاب رقم 44 لسنة 1981، ص 12.

(6) علي ليلة النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص 26.

(7) - المرجع السابق نفسه، نفس الصفحة.

(8) بوتومور، تمهيد في علم الاجتماع، ترجمة وتعليق محمد الجوهري وآخرون، الطبعة الثانية، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1973، ص 31.

(9) Kinloch, Graham, sociological theory, Mcgraw-Hill Book company1977 p 26.

(10) Kinloch, Ibid, p 26.

(11) إحسان محمد الحسن، مرجع سبق ذكره، ص 28.

(12) المرجع السابق نفسه، نفس الصفحة.

(13) عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة الكتاب رقم 44 لسنة 1981، ص 12.

(14) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها ترجمة محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1978، ص 32.

(15) إحسان محمد الحسن، مرجع سبق ذكره، ص 29-31.

(16) Kinloch, Ibid, p 35.

(17) Kinloch, Ibid, p 35.

(18) Kinloch, Ibid, pp 35-36.

(19) نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص ص118-130.

(20) المرجع السابق نفسه، ص ص109-115.

(21) المرجع السابق نفسه، نفس الصفحات.

(22) المرجع السابق نفسه، ص ص107-108.

الفصل الثالث

النظـرية العضـوية

Organic Theory

ويشتمل هذا الفصل على النقاط الآتية:

- **أولاً : أوجست كونت**
- **ثانياً : هربت سبنسر**
- **ثالثاً : إميل دوركايم**
- **رابعاً : فردناند تونيز**

الفصل الثالث

النظرية العضوية
Organic Theory

سنتناول في هذا الفصل الحديث عن أحد أهم الأشكال الأولى للنظرية الاجتماعية وسيكون المدخل الذي نستخدمه هو المدخل العضوي، وكمقدمة لهذا الموضوع فإننا سنناقش بإيجاز الأوضاع الفكرية والأحداث الاجتماعية التي تطور في ظلها النموذج النظري العضوي كما سنناقش الافتراضات الأساسية لهذا النموذج وذلك في ظل الأعمال التي قدمها أربعة من المفكرين الذين ترتبط أسماؤهم بهذا النموذج من النظرية الاجتماعية وهم: أوجست كونت، هربرت سبنسر، إميل دوركايم، فردناند تونيز.

نحن نعلم أن النظرية الاجتماعية جاءت كرد فعل جماعة معينة من المفكرين الاجتماعيين لمشاكل اجتماعية يومية محسوسة في الزمان الذي ظهرت فيه النظرية العضوية. حيث نجد أن قلة قليلة فقط من المشتغلين في ميدان علمي معين هم القادرون دون غيرهم على القيام بهذا العمل، فبناء نظرية على هذا الأساس يعد إنجازاً خلاقاً لا يستطيع القيام به إلا القلة، لهذا فإن التنظير بالنسبة للمدخل العضوي قام به جماعة من المفكرين الذين ينتمون إلى الطبقة العليا من المجتمع والذين نالوا قسطاً وافراً من المعرفة العلمية خلال حركة عصر التنوير الفلسفية التي ظهرت في أوروبا خلال القرن الثامن عشر حيث تفاعل هؤلاء المفكرون مع البيئة الاجتماعية في عصرهم فكانت نتيجة هذا التفاعل في تلك البيئة التي تعرضت لأحداث جسام مثل الثورات السياسية والانهيار الاجتماعي الذي جاء نتيجة لتدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في تلك الحقبة الزمنية إضافة إلى التطور الصناعي أو التنمية الصناعية الكبرى التي حدثت نتيجة للثورة

الصناعية، هذه الأحداث مجتمعة أدت إلى ظهور المكونات الأساسية للنظرية العضوية.

باستخدامهم الافتراضات التي قدمها أصحاب المذهب الطبيعي Naturalism وأصحاب المذهب العقلي Rationalism والمفكرون المشتغلون بالإصلاح الاجتماعي، وأصحاب المنهج الوضعي، استطاع هؤلاء المفكرين تطوير وجهة نظر جديدة للمجتمع ركزت على حاجاته العامة أو الشاملة Systemic needs التي تؤدي وظائفها طبقاً لنواميس القوانين الطبيعية كنظام وظيفي متداخل ومترابط الأجزاء من خلال تقسيم العمل division of labor أو بناء الدور Role Structure وطبقاً لوجهة النظر هذه فإن المجتمع يمثل العضوية الوظيفية كجزء من بقية النظام الطبيعي الذي تطور بالرجوع إلى حاجاته الأساسية.

إن البناء الآلي للنسق الاجتماعي هو الذي توضحه أعمال كل من كونت وسبنسر بينما نموذج النسق المعياري الذي يعتمد على تقسيم العمل الذي يوضحه النموذج النفسي الاجتماعي الذي قدم من خلال وجهات نظر كل من دوركايم وتونيز. في كلتا الحالتين نظر الرواد الأوائل من علماء الاجتماع إلى المجتمع على أساس أنه نظام وظيفي موحد أو متكامل يعتبر جزءاً من النظام الطبيعي ولا يمكن فصله عنه ويعمل من خلال نظام تقسيم العمل الذي هو أساس وجود المجتمع.

الخلاصة أن المدخل العضوي يعتبر من النماذج المبكرة للنظرية الاجتماعية وهو يعد من أقدمها، وقد طور من قبل مجموعة من المفكرين الذين ينتمي أغلبهم إلى مفكري الطبقة الاجتماعية العليا من تلك المجتمعات التي ولدوا وعاشوا وتعلموا فيها كما سبق وأن أشرنا. وقد شاع المذهب العضوي في ظل تعاليم فلسفة عصر التنوير التي ظهرت كاستجابة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت، حيث كانت النتيجة الأساسية لهذه العوامل ظهور نموذج النظرية الاجتماعية التي قدمت تفسيرات شمولية تكاملية وطبيعية للمجتمع، والاختلاف الذي يحدث بين هؤلاء المنظرين حول النموذج النظري الذي يتبعه كل منهم، يكون من خلال تأكيد هذا المنظر على الخصائص الآلية أو الخصائص المعيارية للمجتمع موضوع الدراسة.

ونقدم فيما يلي ملخصاً للعوامل الأساسية التي تقف وراء تكوين النظرية العضوية والتي منها:

1. الأوضاع الاجتماعية، التي تمثلت في:
   أ. الثورة السياسية.
   ب. التفكك الاجتماعي.
   ج. التنمية أو النهضة الصناعية.
2. الأوضاع الفكرية، التي تمثلت في المذاهب الفكرية التالية:
   أ - المذهب الطبيعي.
   ب - المذهب العقلاني
   ج - التطور الاجتماعي.
   د - المذهب الوضعي.
3. السير الذاتية لأصحاب هذا المذهب والتي تشمل:
   أ. مكانة اقتصادية واجتماعية عليا.
   ب. تعليم في ضوء مبادئ عصر التنوير.
   ج. مهن أكاديمية. (1)

بعد هذه المقدمة نريد أن نستعرض الآن أعمال المنظرين الأساسيين للنظرية العضوية وذلك على النحو التالي:

أولاً: أوجست كونت 1798-1857م

ولد أوجست كونت Auguste Comteفي مدينة مونتبليه بجنوب فرنسا في 19 يناير عام 1798 في السنة السادسة للثورة الفرنسية وهو ابن لعائلة كاثوليكية مناصرة للملكية. ودرس في كلية Ecole Polytechnic المتعددة الفنون في باريس التي كانت تدرس فيها العلوم التقنية أو التطبيقية، لكنه لم يكمل تعليمه الرسمي لأنه يبدو أنه كانت لديه حساسية ضد السلطة مهما كان نوعها، لذلك طرد من الكلية بعد أن حرض على تمرد ضد إدارتها، وبعد ذلك مباشرة تمكن من أن يقوم باتصال مع سان سيمون وهذا الاتصال يعد من أهم الاتصالات التي قام بها في حياته حيث أصبح أمين سر (سكرتير) وصديق دائم لسان سيمون، حيث عمل معه ست سنوات كأمين سر مما أدى بدون شك إلى تقوية تأثير سان سيمون عليه بشكل كبير في التفكير والكتابة لدرجة أنه قيل إن كونت لم يفعل شيئاً أكثر من كونه قام بتنظيم وتطوير ما كان سان سيمون قد كتبه أو وضع خطوطه العريضة وقد وافق معظم كبار النقاد على أن ذلك كان من أهم الإسهامات التي قدمها أوجست كونت، إلا أن كونت على أية حال أنكر بشدة تأثير سان سيمون على كتاباته، لكن اتهام سان سيمون لكونت بانتحال أفكاره هو الذي أفسد علاقة الرجلين ببعضهما البعض. (2) درس أوجست كونت الطب وعلم وظائف الأعضاء، وقام بتدريس الفلسفة الوضعية وأسس جماعة علمية أسماها المجتمع الوضعي Positivist Society. تلقى دراسته العلمية في ضوء تقاليد فلسفة التنوير وقد عاصر الكثير من الغليان السياسي في فرنسا وكذلك الانهيار الذي أعقب الثورة الفرنسية، وعاصر بداية الثورة الصناعية وازدياد الصراع بين العلم والدين. وتمثلت أهم أعماله في كتاب دروس في الفلسفة الوضعية أو الفلسفة الوضعية The Positive Philosophy وهي عبارة عن سلسلة من المحاضرات ألقيت خلال الفترة ما بين عامي 1830-1842 وطبعت فيما بعد في ستة مجلدات، وكتاب رؤية عامة للوضعية General View of Positivism الذي صدر عام 1848 وإليه يعود الفضل في تسمية علم الاجتماع. (3) "وقد كتب كونت في سنواته الأخيرة بين عامي1851-1854 مؤلفاً بعنوان

مذهب في السياسة الوضعية System of Positive Politics في أربعة مجلدات طبق فيه مكتشفات علم الاجتماع النظري على حل المشكلات الاجتماعية في عصره، ومن ثم حقق هدفه الرئيسي الذي كان يتمثل في إصلاح المجتمع وتحسين أوضاعه". (4) الواقع أنه على الرغم من أن كونت أنكر تأثير سان سيمون عليه إلا أن بعضاً من أفكاره وآرائه يظهر فيها تأثير سان سيمون بوضوح، كيف لا، وهو الذي كان قد تتلمذ على يده بل وكان سكرتيره الأمين على سره فترة من الزمن دون فيها أفكاره واطلع خلالها على الخطوط العريضة لفكره.

كان للثورة الفرنسية تأثير كبير على أفكار وتوجهات أوجست كونت حيث سيطرت هذه الظاهرة الكبرى سيطرة تامة على العصر الذي ظهرت فيه آراء كونت وقد نص كونت على ذلك صراحة حيث قال في عبارة صريحة: "لولاها [يقصد الثورة الفرنسية] لما أمكن أن توجد نظرية التقدم، ولما أمكن تبعاً لذلك أن يوجد العلم الاجتماعي" (5) فقد كان كونت يبغي من وراء أعماله في الواقع إصلاح ما خلفته الثورة وراءها من فساد وفوضى. وقد اتفق كونت مع جميع المفكرين الذين عاشوا في السنوات التي تلت الثورة على وجوب "وضع أسس ثابتة لمجتمع جديد"، وأن يعقب عصر الاضطرابات المنصرم عصر الاستقرار. ودار على جميع الألسن هذا السؤال "كيف يمكن تنظيم المجتمع من جديد على أساس أن النظام القديم قد انهار"؟. (6) والواقع أن هذه المهمة صعبة جداً فبعد الثورات ينفلت زمام الأمور عادة وتكون إعادة الأمور إلى نصابها أمراً بالغ الصعوبة والمتتبع لأحداث الثورة التي عرفت بثورة الربيع العربي يجد الإجابة الشافية عندما قلنا صعوبة إعادة التوازن إلى المجتمعات التي شهدت ثورات دامية ولهذا كانت مهمة أوجست كونت في إعادة التوازن إلى فرنسا صعبة لكنها ليست مستحيلة.

وكان لأوجست كونت عبقرية فذة بمعنى الكلمة، فقد ألف وهو في الرابعة والعشرين من عمره كتابه: خطة البحوث العلمية اللازمة لإعادة تنظيم المجتمع وذلك عام 1822 ثم شرع بعد ذلك في تكريس كل وقته وقراءاته وجهده لعلم الاجتماع. وكان يطور أفكاره من

خلال محاضرات يلقيها في بيته على بعض أصدقائه ومريديه، وكان يممه أعلام الفكر في القرن التاسع عشر من كل أنحاء أوروبا، ومن فرنسا على وجه الخصوص.

إلا أن رغبته في أن يحيط بكل العلوم المتاحة في عصره، وأن يرتبها ويعيد النظر فيها من منظور جديد، قد قاده بعد أربع سنوات من العمل إلى أول انهيار عصبي. يضاف إلى ذلك أن كونت أمضى عمره كله في ظل ظروف اجتماعية بالغة الصعوبة، وكان طرازاً عجيباً من الناس: يعاني من اضطراب علاقاته الاجتماعية مع كل الناس، حتى أصدقائه، ويبحث عن موضوعات وقضايا يبذل فيها الجهد والعرق وتنتهي به إلى زيادة ما يعانيه من قلق ومن إحساس بالأزمة. (7) وهذه حالة طبيعية لإنسان في مرتبة أوجست كونت يحظى بمكانة علمية رفيعة وعاصر مرحلة عصر التنوير الذي انتشر تأثيره في جميع أنحاء أوروبا واضطراب علاقات كونت الاجتماعية كان سببه في كثير من الأحيان ما وجده من عدم تفهم للكثير من أفكاره من بعض المحيطين به ومن غيرهم.

مراحل التطور العقلي والاجتماعي عند كونت

لاحظ كونت أن النظم الاجتماعية تتوقف على العادات والعرف كما تتوقف العادات الخلقية بدورها على المعتقدات، فيجب إذن قبل الشروع في وضع النظم الجديدة أن تنظم طريقة التفكير. وذلك لا يمكن تحقيقه إلا بإيجاد مجموعة من الآراء التي تتقبلها العقول. فالتنظيم الاجتماعي يتوقف إذن في النهاية في نظر كونت على التنظيم العقلي. ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن فلسفة كونت كانت ترمي إلى تحقيق غرضين أساسيين: الأول اكتشاف الحقائق الأساسية لتحقيق الوحدة بين العقول، والثاني وضع القواعد العلمية الصحيحة لعلم الاجتماع على ضوء هذه الحقائق على أن يكون الغرض من هذا العلم الوصول إلى قواعد خلقية وسياسية ثابتة ونهائية تحقق سعادة الإنسانية. (8) ويرى كونت أن التطور العقلي والاجتماعي يمر بثلاث مراحل أو ما أسماه قانون الحالات الثلاث وهذه المراحل هي:

1- المرحلة أو الحالة اللاهوتية Theological وهي المرحلة التي تتخذ فيها تفسيرات الإنسان

للأشياء والظواهر شكل الأساطير المتعلقة بالأرواح وبالكائنات فوق الطبيعية، " حيث وقف الإنسان في طوره البدائي حائراً أمام الظواهر الطبيعية وتساءل عن مصدرها ولكن عقله ظل قاصراً عن إدراك أسبابها الحقيقية، فأخذ يعزوها إلى إرادة الآلهة أو نوع من القوى الخفية التي تسيطر على العالم. وفي هذه المرحلة اللاهوتية أضفى الإنسان على الآلهة عواطف وتصرفات إنسانية: فهي تغضب وتثور وتتنازع ويحارب بعضها بعضاً. فإذا هبت العاصفة أو نزلت الصاعقة فإن ذلك سببه ما يدور في محيط الآلهة من أنواع الصراع أو هو تعبير عن غضبهم ونقمتهم. " (9)فهناك إله الحرب وهناك إله مهمته تسيير الرياح وآخر يسير البرق والرعد وهكذا وهي كلها تفسيرات ساذجة تتمشى مع عقلية الإنسان البدائي البسيط.

2- ثم المرحلة أو الحالة الميتافيزيقية Metaphysical وهي مرحلة تمتاز بالتأمل العقلي، والبحث عن المعاني والدلالات، والكشف عن الجواهر، والتفكير في ضوء المثاليات والإشكال، ويسيطر على الإنسان في هذه المرحلة تصور معين "للحقيقة المطلقة". (10) والمرحلة الميتافيزيقية مرحلة انتقال بين الحالة أو المرحلة الدينية والوضعية. والواقع أن العقل البشري لم يغير في هذه المرحلة كثيراً من طرق تفكيره ولا من الوسائل التي يبحث بها عن ماهية الأشياء فكل ما كان يشغله هو معرفة السبب أو العلة الأولى للظواهر التي تقع تحت حسه. ولكن انتظام هذه الظواهر جعله يتقدم خطوة في سبيل المعرفة، فبعد أن كان في المرحلة اللاهوتية يرجع كل شيء إلى قوة خارجية تتمثل في الآلهة والأرواح الخفية، أصبح في هذه المرحلة يتخيل قوى وخواص أولية كامنة داخل الأشياء نفسها وجعل منها المحرك الأول للظواهر المختلفة. فالأجسام تتحد لأن بينها نوعاً من التآلف، والنبات ينمو لأنه يتمتع بروح نامية، والحيوان يحس لأنه وهب روحاً حساسة وآخر ما وصل إليه هذا النوع من التفكير هو الوصول إلى قوة وحيدة لتفسير الأشياء على نمط واحد، ولكن بدلاً من اسم الإله أطلق الفلاسفة على هذه القوة اسم الطبيعة، فالطبيعة في نظرهم تفسر كل ما في الكون من ظواهر. (11) في

هذه المرحلة بدأ الإنسان في استخدام عقله لمحاولة معرفة السبب أو العلة الأولى للظواهر التي تقع تحت حسه مثل معرفة لماذا ينمو النبات ولماذا تتحد الأجسام ولماذا يحس الحيوان وهكذا وهدف هذا النوع من التفكير هو الوصول إلى قوة وحيدة لتفسير الأشياء على نمط واحد.

3- المرحلة أو الحالة الوضعية أو العلمية: Positivism يتوجه الإنسان خلال هذه المرحلة إلى رفض الافتراضات اللاهوتية والميتافيزيقية التي تفسر الظواهر إما على أساس الآلهة أو الماهيات. لأن هذه المرحلة تمثل مرحلة النضج والاكتمال في التفكير الإنساني، فقد رأى الإنسان أن انتظام الظواهر لا تفسره المعجزات ولا أهواء الآلهة. كما أنه لم يعد يقتنع بالتفسير الكلامي الذي كان يقدمه له رجال الفلسفة الميتافيزيقية. والتفكير الوضعي الذي أشار إليه كونت لا يهتم بالبحث عن سبب حدوث الظواهر بل يتجه أولاً إلى معرفة كيف تحدث هذه الظواهر. هذه الخطوة كانت حاسمة في تقدم العلم. فبعد أن كان الإنسان يضيع وقته هباء في التأملات التي لا تؤدي إلى شيء انصرف إلى الأشياء التي تقع تحت حسه يلاحظها ويجري عليها التجارب ويقوم بإحصاءات دقيقة تترتب عليها نتائج يقينية لا يستطيع أن يجادل في صحتها أحد. (12)

ننتقل الآن إلى أهم الأهداف العلمية التي كان يركز عليها كونت والتي كانت تتلخص فيما يلي:

أ - كان جل اهتمامه منصباً على إصلاح ما خلفته الثورة الفرنسية وراءها من فساد وفوضى وكان كونت يسعى إلى إعادة تنظيم المجتمع طبقاً للفلسفة الوضعية ويعد هذا هو أحد الأسباب التي أدت إلى استفحال الخلاف بينه وبين أستاذه سان سيمون الذي أراد أن يرجئ الإصلاح العلمي ليشرع في الإصلاح الاجتماعي فخالفه كونت في ذلك لاقتناعه بأن الشرط الأول لنجاح الإصلاح هو إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول كما كان الحال في عصر النهضة ولكن بواسطة العلم لا بواسطة الدين. وقد كان كونت يرى أن الهدف الأساسي

لعلم الاجتماع هو رفض التفسير الثوري الذي قدمته الثورة الفرنسية للمجتمع الحديث، وكان كونت يرى أن الثورة ليست وسيلة لبناء المجتمع، بل إنها انهيار خلقي.

ب - كما كان اهتمامه الثاني منصباً على تكوين علم يدرس المجتمع أسماه في بادئ الأمر بالفيزياء الاجتماعية التي كان يعتقد أنها سوف تكمل النسق المعرفي لدينا وهو العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعاً لدراسته ثم غيّر اسمه فيما بعد إلى علم الاجتماع Sociology أو السوسيولوجيا وهي كلمة تتألف من مقطعين أحدهما لاتيني والآخر يوناني وذلك بعد أن اعتقد أن مصطلح الفيزياء الاجتماعية قد سرق منه من قبل عالم الإحصاء الاجتماعي البلجيكي أدولف كتيليه Adolphe Quetelet (13) بهذا صارت تسمية علم الاجتماع مرتبطة بأوجست كونت على الرغم من أننا نعلم أن المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع هو العلامة العربي ابن خلدون الذي سبق أوجست كونت بحوالي أربعمائة سنة بدراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة وبأسلوب علمي وأطلق تسمية علم العمران على ما نسميه الآن علم الاجتماع. أما إذا انتقلنا إلى الافتراضات العلمية الأساسية التي كان جل اهتمامه منصباً عليها فإننا نجدها تتلخص في الآتي:

أ - كان افتراض كونت الأساسي يقول: "الكون منظم على أساس قوانين طبيعية غير مرئية" وهذه القوانين هي التي تقف وراء تطور ونمو العقل أو المعرفة أو القيم الاجتماعية السائدة في ذلك المجتمع.

ب- أما افتراضه الثاني فهو: "كل فرع من فروع معرفتنا لا بد له من المرور بالمراحل الثلاثة للتطور وهي: المرحلة اللاهوتية التي يستخدم فيها الناس التفسيرات العاطفية والشخصية في تعليل سلوكهم وتصرفاتهم وتكون العائلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع، بينما يخضع المجتمع سياسياً لسيطرة رجال الدين وقد أطلق كونت على هذه المرحلة للعقل البشري، المرحلة البدائية، والمرحلة الثانية هي المرحلة الميتافيزيقية التي صورت العقل بأنه متطور نسبياً أكثر من المرحلة السابقة، حيث يرجع الناس سبب وجود الظواهر الاجتماعية إلى قوى ما وراء الطبيعة. وتكون الدولة الوحدة

الأساسية للمجتمع، ويخضع المجتمع لسيطرة الحكام والقضاة والمؤسسات الدينية، والمرحلة الثالثة هي المرحلة الوضعية التي يكون فيها الفكر الإنساني أرقى من المرحلتين السابقتين، حيث يفسر الإنسان الظواهر الاجتماعية بشكل تجريبي علمي. وتؤكد هذه المرحلة على استخدام الوسائل العلمية لدراسة المجتمع. وتكون الوحدة الاجتماعية في هذه المرحلة هي الأمة. والسيطرة السياسية تتراوح بين الحكومة المنتخبة، وسيادة العلوم والمعرفة في المجتمع. (14)

ج . يفترض كونت أن " كل المعارف لها جوانب اجتماعية بمعنى أن العلوم تنتظم في نسق تسلسلي يشغل علم الاجتماع قمته". وأن علم الاجتماع من أكثر العلوم التي اهتدى إليها الإنسان صعوبةً لهذا اختار أن يضعه على قمة العلوم الإنسانية جميعاً. "وقد صمم كونت خطة لهذا الصرح العظيم في صورة هرم مدرج، كل علم فيه يمثل أساساً لما يأتي فوقه وشرطاً ضرورياً لوجوده وتطوره. وأساس ذلك البناء هو الرياضيات التي تسمح لنا بدراسة الجوانب المجردة لجميع الظواهر. وتأتي بعدها الميكانيكا، وخاصة ميكانيكا الأجرام السماوية (علم الفلك). يلي ذلك علوم الفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا. أما علم النفس فلم يعتبره كونت علماً مستقلاً، ولكنه اعتبره فرعاً من الفيزيولوجيا (أي البيولوجيا) من ناحية، وفرعاً من علم الاجتماع - آخر العلوم وأعلاها- من ناحية أخرى "(15). يرى كونت أن "العلم الجديد الذي أسماه علم دراسة المجتمع من الممكن أن يقسم إلى الاستاتيكا الاجتماعية Social Statics والديناميكا الاجتماعية Social Dynamics حيث تهتم الأولى بدارسة شروط وجود المجتمع أو قوانين وجود المجتمع أي الوجود الاجتماعي للإنسان، بينما تهتم الثانية بدراسة قوانين حركة المجتمع المستمرة أو قوانين التغير الاجتماعي. والفكرة الأساسية في الاستاتيكا الاجتماعية هي فكرة النظام، وفي الديناميكا الاجتماعية فكرة التقدم وكلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً، إذ إن النظام والتقدم مترتب كل منهما على الآخر.

د- قسم كونت النسق الاجتماعي إلى جزأين أساسيين وهما: الاستاتيكا الاجتماعية التي

تتكون من الطبيعة الاجتماعية والإنسانية وقوانين الوجود الاجتماعي للإنسان والجزء الآخر الديناميكا الاجتماعية أو قوانين التغير الاجتماعي.

هـ . أما الافتراض الخامس فهو أن "الغرائز الإنسانية الأساسية أو الكبرى الثلاث مثل: غريزة المحافظة على النوع التي تشمل الغرائز الجنسية والحاجات المادية، وغريزة التغيير أو السعي إلى تحسين الأوضاع والتي تتمثل في ثنائية العسكرية والتصنيع والغرائز الاجتماعية الأخرى التي تشمل الترابط والاحترام والحب الشامل، وتقع في موقع وسط بين غرائز المحافظة على النوع والتقدم غرائز الغرور والتفاخر وهذه الغرائز مجتمعة هي أساس المجتمع.

و . وأخيراً فإنه يرى أن "التقدم الاجتماعي يتطور أو يتولد عن العجز الإنساني " وهو افتراض يمكن اعتباره نوعاً من اليوتوبيا الاجتماعية عندما افترض أنه في نهاية التطور الاجتماعي تكون هناك إمكانية لسيطرة الوضعية على النظام الاجتماعي باعتبارها دين الإنسانية، وهذا الافتراض يصور المجتمع في مرحلة الوضعية المتطرفة، التي تتحقق فيها الوحدة الحيوية بين العقل والنظام الاجتماعي، وتأخذ كل أجزاء البناء الاجتماعي طابعاً وضعيا في تلك المرحلة، وقد ناقش كونت المساهمات التي يمكن أن تقدمها مؤسسات مثل النظام التعليمي والفنون نحو تطور الخير والحب بناءً على مبادئ الفلسفة الوضعية.

وموجز القول في افتراضات كونت أنه رأى أن:

1- أن الكون منظم بطريقة تتحكم فيها القوانين الطبيعية.

2- أن هذه القوانين تظهر بشكل واضح وجلي في المجتمع على هيئة العلاقات المتبادلة بين الغرائز الإنسانية والفكر أو القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع، وذلك من خلال بناء المجتمع الاستاتيكي أو الديناميكي.

3- يتطور النسق الاجتماعي من خلال ثلاثة أطوار من تطور الفكر نحو المرحلة الوضعية وهي المرحلة المتكاملة أخلاقياً.

4- وأخيراً فإن مهمة علم الاجتماع بصفته علماً وضعياً هي دراسة هذا النسق ووصفه وصفاً تفصيلياً ودقيقاً يساهم في إيجاد الحل العلمي للمشكلات الاجتماعية. (16)

أما إذا انتقلنا إلى المنهج العلمي الذي استخدمه كونت فإننا سنجده يتمحور حول الآتي: أ- رأى كونت أن المنهج الوضعي سوف يقود إلى تطور الحقيقة النهائية أو العضوية. وهذا يتطلب استخدام الملاحظة، والتجربة والمقارنة، من أجل فهم تفاصيل الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكية الاجتماعية. مثل هذه المناهج تسمح بملاحظة القوانين الاجتماعية، من خلال التجربة المباشرة وغير المباشرة وكذلك تفاصيل التطور الاجتماعي العام، بهذا الخصوص فإن كونت رأى الوضعية كمنهجية تقود إلى توضيح كبير لهذا النموذج النظري المقام على الافتراض الطبيعي العضوي. ويرى "أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، وأن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية، وأنه يجب من ثمة العدول عن كل بحث في العلل والغايات وما يسمى بالأشياء بالذات". (17)

ب- الملاحظة والمقارنة تساوي عنده الديناميكا الاجتماعية والاستاتيكا الاجتماعية. وهي مع التجربة والتحليل، والتحديد، والاكتشاف، تقود إلى صياغة القوانين، كما إنها تقود إلى المراحل الثلاث لتطور المعرفة العلمية وهي: اللاهوتية، الميتافيزيقية، الوضعية. "وقد أنكر كونت - بغض النظر عن تعليمه الرياضي الراقي - إمكانية التطابق بين المنهج الوضعي واستخدام الرياضيات والإحصاء. وقد أشار كونت في إحدى المناسبات إلى أن هناك محاولات عابثة وغير مجدية قام بها عدد من الرياضيين لدراسة المجتمع دراسة وضعية بواسطة تطبيق نظرية الصدف (الاحتمال) الوهمية، كما حقر مرة أخرى من عمل كتيليه". (18)

فالديناميكا من وجهة نظر كونت يمكن أن ترد إلى أربعة قوانين: الأول وهو قانون التطور نفسه، أما القوانين الثلاثة الأخرى فهي خاصة بالقوى العقلية والعملية والعاطفية لبني الشر. أما التطور فخاصية الإنسان لأنه من دون سائر الحيوان يمتلك قوى قادرة

على التقدم المتصل. وهذا التقدم في تاريخ الإنسانية ضروري ومطرد، كما هو شأن كل قانون طبيعي، دون أن يصل أبداً إلى الكمال المطلق. أما قانون التقدم العقلي فهو قانون الحالات الثلاث، حيث الحالة اللاهوتية تقابلها الحالة العسكرية التي تطبع الناس على النظام والاطراد وهما الشرطان الأساسيان لكل نظام سياسي، فالحرب تتيح للمجتمع أن ينمو في مرحلته الأولى، فهي التي ينتج عنها الرق الذي يقوم بالأعمال المادية بدل المحاربين الذين يجب أن يتفرغوا للأعمال الحربية. أما الحالة الميتافيزيقية فتقابلها فترة تؤول فيها السلطة إلى المثقفين الذين يميلون بالحكم من الملكية إلى الديموقراطية، وتتحول العسكرية من هجومية إلى دفاعية، وتضعف الروح العسكرية شيئاً فشيئاً وتقوي روح الإنتاج، أما الحالة الوضعية فتقابلها الحالة الصناعية، حيث يعود فيها إلى القوى المنتجة تعيين نظام المؤسسات وتوزيع السلطات، ويتركز اهتمام الجميع في حل المعضلة الاجتماعية الكبرى التي هي توفير العمل والنمو الروحي للجميع. (19)

وأخيراً فإن النمط الذي استخدمه كونت لدراسة المجتمع ينقسم عنده إلى جزأين أساسيين هما الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية يصوران البناء التنظيمي للمجتمع ومبادئ التغير الاجتماعي فيه فالاستاتيكا الاجتماعية تشمل الطبيعة الاجتماعية التي تضم الدين والفن والأسرة والملكية والتنظيم الاجتماعي، بينما تضم الديناميكا الاجتماعية قوانين التغير الاجتماعي والعوامل المرتبطة به مثل مستوى الضجر والسأم وطريقة الحياة ونمو السكان ومستوى التطور الاجتماعي والفكري كما رأى كونت كذلك أن هذا البناء ككل يتقدم خلال مراحل التطور الثلاث نحو المرحلة الثالثة وهي المرحلة الوضعية أو العلمية.

هذا التقسيم لدراسة علم الاجتماع إلى استاتيكا وديناميكا ضروي لأغراض البحث، ولكنه لا يصح أن يستخدم إلا بمقدار ما يحققه لنا من فائدة. فقد رأينا في البيولوجيا كيف تهاوى هذا التقسيم مع تقدم العلم ونموه، وسوف نرى أنه عندما تبلغ الفيزياء الاجتماعية (يقصد علم الاجتماع) كعلم مبلغ النضج والاكتمال، فلن يبقى هذا التقسيم

إلا لأغراض التحليل فقط، ولكنه لن يكون أبداً تقسيماً حقيقياً للعلم إلى شطرين. فالتقسيم ليس بين نوعين مختلفين من الحقائق، ولكنه بين جانبين اثنين لنظرية واحدة. (20) وفي الختام نأمل أن نكون قد وفقنا في جعل طلابنا الأعزاء يلمون بلمحة ولو موجزة عن أوجست كونت ووجهة نظره العضوية.

ثانياً: هربرت سبنسر 1820 - 1903م

ولد هربرت سبنسر Herbert Spencerيوم الخميس 27 أبريل 1820 في مدينة دربي Derby الإنجليزية وكان الابن الأكبر من بين تسعة إخوة وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة منهم، وكان والده جورج سبنسر مستقلاً في تفكيره معتزاً بنفسه بشكل كبير، وكان عدواني السلوك، فلم يكن يخلع قبعته مطلقاً لتحية أي كان، وكان متفرداً في مظهره الخارجي، راديكالياً في تفكيره. وكانت أمه هاريت Harriet توصف بأنها امرأة صبورة، رقيقة ويبدو أن زواجها من والد هربرت سبنسر الذي كان انفعالياً سريع الغضب لم يكن زواجاً سعيداً. (21) كانت نشأة سبنسر وتوجهه في مستهل حياته نشأة علمية، فلم يعن والده بتلقينه اللغة اللاتينية وآدابها كما كان متبعاً في ذلك العصر لما لاحظه من ضعف جسمه وعدم احتماله لذلك الإرهاق، لهذا كانت أرضيته في اللغة اللاتينية واليونانية ضعيفة وظلت كذلك طوال حياته، على الرغم من أن هذه اللغات كانت تعتمد عليها دراسة العلوم في عصره، بل إنه لم يتلق أي تعليم رسمي حتى في اللغة الإنجليزية التي هي اللغة التي كان يكتب بها، كما أن خلفيته التاريخية كانت سطحية كذلك. " فاستعاض الصبي عن ذلك بالخروج والتجوال في الحقول، فنمت عنده ملكة الملاحظة والبحث الشخصي. وكان يهتم كثيراً بالبحث عن التفسير الطبيعي للظواهر التي تسترعي انتباهه فكان ذلك سبباً في رفضه فيما بعد جميع المبادئ الميتافيزيقية التي لا تقوم على أساس علمي." (22) ورغم القصور الذي كان عنده في مجال تعلم اللاتينية واليونانية إلا أن سبنسر رغم كل ذلك كان أفضل العلماء الإنجليز في عصره أي خلال القرن التاسع عشر.

شعر سبنسر بأنه غير مناسب للتدريس الجامعي، وحيث إنه لم تكن لديه الرغبة في الالتحاق بجامعة كمبردج كما فعل والده، فقد قرر أن يواصل اهتماماته العلمية، ذلك لأن التعليم الذي تلقاه من والده وعمه كان منصباً على الجانب العلمي، وعندما وصل إلى سن السادسة عشرة كان قد كون خلفية جيدة في الرياضيات والعلوم الطبيعية. التحق في سنة 1837 بهيئة سكة حديد لندن وبرمنجهام كمهندس وعندما انتهى مد خط سكة الحديد عام 1841 سرح من العمل فرجع إلى منزله بمدينة دربي لمواصلة أبحاثه العلمية. (23)

وكأحد أبناء عصر النهضة الصناعية المؤمنين بتعاليم المدرسة الفكتورية، فإن سبنسر نظر إلى المجتمع على أساس أنه متأثراً بالثورة الصناعية والتوسع الاقتصادي الذي كان من نتاجها، وطبقاً للمنظور الداروني فإن نظرية سبنسر تعد نظرية تطورية/ عضوية تشبه نظرية كونت في تقسيمها للمجتمع إلى الاستاتيكا الاجتماعية والديناميكا الاجتماعية (24) وعلى الرغم من أنه تأثر بكونت وبمدرسته الفكرية إلا أنه من الخطأ القول بأنه كان تابعاً له في جميع أعماله، فالمعروف أن سبنسر كان قد كتب معظم أعماله في وقت معاصر تقريباً للزمن الذي عاش فيه كونت. وأحسن من يوضح الاختلاف بين الاثنين سبنسر نفسه حيث كتب: إن هدف كونت المعلن هو إعطاء تصور مترابط لتطور المفاهيم الإنسانية. أما هدفي أنا فهو إعطاء تصور مترابط لتطور العالم الخارجي. وإذا كان كونت يقترح وصف الترابط الضروري والواقعي للأفكار، فإنني أصف الترابط الضروري والواقعي للأشياء. وبينما يعلن كونت عن تفسيره لأصل معارفنا الطبيعية فإن هدفي هو تفسير أصل الظواهر التي تُكوّن الطبيعة. لذلك فأنا موضوعي بينما كونت ذاتي. (25)

يعد سبنسر من أشهر علماء الاجتماع الإنجليز خلال القرن التاسع عشر وكان والده معلماً بالمرحلة الابتدائية. وعلى الرغم من ذلك لم يلتحق سبنسر بأية مدرسة رسمية، بل قام والده بتعليمه تعليماً منزلياً كما سبق وأن أشرنا، وذلك بسبب نحول جسمه وكثرة مرضه، وقد شغف سبنسر منذ حداثته بالعلوم الطبيعية، وبالمناقشات العلمية والسياسية والدينية، وقد عمل عام 1848 محرراً لمجلة الإيكونوميست The Economist،

وقد أعد مؤلفه عن الاستاتيكا الاجتماعية عام 1850 خلال فترة عمله في هذه المجلة. أما مؤلفه مبادئ علم الاجتماع Principles of Sociology فقد نشر عام 1874 وقد أشار بعض الباحثين إلى أن هذا المؤلف بقوله "إننا لا نستطيع بأي حال أن نعتبر مؤلف سبنسر: مبادئ علم الاجتماع مؤلفاً يتسم بالجدية والأصالة التامة، خاصة بعد قراءة المقالات الأولى التي كتبها أوجست كونت. إذ نستطيع أن نعثر في هذه المقالات على الأفكار الأساسية، بل وعلى المنهج الذي استعان به سبنسر، فقد حدد كونت الخطوط العريضة التي انطلق منها سبنسر."(26) ومن أهم مؤلفات سبنسر بالإضافة إلى ذلك، مبادئ علم النفس 1855، ثم كتابه محاولات الذي يقع في ثلاثة مجلدات جمع فيها مجموعة مقالات نشرها في مجلات علمية مختلفة حاول أن يجمع فيها كل المعارف في حين أن المقالات كانت قصيرة. وجاءت الكتب الكبرى في عشرة مجلدات تتابعت من سنة 1860 إلى 1893 وهي: المبادئ الأولى First Principles في عام 1862، ومبادئ البيولوجيا في مجلدين، ومبادئ علم النفس في مجلدين، ومبادئ علم الاجتماع الذي سبقت الإشارة إليه في ثلاثة مجلدات، ومبادئ الأخلاق في مجلدين، وله كتاب في التربية صدر عام 1861 وآخر في تصنيف العلوم صدر عام 1864، وكتاب الإنسان أو المواطن في مواجهة الدولة The Man Versus the State سنة 1884. كما قام بتأليف كتاب كترجمة لسيرة حياته الذاتية، وقد أنجز سبنسر هذا الكم الهائل من الأعمال العلمية الضخمة على الرغم من اعتلال صحته من جهة ونقص ذات اليد من جهة أخرى.

خرج سبنسر من دراسته لعلم الأجنة بأن التطور هو الانتقال من المتجانس إلى غير المتجانس. وأول عرض قام به لفلسفة التطور ظهر في مقال عنوانه: التقدم، قانونه وعلته نشر عام 1857 وهو الذي ذكره داروين في مقدمة كتابه أصل الأنواع مبيناً أن سبنسر كان من الذين سبقوه إلى نظريته التطورية (27).

كان سبنسر يدرك ضرورة تأسيس علم الاجتماع وكان يعترف على الدوام أنه أخذ تسمية علم الاجتماع عن أوجست كونت لكنه كان يتساءل لماذا يمكن إقامة علم

للمجتمع؟ ويجيب على هذا التساؤل بأن "هناك نظام للتعايش والتقدم في المجتمع. وإذا كان هناك نظام فإن الظواهر المطابقة قد تشكل موضوعاً لعلم يمكن - على حد قوله - أن يُرد إلى الشكل الاستنباطي، أي موضوعاً لعلم نظري. وقد أضاف إلى ذلك أن موضوع علم الاجتماع خاص وفريد جداً، طالما أن العملية الاجتماعية منفردة. فعلم الاجتماع عليه إذن أن يفسر الحالة الراهنة للمجتمع بالتركيز على مراحل التطور الرئيسية وتطبيق قوانين التطور عليها. وقد كان يأمل في أن يفسر الحاضر المعروف بواسطة الماضي الظني غير المعروف. (28)

كان سبنسر يؤمن بالتطور الكوني، وبأن التطور العضوي والتطور الاجتماعي، أو ما فوق العضوي Super Organic - كما يسميه - ليس إلا جزأين من عملية التطور العام التي يخضع لها الكون بأسره. وكتب سبنسر نظريته عن التطور العضوي قبل إن تظهر مؤلفات داروين. ويرى أن الفرق بين نظامين اجتماعيين أحدهما مازال في حلقة متأخرة من التطور، والآخر في مرحلة متقدمة، هو أن الأخير يتضمن بناء أكثر تركيبا من حيث أجزاؤه، كما أن الوظائف الاجتماعية فيه تسير وفق نظام أشد تعقيداً وأكثر تركيباً.

من أهم أهداف سبنسر العلمية التي كان اهتمامه الأول منصباً عليها هي: تتبع عمليات التطور الاجتماعي من خلال المجتمع سواء أكان التطور من الناحية التاريخية أو الاجتماعية وذلك بهدف تفسير التجانس الاجتماعي، وبالنظر إلى خلفيته الدارونية الراسخة، فإن تطبيقه لمبادئ التطور البيولوجي على المجتمع لا تعتبر مفاجأة غريبة، ولهذا فإنه قام بتطبيق المماثلة العضوية على المجتمع بشكل مباشر وكل ذلك كان في نطاق العمليات التطورية. إن فهم مثل هذا التطور العضوي أصبح على علاقة كبيرة بالتحكم الكبير في المجتمع بطريقة نتج عنها ارتباط وثيق بين حاجات الأفراد وحاجات المجتمع. وكما هو الحال مع كونت فنحن بصدد تقديم نموذجاً عضوياً تطورياً عملياً عن المجتمع مبني على أساس الحاجات الاجتماعية العليا أو الأساسية. (29)

كان سبنسر "يهدف من وراء أعماله إلى فهم طبيعة الأشياء، ومكان الإنسان في

الطبيعة، ولذلك كله يقال إن سبنسر استطاع أن يجمع ويؤلف بين التيارات الرئيسية للفكر الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر. غير أن ذلك لا يعنى أن سبنسر قد سار على نفس الطريق الذي حدد معالمه أوجست كونت. ولكن الأمر على عكس ذلك تماماً، فقد نشر سبنسر أول مؤلف له في علم الاجتماع بعنوان الاستاتيكا الاجتماعية في وقت سابق على معرفته الكاملة بأعمال كونت، ولذلك يقال إن التشابه بين الاثنين يرجع أساساً إلى الصدفة المحضة" (30) ويذهب سبنسر إلى أن موضوع المعرفة ينحصر في جملة العلوم الواقعية هي:

1- العلوم المجردة أو علوم الصور الجوفاء وهي المنطق والرياضيات بفروعها المختلفة.
2- العلوم المجردة المشخصة أو علوم الظواهر وهي الميكانيكا وعلم الطبيعة والكيمياء.
3- العلوم المجردة أو علوم الموجودات، وهي علم الفلك، وعلم طبقات الأرض، وعلم الحياة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع.

كان سبنسر يرى أن للدين مكاناً إلى جانب العلم. وإنما كان التعارض بينهما لأن الدين على اختلاف صوره، يدعي تحديد ماهية العلة المطلقة ويريد أن يحل مسائل لا تحل إلا بالعلم، وأن العلم يريد أن ينفذ إلى ميدان هو ميدان خاص بالدين. ويرى أن للعاطفة الدينية أصلاً عميقاً في الإنسان إنها عاطفة الاحترام بل الحب الذي تحسه النفس نحو ما يعلو عليها، ذلك هو الدين الذي يعترف به العلم لا دين الإنسانية الذي ابتدعه أوجست كونت وزعم له صفة الواقعية وأقامه على عبادة الطبيعة المنظورة وعظماء الرجال. (31) أما أهم افتراضاته العلمية فيمكن إيجازها فيما يلي:

1- باعتباره تعلم وعاش في ظل التقاليد الفكتورية فإن سبنسر رأى الكون في حالة مستمرة من التطور والتفكك أو الانحلال. لهذا فإنه رأى أن مهمة علم الاجتماع هي تتبع تطور هاتين العمليتين في المجتمع.
2- اعتقد سبنسر أن التطور عملية كونية عامة شاملة أي أنه يمكن تطبيق القانون الطبيعي تطبيقاً عاماً على كل ما يوجد في الكون من ظواهر سواء أكانت هذه الظواهر

طبيعية أو اجتماعية، وهو ما يشير إلى إيمانه بمبدأ التطور الطبيعي العام أو الشامل.

3- بالرجوع إلى مجال علم الاجتماع فإن سبنسر رأى المجتمع على أساس أنه كل عضوي متطور، وإن هذا الكل يمثل أكثر من مجموع أجزائه ومغاير لها وهو ليس عرضة لتحليل كلي أو تشريح شامل. والعلاقات بين أجزاء الكل مشابهة تماماً للعلاقات البيولوجية الوظيفية الكفيلة باستمرار المحافظة على الحياة في الكائنات الحية. وبالنظر إلى هذا الأسلوب في تفسير المجتمع البشري يمكن اعتبار سبنسر من الرواد الأوائل للنزعة البنائية الوظيفية المعاصرة.

4- ومثلما فعل كونت فإن سبنسر قسم المجتمع إلى جزأين رئيسين هما: الاستاتيكا الاجتماعية، والديناميكا الاجتماعية، فالاستاتيكا الاجتماعية تمثل البناءات المؤسسية أو التنظيمية للمجتمع والأنساق الاجتماعية، بينما الديناميكا تمثل عنده التطور المستمر الذي يحدث لبناء المجتمع.

5- بالنسبة لسبنسر فإن نظم المجتمع الرئيسية أو الكبرى تتكون من العائلة، والنظم التي تهتم بالطقوس الشعائرية، والنظم السياسية والدينية والمهنية أو تقسيم العمل The division of labor والصناعية. ويعتقد سبنسر أن هذا البناء الاجتماعي يتطور من النسق البدائي الذي يسود فيه نظام تعدد الزوجات، والنظام العسكري، والقبلي، ونظام الرق إلى مجتمع مبني على أساس نظام الزواج الأحادي والدولة، والمهن التخصصية، ونظام العمل التعاقدي القائم على الأجرة.

6- زيادة على ذلك فإن سبنسر قسم المجتمع إلى نسقين أساسيين هما: النسق الداخلي الخاص بالمحافظة على توزيع الوظائف، والنسق الخارجي الذي يهتم بالتأكيد على الضبط الاجتماعي أو التنظيم الاجتماعي.. وهذه الأنساق الفرعية تعمل للمحافظة على المجتمع، كنظام عضوي متكامل خلال تطوره المستمر.

7- بالرجوع إلى الديناميكا الاجتماعية حدد سبنسر عدداً من العمليات المتميزة أوجزها فيما يلي:

أ- استمرارية الحركة.

ب- تحول المجتمع من المتجانس إلى اللامتجانس أي التحول من الشكل البدائي إلى المجتمع الصناعي الحديث.

ج- تكدس أو تراكم العناصر فوق العضوية Super organicكلما تطور المجتمع (العناصر فوق العضوية هي العناصر الاجتماعية والثقافية)

د- استمرار حركة المجتمع نحو تحقيق التوازن وهي حالة تؤدي إلى انهيار النظم السائدة في المجتمع، بحيث ينتج عن هذا الانهيار تغير، وذلك عندما يكون التوازن صارماً جداً ويتجاوز الحد المقبول. (32)

الخلاصة أن سبنسر أدرك أن المجتمع كل عضوي متطور خاضع لقوانين الكون التطورية. هذا النظام العضوي يتكون من نسقين فرعيين أحدهما داخلي والآخر خارجي، وهو يتطور باستمرار نحو التوازن وأحياناً بعيداً عن المستويات الجديدة من التوازن، كما أنه يتطور من الشكل البدائي إلى الحديث الصناعي. إذن المهمة الأساسية لعلم الاجتماع هي فهم هذه العمليات بشكل متعمق وذلك من أجل الحفاظ على حد أعلى أو أقصى درجة من التوافق أو التجانس الاجتماعي.

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن المنهج العلمي Methodology بقولنا:إذا طرحنا على سبنسر سؤالاً يقول: ما هي المناهج التي ينبغي على علماء الاجتماع أن يستخدموها؟ فإنه سيجيب عن هذا السؤال بأنه "يجب أن نعرف - عن طريق البحث والتنقيب - علاقة التعايش والسياق الذي تتابع فيه الظواهر الاجتماعية، كما يجب أن نقارن بين أشكال مختلفة من المجتمعات وبين مجتمعات تنتمي إلى مراحل مختلفة من التطور، كما يجب أن نحدد مدى ودرجة ارتباط السمات بعضها ببعض كالحجم، والبناء، والوظيفية" (33). والخلاصة يمكننا أن نقول إن المناهج العلمية لسبنسر مطابقة لتلك التي اقترحها كونت وهي مؤلفة من الملاحظة التجريبية (الإمبيريقية) Empirical Observation، والمنهج المقارن Comparative method، والاستدلال التاريخي Historical deduction، والاستقراء

Induction واستخدم سبنسر هذه المناهج أو الأدوات البحثية لتتبع عمليات التطور الاجتماعي. (34)

يتمثل نمط المجتمع Typology عند سبنسر في شكلين هما: الاستاتيكا الاجتماعية، والديناميكا الاجتماعية. وكما سبق وأن أشرنا قدم كذلك نموذجاً مثالياً مفصلاً لنوعين من المجتمعات هما: المجتمع العسكري والمجتمع الصناعي. حيث يمثل الأول مجتمعاً مبنياً على إخضاع الأفراد بالقوة أو استعبادهم، والصرامة العسكرية القاسية، والنظام أو القانون، مع التوزيع العشوائي للمكافآت والأجور أي عدم عدالة توزيع الأجور والمكافآت، والحكومة تكون مركزية بشكل كبير. ومن جهة أخرى فإن المجتمع الصناعي يقدم للأفراد مكانة رفيعة وتنخفض فيه درجة الصرامة والتزمت، والنظم فيه غير مركزية، وتوزيع المكافآت يتم عن طريق التعاقد. هذان النمطان يصوران مراحل التطور من البدائية إلى التحديث أو من المجتمع البدائي إلى المجتمع الحديث، وقد تردد صدى هذا النمط في أعمال كل من دوركايم وتونيز كما سنرى فيما بعد.

ثالثاً: إميل دوركايم 1858- 1917م

ولد إميل دوركايم Emile Durkheim في 15 أبريل 1858 في مدينة إبينال Epinal بمقاطعة اللورين في الجنوب الشرقي من فرنسا لعائلة يهودية وكان والده ينحدر من سلسلة طويلة من أحبار اليهود، وكان من المفروض أن يتبع دوركايم تقاليد العائلة ويصبح حبراً مثل أبيه وأجداده، لذلك قرر هو نفسه مبكراً أن يصبح حبراً فدرس العبرية، وكتاب العهد القديم والتلمود وكان في نفس الوقت يتلقى الدروس بشكل منتظم في المدارس العلمانية. (35).

الواقع إنه لا يعرف إلا القليل عن خلفية دوركايم الاجتماعية وعن عائلته، لكن المعلومات المتوفرة عن المجتمع اليهودي في شرق فرنسا حيث ولد دوركايم وتربى، تشير إلى أن اليهود الذين عاشوا في ذلك الجزء من فرنسا ينتمون إلى فرع من اليهودية يعرف باسم

الأشكينازي Ashkenazi أو اليهود الغربيين وهم يختلفون تماماً عن اليهود السيفارديم Sephardim الذين يعيشون في إسبانيا والبرتغال الذين فروا من الاضطهاد الديني في القرن السادس عشر واستقروا في الجنوب الغربي من فرنسا خاصة في بوردو Bordeaux وبيون Bayonne. الأشكينازي الذين يعيشون في الألزاس واللورين جاءوا إلى هذه المناطق من ألمانيا منذ القرن السادس عشر وهم يتكلمون اللهجة الألمانية البيدية(*) والعبرية وهم تقريباً جاهلون تماماً باللغة الفرنسية حتى في عصر الثورة الفرنسية. وبالمقابل فإن السيفارديم الذين يتكلمون بالأساس اللغة الإسبانية والبرتغالية صاروا يتحدثون الفرنسية بطلاقة.

ما كان من الكتابات اليهودية باللغة الفرنسية في مواضيع عامة قبل الثورة الفرنسية جاء بشكل كامل من السيفارديم فضلاً عن ذلك فإن كلا المجتمعين له سلطة دينية محلية مختلفة عن الآخر، فالسيفارديم لم يكتسبوا على الإطلاق سلطة قضائية مدنية على الأعضاء المنتمين لمذهبهم مقصرين جهودهم على الأمور الدينية والخيرية، بينما الأشكينازي من جهة أخرى لديهم محاكمهم القانونية وبشكل عام يحاولون تنظيم شؤونهم الحياتية مع تدخل محدود من قبل السلطات الملكية.

وحتى قبل قوانين التحرير التي أصدرتها الثورة والتي أعطت لليهود الفرنسيين حق المواطنة، كان السيفارديم قد تحركوا بقدر كبير نحو التماثل مع بقية المجتمع الفرنسي بينما ظل المجتمع الأشكينازي منعزلاً ومنغلقاً على نفسه بشكل كلي بعيداً عن المجتمع الفرنسي الكبير. وعلى الرغم من أن الثورة الفرنسية وضعت نهاية للحكم الذاتي لليهود فإن الفروق التي كانت موجودة بين مجتمع اليهود السيفارديم ومجتمع اليهود الأشكينازي ظلت موجودة طوال القرن التاسع عشر.

(*) البيدية: لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود في روسيا وبلدان أوروبا الوسطى وهي تكتب بأحرف عبرية.

كان يهود شرق فرنسا قد تحرروا لأكثر من جيلين قبل الوقت الذي صار فيه دوركايم شاباً لكنهم مازالوا محتفظين بهويتهم الثقافية التي كانت قد طرحت جانباً من جانب إخوانهم السيفارديم. وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات اليهودية التي كانت تعيش في شرق فرنسا أظهرت بعض علامات التفكك في منتصف القرن التاسع عشر فإنه مازالت لديهم الكثير من خصائص يهود وسط أوروبا حيث الأمور الداخلية تخضع لحكم شيوخ من كبار السن يتم تعيينهم أو يخضعون لحكم الأحبار أي أنه لم يتم التخلي عن التضامن الآلي بصورة كاملة لصالح التضامن العضوي السائد في المجتمع العلماني المحيط بهم.

يقال في المجتمعات الحديثة إن الحب الرومانسي يلعب دوراً مهماً في تحرير الأبناء من الارتباط العاطفي بأمهاتهم وذلك بتزويدهم بموضوع آخر للارتباط العاطفي. نفس الآلية يبدو أنها كانت قد حدثت أثناء تطور دوركايم. فارتباطه المكثف بالمجتمع العلماني الفرنسي وبالأمة الفرنسية سمحت له بقطع روابطه الوثيقة بالمجتمع الديني الذي كان مرتبطاً به في سنوات تكوينه الأولى. فالجمهورية الفرنسية والمجتمع العلماني صارا بالنسبة إليه الموضوع الذي يدور حوله حبه. وحل محل مجتمعه الديني في موطنه الأصلي. وعندما تحرك من التضامن الآلي للمجتمع اليهودي في مدينة إبينال Epinal إلى عالم التضامن العضوي في باريس مر بتجربة التغير التي كانت محصلة للانعتاق الحقيقي من قيود المجتمع التقليدي. وبينما لم يستطع الكثير من المنظرين الألمان أبداً أن يعقدوا صلحاً مع المجتمع الحديث واستمروا في التطلع إلى الوراء إلى المجتمع الريفي القديم كان دوركايم قد تحرر تماماً من مثل تلك الأفكار التقليدية. (36) وهو ما يعد نقلة نوعية في حياة دور كايم الفكرية وذلك بتخلصه من سيطرة وتأثير المجتمع الديني الذي عاشت في ظل تعاليمه أسرة لسنوات عدة وبدلا من ذلك اعتنق مبادئ المجتمع العلماني الذي تدعم فكره الجديد في ظل مرحلة الصناعة والثورة الفرنسية.

كان دوركايم مثقفاً في القانون والفلسفة الوضعية لهذا قام بتدريس الفلسفة الوضعية في الجامعة، وقدم دروسه الأولى في علم الاجتماع في فرنسا في سنة 1896م. وبما

أنه درس في ظل تقاليد فلسفة التنوير فقد تفاعل مع الثورة السياسية في بلاده والتفكك الاجتماعي الذي حدث في أيامه.

كان والد دوركايم من المثقفين الفرنسيين الذي دفع ابنه إلى الدراسة المثمرة والتحصيل العلمي فأتم دراسته الثانوية في مسقط رأسه في مدرسة لويس العظيم الثانوية، ثم تقدم لمسابقة مدرسة المعلمين العليا، وعندما صار طالباً في هذه المدرسة عام 1879 بدأ يشعر بخيبة أمل لأنه لم يجد فيها نوع الثقافة التي كان ينشدها، فأخذ يبحث عن غذاء فكري آخر ليشبع نهمه إلى العلم. (37) ورغم ذلك استمر في الدراسة في تلك المدرسة إلى أن تخرج فيها ويبدو أن لثقافة والده أي كون والده من المثقفين في عصره دوراً كبيراً في نضوجه العلمي المبكر.

وبعد استكمال دراسته بمدرسة المعلمين العليا قام بتدريس الفلسفة في مدارس كثيرة بباريس مع اهتمامه الشديد بالدراسات الاجتماعية، وعين بعد ذلك أستاذاً للتربية في جامعة بوردو Bordeaux عام 1887حيث لم يكن علم الاجتماع حينها يدرس في الجامعات الفرنسية، ثم أنشئ كرسي للعلوم الاجتماعية خصيصاً لدوركايم في تلك الجامعة وصار دوركايم يوزع محاضراته بين التربية والاجتماع ولم ينقطع طوال حياته عن تدريس التربية بالرغم من اتجاهه نحو تأسيس المدرسة الاجتماعية وكانت مكانته في علم الاجتماع قد توطدت بعد أن قدم رسالة الدكتوراه لجامعة السوربون عام 1893 وكانت بعنوان تقسيم العمل في المجتمع. ويرى كثيرون أن دوركايم يعتبر أحد دعائم الحركة العلمية بشكل عام خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ويعتبرونه منشئ علم الاجتماع الحديث، وزعيم المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع. (38) وهو أمر أجمع عليه الكثير من المفكرين الاجتماعيين المهتمين بفكر دوركايم في الوقت الحاضر.

بدأ دوركايم جهوده النظرية بالبحث في مبلغ توفر شروط العلم المستقل في علم الاجتماع من حيث الموضوع والمنهج وتقنين القوانين واهتم بالدراسات الإمبيريقية، وعلم الاجتماع في نظره ليس علماً نظرياً فلسفياً، ولكنه علم يدرس الوقائع الاجتماعية لكي

يستخرج القوانين التي تخضع لها ومن ثم نستطيع على أساس هذه القوانين أن ندخل الإصلاحات التي نراها. (39) وقد تجنب دوركايم الكثير من المشكلات التي أثارها علماء الاجتماع التطوريون في القرن التاسع عشر، وجعل اهتمامه منصباً على تحديد موضوع علم الاجتماع وتميزه عن علم النفس، وتحريره من الفلسفة الاجتماعية، وحاول جاهداً أن يحتفظ لعلم الاجتماع بكيانه الخاص كعلم وضعي يعتبر ضرورياً وكافياً لتفسير الواقع الاجتماعي تفسيراً شاملاً، ودعم دوركايم موقفه هذا بمجموعة من الدراسات المتخصصة التي تناولت منهج علم الاجتماع، وتقسيم العمل، والانتحار، والديني (40) وغيرها من المواضيع التي أرست قواعد علم الاجتماع الحديث وصبغته بالصبغة العلمية التي يحظى بها في الوقت الحاضر وجعلته يتمتع بالشروط التي يحب أن تتوفر في أي فرع من فروع العلم في الوقت الحاضر.

حياته الأكاديمية:

خلال الفترة التي عاش فيها جيله استقر دوركايم على النهج الذي سوف يسلكه في حياته فقد قرر أن لا يكون ممتهناً تقليدياً للفلسفة على الأقل ليس كما كانت تدرس في ذلك الوقت فقد بدت له أنها بعيدة من قضايا عصره وكانت مكرسة للألغاز والمجادلات العبثية التافهة. كان يرغب في أن يكرس حياته لفرع من فروع المعرفة يكون له إسهام في توضيح الأسئلة الأخلاقية الحساسة والمثيرة بالنسبة لعصره، إضافة إلى الإرشاد العملي في شؤون المجتمع المعاصر. وكان دوركايم أكثر جدية في الإسهام في التماسك الأخلاقي والسياسي للجمهورية الفرنسية الثالثة التي كانت في تلك الأيام ما تزال هشة وبناء سياسياً يعد للمعركة. لكن مثل هذا الإرشاد الأخلاقي يمكن أن يقوم به الرجال الذين لديهم إعداد علمي رصين. ولهذا فقد قرر أن يكرس حياته للدراسة العلمية للمجتمع. وما اعتبره ملحاً هو بناء نظام سوسيولوجي علمي ليس كغاية في حد ذاته لكن كغاية للوجهة الأخلاقية للمجتمع. ولم يتحول دوركايم عن هذه الغاية مطلقاً.

وبما أن علم الاجتماع لم يكن على أية حال يدرس في المدارس الثانوية أو الجامعة، لهذا باشر دوركايم عمله كأستاذ للفلسفة خلال الفترة من 1882 إلى عام 1887 حيث درس في عدد من المدارس الريفية المحيطة بباريس باستثناء سنة واحدة أخذ فيها إجازة تفرغ علمي للقيام بالمزيد من الدراسات الموسعة في كل من باريس وألمانيا، وكانت فترة بقاء دوركايم في ألمانيا مخصصة بشكل أساسي لدراسة طرق التدريس والبحث في الفلسفة الأخلاقية والعلوم الاجتماعية. وقد قضى معظم وقته في برلين وليبزق Leipzig. ففي المدينة الأخيرة كان هناك المعمل النفسي الشهير لفلهلم فوندت Wilhelm Wundt الذي تأثر به كثيراً. وتعرض له في تقاريره اللاحقة عن خبرته في ألمانيا، كان دوركايم متحمساً حول الدقة والموضوعية العلمية في البحوث التي شاهدها في معمل فوندت وفي غيره من الأماكن. وفي نفس الوقت شدد على أن فرنسا يجب أن تنافس ألمانيا في جعل تدريس الفلسفة يخدم الأهداف الاجتماعية والوطنية. كان لديه قدر كبير من الحماس بالموافقة على الجهود المختلفة التي بذلها العلماء الاجتماعيون والفلاسفة الألمان الذين أكدوا على أن الجذور الاجتماعية للأمة تعد واجباً أخلاقياً وتهدف إلى جعل الأخلاق مادة علمية مستقلة لا يعتريها الشك(41).

بنشره لتقريره عن الحياة الأكاديمية الألمانية، بدأ دوركايم منذ ذلك الحين يحظى بنوع من الشهرة كشخصية واعدة في مجال العلوم الاجتماعية والفلسفة الاجتماعية وهو في الحادية والعشرين من عمره. إضافة إلى دراساته الألمانية كان دوركايم قد نشر عدداً من المقالات النقدية، بما فيها نقد لأعمال علماء اجتماع اللغة الألمان جومبلو فايز Gumplo wiez وشافل Schaeffle الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي فويي Fouille. ولذلك لم يكن من المستغرب أن يعين أستاذ في جامعة بوردو في سنة 1887. وما كان مستغرب على أية حال هو أنه بناء على إلحاح من لوي ليارد Louis Liard مدير التعليم العالي في وزارة التعليم العام تقرر أن تنشأ خصيصاً لدوركايم مادة دراسية في علم الاجتماع في كلية الآداب في الجامعة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تفتح فيها جامعة فرنسية أبوابها لهذا الموضوع

الذي كان محرماً في الماضي. وكان منذ عقد واحد مضى قد أجبر ممتحنون غاضبون في كلية الآداب عالم الاجتماع ألفرد أسبيناس Alfred Espinas الذي صار زميلا لدوركايم فيما بعد في بوردو على أن يحذف مقدمة أطروحته لأنه رفض أن يحذف اسم أوجست كونت من صفحاتها (42). وهذا يعد من الإنجازات المهمة التي حققها دوركايم في رحلته في مجال ترسيخ أركان علم الاجتماع بالشكل الذي هو عليه الآن.

انضم دوركايم في بوردو إلى قسم الفلسفة حيث كلف بتدريس مواد في علم الاجتماع، وعلم أصول التدريس (البيداغوجيا). شعر بعض المعلقين أن تدريس علم أصول التدريس كان نوعاً من التحقير لدوركايم أجبر على القبول به. لكن هذا القول لا يمثل الحقيقة. فقد استمر دوركايم في التدريس في مجال التربية طوال حياته الأكاديمية حتى عندما كانت له الحرية في تحديد المواضيع التي يرغب في تدريسها. لهذا ظل حقل التربية بالنسبة لدوركايم حقل التطبيق المفضل حيث أمكن من خلاله لعلم الاجتماع أن يقدم أفضل مساهماته لتجديد المجتمع وهي الإسهامات التي كان يهدف إليها بحماس شديد.

تزوج دوركايم من لويز دريفوسLouise Dreyfus في نفس فترة تعيينه الأكاديمية في بوردو. وكان ثمرة ذلك الزواج طفلان ماري Marie وأندري Andre لكن لا يعرف إلا القليل عن عائلته كما سبق وأن أشرنا. حيث يبدو أن زوجته كانت قد كرست حياتها بالكامل لعمله. فقد اتبعت نمط الحياة التقليدية للأسرة اليهودية فقد اهتمت بشؤون الأسرة ومساعدته في القيام بأعمال الطباعة والسكرتارية وما شابه ذلك. وذلك حتى يستطيع الزوج العالم أن يكرس كل جهوده لمتابعة إنجازاته العلمية. (43) وهو ما كان من الأمور المعتادة والسائدة عند الكثير من الأسر اليهودية في ذلك الوقت.

كانت سنوات بوردو سنوات الإنتاج المكثف بالنسبة لدوركايم. حيث استمر في نشر عدد من المقالات النقدية الأساسية من بينها ما هو حول أعمال تونيز الجماعة والمجتمع، كما نشرت افتتاحيات بعض المواضيع التي يقوم بتدريسها على هيئة مقالات. في سنة 1893 خصص أطروحة الدكتوراه باللغة الفرنسية لتقسيم العمل وخصص أطروحته باللاتينية

لمنتسكيو. ونشر كتاب قواعد المنهج العلمي السوسيولوجي، وبعد سنتين فيما بعد نشر الكتاب الذي تناول دراسة الانتحار وبهذه الأعمال الأساسية الثلاث انتقل دوركايم إلى مقدمة العالم الأكاديمي. وقد أشار في مقدمة كتاب الانتحار إلى أن علم الاجتماع قد بدأ يتخذ طابعه الخاص.

بعد أن أسس علم الاجتماع كحقل للاهتمام بالنسبة للقاعدة العريضة من الجمهور شعر دوركايم على الفور بالحاجة إلى أن يدعم هذه المكاسب بأن يؤسس مجلة علمية تخصص بالكامل لحقل المعرفة الجديد. النشرة السنوية لعلم الاجتماع أو الحولية السوسيولوجيا L'Annee Sociologique التي أسسها عام 1898 أصبحت على الفور بؤرة اهتمام مجموعة من العلماء الشبان الموهوبين، كلهم متحدون في الإخلاص للمدخل السوسيولوجي الدوركايمي على الرغم من اختلاف تخصصاتهم العلمية الدقيقة. وكانت الحولية الاجتماعية تحلل في كل عام آداب علم الاجتماع الحالي في فرنسا وفي غيرها من البلدان.

هذه التقارير المهمة جعلت الجمهور الفرنسي يحصل لأول مرة على وجهة عامة على عمق وعرض المشرع السوسيولوجي. كما احتوت الحولية الاجتماعية كذلك على مشاركات أساسية مستقلة بقلم دوركايم ومن المتعاونين معه. هذه الانتقادات والأوراق البحثية تؤكد على الحاجة إلى بناء جسور من المفاهيم بين الحقل المتخصص للعلوم الاجتماعية والحاجة المتلازمة للواقعية، والتحديد والمنهج البحثي. كانت الحولية الاجتماعية ناجحة من البداية وساعدت استمرارية التعاون بين المساهمين الأساسيين فيها، وعلى تلاحمهم مع بعض في مدرسة متطلعة بلهفة للدفاع عن المدخل الدوركايمي لعلم الاجتماع ضد كل من يعارضه.

في نفس السنة التي ولدت فيها حولية علم الاجتماع نشر دوركايم ورقته الشهيرة التمثيل الفردي والجمعي التي اعتبرت كبيان لاستقلال علم الاجتماع بالنسبة للمدرسة الدوركايمية. ونشرت سلسلة أخرى من الأوراق البحثية السنوية بعضها نشر في الحولية الاجتماعية وبعضها نشر في غيرها تلاحقت هذه الأوراق في العقد والنصف الذي تلا ذلك. هذه الأوراق ضمت "تحديد الوقائع الأخلاقية" "أحكام القيمة وأحكام الواقع" التصنيف البدائي

بالاشتراك مع مارسيل موس و "تعريف الظواهر الدينية". (44)

وبعد تسع سنوات من انضمامه إلى جامعة بوردو رقي دوركايم إلى درجة أستاذ في العلوم الاجتماعية وهو أول منصب من نوعه في فرنسا. واحتل هذا المقعد لمدة ست سنوات. وفي سنة 1902 وبعد أن صار شخصية مرموقة استدعي إلى السوربون أولاً لتدريس مادة دراسية وفي سنة 1906 كأستاذ لعلم التربية. في سنة 1913 غير اسم كرسي دوركايم بواسطة قرار وزاري إلى " علم التربية والاجتماع " وعليه فإنه بعد ثلاثة أرباع القرن (75 عاماً) حقق أخيراً وليد أفكار أوجست كونت الدخول إلى جامعة باريس.

استمر دوركايم خلال سنواته الباريسية في تحرير حولية علم الاجتماع وقدم عدداً كبيراً من المواضيع الدراسية في الأخلاق والتربية والدين وفلسفة الذرائع وتعاليم سان سيمون وكونت. ويبدو أنه استطاع أن يكون محاضراً بارعاً وظهر ذلك في السيطرة التامة على مستمعيه فقد كتب أحد تلاميذه "إن الذين يرغبون في الهروب من تأثيره يجب أن يهربوا من المواضيع التي يدرسها فهو يفرض سحره طوعاً أو كرهاً على الذين يحضرونها. خلال السنوات الأخيرة من إقامته في بوردو صار دوركايم مهتما بدراسة ظاهرة الأديان. متأثراً جزئياً على الأقل بربنسون سميث وبالمدرسة الأنثروبولوجية الإنجليزية وتحول خلال هذه الفترة إلى دراسة الأديان البدائية. ونشر عدة أوراق بحثية في هذا الحقل وقاد هذا التوجه الدراسي دوركايم في عام 1912إلى إنجازه الأساسي الأخير " الأشكال الأولية للحياة الدينية" (45).

كان دوركايم مهتماً بفكرة الإرادة العامة General Will والتضامن الاجتماعي Social Solidarity. ونتيجة لذلك فإنه تصور المجتمع في إطار المعايير أو أشكال التكامل الاجتماعي أي تصور المجتمع حسب الكيفية التي يرتبط عن طريقها الفرد اجتماعياً بالبناء الاجتماعي من خلال الحقائق الاجتماعية Social Facts. وقد كانت اهتماماته الأساسية في هذا المجال منصبة على نوع التضامن الاجتماعي الذي يميز عناصر المجتمع (46)، حيث قسم المجتمعات إلى نوعين نوع يسود فيه التضامن الآلي وهو الذي يمثل المجتمع الريفي والنوع الثاني الذي

يسود فيه التضامن العضوي وهو المجتمع الحضري.

يمثل دوركايم عدداً من الوجوه التي تستخلص منها جهود المفسرين أنواعاً من الزوايا الفكرية التي لا يسهل التنبؤ بها، فلقد صنف دوركايم على أنه كل شيء ابتداء من كونه مادياً إلى كونه صوفياً غيبياً. وقد شكل دوركايم امتداداً لعناصر ومقولات مثالية كثيرة مثلما شكل بالمثل امتداداً لكثير من الأفكار الوضعية. بل إن الوضعية في تفكير دوركايم شكلت حسب وجهة نظر بارسونز الجانب الذي يقف فيه دوركايم موقفاً إيجابياً تطويريا، بأنه حافظ دائماً على مفهوم الاتفاق العام والتماسك وهو تصور اتخذه في الأساس كل من سان سيمون وكونت على حد سواء (47).

كان من المنطقي أن يصنف دوركايم ضمن إطار الوضعية فهو يشكل استمراراً للفكر الوضعي ما دام الهدف الأساسي لهذا الاتجاه الفكري هو تأسيس علم اجتماع وإعماله بفاعلية في صياغة استقرار أو تغير الواقع الاجتماعي. ومن ثم فإننا غالباً ما نجد تصنيف دوركايم في سلة الوضعية غير أنه مع ذلك له رفضه لكثير من قضاياها خاصة تلك التي لها طابع أيديولوجي. (48) وعليه فإنه إلى جانب نقاط الاتفاق مع الوضعية كانت له نقاط خلاف معها. سواء بالنسبة للقضايا التي تتعلق بالمستويات المنهجية أو تلك التي تتعلق بالجوانب العينية للواقع الاجتماعي. وقد طرح العديد من القضايا الخلافية بشأن علاقة دوركايم بالوضعية فمن قائل إن دوركايم بدأ وضعياً صارماً وانتهى نهاية مثالية واضحة. ومن قائل بأن دوركايم كان يمثل موقفا وسطا بين الوضعية والمثالية(*). يتجلى ذلك بأوضح ما يكون من دراسته الشهيرة (الأشكال الرئيسية للحياة الدينية) (49)، إلا أنه على كل حال صنف من قبل البعض بأن فكره كان امتداداً للفكر الوضعي.

نظر دور كايم إلى المجتمع على أنه نوع من الكائن العضوي وهو لا يشبه غيره. وإنما

(*) المثالية: اتجاه فلسفي يشمل جانباً كبيراً من المذاهب الميتافيزيقية والعقلية التي ترى أن العقل أو الفكر هو الحقيقة النهائية أو أساس التجربة والمعرفة.

ادعى أن المجتمع يوجد على نحو فريد Suigeneris وهذا معناه أن المجتمع يوجد في ذاته ككيان مستقل منفصل. وكان دور كايم أكثر فخراً في إضفائه طابع الشيئية على المجتمع أكثر من كونت وسبنسر وأكثر من أي عالم آخر كان له هذا التأثير. ويتضح إدراكه لهذه الخاصية للمجتمع بشكل جلي في مناقشته لاستراتيجية البحث أو قواعد البحث التي يجب اتباعها في دراسة المجتمع. وفي تحليله الوظيفي للصور الأولية للحياة الدينية. (50)

وبالرجوع إلى تفسيره الوظيفي للصور الأولية للحياة الدينية، نجد دور كايم يذهب إلى أن النشاط الديني يوجد في المجتمع لأن له وظيفة إيجابية: فهو يساعد على الحفاظ على الوحدة الأخلاقية للمجتمع. وقام دور كايم بتحليل النشاط الديني في القبائل البدائية على افتراض أن لكل المجتمعات خصائص أساسية مشتركة وأن فهم الدين في هذا المجتمع البسيط قد يؤدي إلى فهم الخصائص الجوهرية للدين في أي مجتمع فقام دور كايم بدراسة القبائل البدائية في أستراليا واستنتج أن وظيفة الطقوس الدينية هي دعم التضامن بين أعضاء المجتمع إذ تساعد أوجه النشاط الطقوسية هذه على أن توضح لهم أنه برغم معيشتهم المنفصلة والمبعثرة في عشائر متباينة، فهم جميعاً جزء من نفس المجتمع ولهم نفس القواعد الأخلاقية والتوقعات والالتزامات الأساسية التي تمارس عليهم نوعاً من الضغوط والضبط وبداخل القبائل تعتبر العشيرة هي الوحدة الأساسية للحياة الاجتماعية، ولكل عشيرة طوطم Totem والطوطم عادة يتخذ اسم حيوان مثل السحلية Lizard ويشبه شعار النبالة أم أي شعار آخر، بمعنى الرمز الذي يعد مقدساً وينطوي على معانٍ خاصة بالنسبة لأولئك الذين يتخذون منه طوطماً لهم. ويعتبر الطوطم بمثابة وسيلة ملموسة للتعبير عن مشاعر الناس على أن المجتمع الذي يعتبرون أنفسهم أعضاء فيه مجتمع أكبر وأفضل من كل فرد فيه، وهو يعمل على تذكير الأفراد بواجباتهم وصلاتهم بالقبيلة في جملتها وكم يعلقون على هذه الروابط من قيم وأهمية، وتدعم هذه المشاعر بمعرفة القبيلة ككل وذلك على فترات زمنية يتم فيها التجمع على موائد الطعام والرقص والطقوس الدينية، ويتمتع كل فرد بمشاعر المرح وتسمو انفعالاته، الأمر الذي لا

يمكن أن يتحصل عليه إلا في ظل هذا التجمع فقط. وتتأثر مشاعر الفرد بالقوة الخارجية ويشعر معها بالتضامن مع أقرانه. وهكذا فإن الشعار الطوطمي يذكره بالقوة العليا للمجتمع(51).

وتتلخص أهم أعمال دوركايم في: كتاب تقسيم العمل في المجتمع The division of labor in Society الذي صدر عام 1893 ، وكتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع The Rules of Sociological Method الذي صدر عام 1895 ، ودراسة الانتحار Suicide التي صدرت على هيئة كتاب عام 1897، وكتاب الأشكال الأولية للحياة الدينية The Elementary Forms of Religious Life الذي صدر عام 1912.

أما إذا انتقلنا إلى أهدافه العلمية فإننا نجد أن دوركايم أخذ عهداً على نفسه بأن يؤسس علماً اجتماعياً وضعياً يختلف عن فلسفة التاريخ وعن النظر المجرد في ماهية المجتمع وذلك بأن يقصر اهتمامه على استكشاف القوانين التي تربط ظواهر اجتماعية معينة بظواهر أخرى كما ربط مثلاً بين ظاهرة الانتحار أو تقسيم العمل وازدياد حجم السكان وذلك باستخدام المناهج المستخدمة في العلوم الطبيعية التي تعتمد على الملاحظة والاستقراء.

كان اهتمام دوركايم منصباً في المقام الأول على فهم الظواهر الاجتماعية أو المعايير الاجتماعية وتأثيرها على ظهور المشكلات الاجتماعية. وكان ذلك الاهتمام مناقضاً ومعارضاً للتفسيرات النفسية الفردية التي طرحت في ذلك الوقت. وقد نظر دوركايم إلى علم الاجتماع على أساس أنه يركز على الظواهر الاجتماعية والالتزامات الأخلاقية الجمعية التي تجبر الفرد في كثير من الأحيان على أن يسلك سلوكاً معيناً داخل الجماعة (52). فالظاهرة الاجتماعية تفرض نفسها على الأفراد وتجبرهم على الأخذ بها وقد تصل إلى درجة هذا الإكراه في بعض الأحيان وإلى حد إجبار الفرد على اتخاذ مواقف مخالفة لرأيه الخاص، والحياة الاجتماعية عند دوركايم تعني أن يتقبل الفرد هذه الظواهر ويتطبع بها فيتلاءم مع المجتمع ويندمج فيه. لقد تردد دوركايم بين فكرتين إحداهما أن الأفكار والعواطف الاجتماعية

صادرة عن وجدان اجتماعي متميز عن الوجدانيات الفردية وأعلى منها، وهذا القول يجعل للظاهرة الاجتماعية وجوداً ذاتياً، كما يجعل لعلم الاجتماع موضوعاً خاصا به لا يشاركه فيه علم آخر، ولكن هذا القول يشخص كلاً جماعياً، ودوركايم يعترف بأن ليس في المجتمع سوى الأفراد. والفكرة الثانية هي أن الوجدان الاجتماعي ولو أنه جملة الوجدانيات الفردية إلا أنه يؤلف كلاً مغايراً لها كما تؤلف التراكيب الكيميائية شيئاً مغايراً للعناصر: وهذه الفكرة ترجع إلى أن الحياة الاجتماعية تولد في الفرد ظواهر نفسية من نوع خاص، وهذا ينافي تعريف الظاهرة الاجتماعية كما ذكرناه إذ يجعل منها ظاهرة نفسية فيرد علم الاجتماع إلى علم النفس. إلا أن دوركايم يحرص على أصالة علم الاجتماع، ويتمسك بتعريفه للظاهرة الاجتماعية.

إذن بعد أن درس دوركايم الظواهر الاجتماعية ورأى أنه لا يمكن إرجاعها إلى ظواهر فردية لهذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحالة ما هي الظاهرة الاجتماعية؟ لقد وجد دوركايم أن هناك أنماطاً من السلوك وأنواعاً من التفكير والشعور، تتميز بأنها خارجة عن الفرد وهي في نفس الوقت لها قوة قاهرة عليه من أهمها: قواعد الأخلاق، والأسرة، والممارسات الدينية، وقواعد السلوك المهني. مثل هذه الحقائق هي الظواهر الاجتماعية في نظر دوركايم، والظواهر الاجتماعية من ناحية أخرى ليست نتاجاً للإرادة الإنسانية الفردية ولذلك يتعذر دراستها بواسطة البحث النفسي. وهي في الوقت ذاته تشكل الأفعال الإنسانية وتعدلها. ومع ذلك فيبدو أن هناك تداخلاً وتسانداً بين الظواهر الاجتماعية الفردية وظواهر الحياة الجمعية، على الرغم من أنهما ليسا شيئاً واحداً. ويضرب دوركايم مثالاً لذلك بالخلية الحية التي تتكون من عناصر كيمائية ومع ذلك فإن للخلية حياة تختلف عن العناصر المكونة لها. وهذا هو نفسه ما يتحقق تماماً في كل مجتمع، حيث نجد ظواهر اجتماعية لها خصائص متميزة عن خصائص الأفراد أعضاء المجتمع وخارجة عنهم، وهذا ما يجعل تلك الظواهر مختلفة نوعياً عن الظواهر النفسية، وتمثل دراستها مستوىً مختلفاً من التحليل. (53) وتتميز الظاهرة الاجتماعية حسب وجهة نظر دوركايم بما يلي:

1- العمومية: حيث تتسم الظاهرة الاجتماعية بأنها مشتركة بين غالبية أفراد المجتمع.

2- الموضوعية: الظاهرة الاجتماعية توجد بشكل مستقل عن الأفراد الذين أنتجوها ولها قوانينها الخاصة بها التي تخضع لها في تطورها وتغيرها.

3- صفة الإلزام: حيث يجد الفرد نفسه داخل جماعات اجتماعية وعليه أن يسلك وفق ما تقتضيه الظاهرة الاجتماعية وإلا تعرض لضغوط مختلفة من قبل هذه الجماعة ومن قبل المؤسسات الاجتماعية الرسمية كالقانون والدولة. (54)

يمكن تلخيص أهم افتراضاته العلمية فيما يلي:

1- إن افتراض دوركايم الأساسي مؤداه أن المجتمع كضمير جمعي collective consciousness له وجود مستقل كما فعل سبنسر تماماً، حيث رأى أن المجتمع يمثل أكثر من مجموع أجزائه، فالمجتمع إذن كل عضوي جمعي يختلف عن مجموع الأجزاء المكونة له، ويعمل أساساً من خلال ممارسة أساليب التأثير الجبري (القهر) التي يفرضها البناء المعياري للمجتمع.

2- دوركايم يقول إن الوقائع الاجتماعية Social Facts (وهي مثل المعايير الجمعية) وقائع حقيقة، كما تدلل على ذلك القوة القسرية للمعايير، وما يتصل بها من أبنية تنظيمية. وطبقاً لذلك فإن دوركايم كان مهتماً أساساً بواقعية المعايير وقوتها القسرية القاهرة.

3- القوة الاجتماعية تعتمد على العقل الجمعي Collective Thought، أي أنها تعتمد على أشكال مختلفة من الهيمنة والقهر والإلزام للبناء المعياري السائدة عند جماعة معينة، وذلك عندما يمارس الضبط على الجماعة من خلال هذه المعايير. وبشكل عام فإن كل أوجه البناء الاجتماعي بما في ذلك من أنظمة تقوم على أساس النسق المعياري للمجتمع.

4- رأى دوركايم أن تطور وقائع المجتمع أو المعايير السائدة في ذلك المجتمع مبنية على أساس حاجات ذلك المجتمع الأساسية، وبهذه الطريقة تمثل الظواهر الاجتماعية

الحاجات الاجتماعية، وقد رأى دوركايم أنه يجب على علماء الاجتماع أن يقوموا باستكشاف الارتباط بين الظواهر الاجتماعية والحاجات الاجتماعية ويدرسونه بعمق أكثر. وبهذا يكون دوركايم قد سبق البنائية الوظيفية المعاصرة في بيان هذا الارتباط.

5- وقد كان افتراضه المهم الآخر هو أن التماسك الاجتماعي أو التكامل الاجتماعي بني على أساس تقسيم العمل في المجتمع، أي أنه كلما زاد التشابه أو التماثل في تقسيم العمل في المجتمع، أي كلما كان بناء الدور أقل تعقيداً، كان مستوى التماسك الاجتماعي عالياً.

6- وسع دوركايم افتراضه بحيث ربط بين حجم السكان (المجتمع) والكثافة الاجتماعية من جهة، ومستوى تقسيم العمل والترابط الاجتماعي من جهة أخرى أي أنه كلما كان حجم السكان كبيراً وعظمت الكثافة الاجتماعية، تسبب ذلك في زيادة تقسيم العمل، وتقلص الترابط الاجتماعي.

7- زيادة على ذلك فإن دوركايم أدرك شكلين أساسيين من التضامن الاجتماعي هما: التضامن الآلي، والتضامن العضوي، الأول من خصائص المجتمعات التقليدية التي يقل فيها تقسيم العمل وتكون المعايير فيها قمعية، كما يوجد فيها مستوى عال من التكامل الاجتماعي. أما التضامن العضوي من جهة أخرى فهو من خصائص المجتمعات الصناعية الأكثر تقدماً مع تعقد تقسيم العمل الذي تزداد فيه العلاقات التعاقدية ويقل فيه مستوى التكامل والتماسك. في مثل هذا الوضع يكون ضبط الأفراد منخفضاً ويقود إلى الفوضى أو اللامعيارية. إنه خلال هذه المرحلة التي يظهر فيها مستوى عالٍ من الانحراف مثل انتشار ظاهرة الانتحار حيث تضعف الروابط بين الأفراد والبناء الاجتماعي.

8- وأخيراً افترض دوركايم أن الجريمة وأشكال أخرى من الانحراف تعتبر وظيفية بالنسبة للمجتمع لدرجة أنها تدعم معايير الجماعة كما أنها تساهم في التغيرات السارية وذلك بتعديل هذه المعايير. (55)

أما منهجه العلمي Methodology فإنه يتلخص في قواعد البحث العلمي حيث عرف دوركايم على وجه التحديد بعمله المعروف باسم قواعد البحث في علم الاجتماع، الذي أكد

فيه على أن الحقائق الاجتماعية أشياء تتطلب دراسة موضوعية تركز على مؤشرات التفكير الجمعي Collective thought، وأن علم الاجتماع يجب أن يحاول تحديد الحاجات الاجتماعية الأساسية التي تمثلها هذه المؤشرات، كما يجب أن يستخدم علم الاجتماع مناهج مثل الاختلافات المتلازمة Concomitant Variation أي إقامة علاقة متبادلة بين متغيرين، واستخدام تقنيات التجريب والمنهج المقارن مع التركيز بشكل خاص على تغير الحقائق الاجتماعية عبر الزمان. وهو يرى أننا إذا استخدمنا مثل هذه المناهج فمن المحتمل أن يكون بالإمكان استخلاص قوانين علمية تهتم بتطور أداء الظواهر الاجتماعية لوظائفها. (56)

وسبب تركيز دوركايم على التحديد الدقيق للمنهج العلمي الذي يجب أن يستخدم في دراسة علم الاجتماع والذي يجب أن يضع في اعتباره تعريف الظاهرة الاجتماعية وتحديد موضوعات علم الاجتماع بصورة دقيقة يعود إلى أنه " وجد أن السابقين عليه قد اهتموا بتحديد منهاج خاص لعلم الاجتماع لاسيما كونت . لكنهم جميعاً لم يعرفوا الظاهرة الاجتماعية، ولم يحددوا موضوعات العلم بصورة دقيقة، ومن هنا فقد اهتم دوركايم باستكمال الثغرات السابقة، وحدد بصورة دقيقة منهاجاً وضعياً لعلم الاجتماع، يطلب فيه من الباحث الاجتماعي ضرورة دراسة الظواهر والنظم الاجتماعية على أنها أشياء قائمة بالفعل وليست تصورات تعتمد على مفاهيم ذاتية، ولهذا وجه عناية خاصة لتشخيص الظواهر الاجتماعية وتحديد خصائصها النوعية التي تمنحها قوتها المميزة دون أن تختلط بالظواهر الأخرى الطبيعية أو النفسية أو البيولوجية. (57)

أما نمط المجتمع Typology عنده فهو كما ذكرنا سابقاً أن النموذج العلمي لدوركايم بني على أساس مجتمع يسيطر عليه شكل من التضامن الاجتماعي، فهناك التضامن الآلي من ناحية وهو الذي يتألف من مستوى بسيط من تقسيم العمل، وثقافة تقليدية متجانسة، ومعايير قسرية، وملكية مشاعة، والديانة الطوطمية، والانتحار الغيري أو الإيثاري (الموت من أجل الجماعة). أما التضامن العضوي فهو الذي يشير إلى نظام

تقسيم العمل المعقد الذي يصاحب التصنيع، وزيادة النزعة الفردية، المعايير الارتدادية (الرجعية) Restitutive Norms، والعلاقات التعاقدية، والملكية الخاصة أو الفردية، وأشكال الدين الشخصي، وأشكال الانتحار الأناني والانتحار الفوضوي أي الانتحار بسبب عدم احترام المعايير. والشكل الأول أي الانتحار الأناني Egoistic Suicide ناتج عن صراع بين رغبات الشخص وسلطة الجماعة. وعادة ما يكون ارتباط المنتحر بالجماعة التي ينتمي إليها ضعيفاً وعليه فإنه لا يعير الجماعة أي اهتمام إذا ما راوده فكرة الانتحار معتقدا أن انتحاره لن يكون له أي تأثير على الجماعة. والنوع الثاني من الانتحار هو الانتحار الفوضوي أو اللامعياري Anomie Suicide وهو الانتحار الناجم عن الانحلال الاجتماعي، خاصة في أوقات الأزمات الاقتصادية عندما تكون الهوة بين الطموح والواقع كبيرة جداً. (58) وهو انتحار الأشخاص الذين لا يتبعون القواعد التي وضعها المجتمع أو لا يسيرون على النهج الذي رسمه المجتمع وعليه يصبحون بلا معايير تحدد أنماط سلوكهم. النوع الثالث وهو الانتحار الغيري (الموت من أجل الغير) أو الانتحار الإيثاري Altruistic Suicide "وهو الانتحار الذي يرجع إلى شدة اندماج الفرد في الجماعة حتى أنه يفقد فرديته، ويفسر هذا الاندماج نفسياً بشدة شعور الفرد بالواجب إزاء جماعته حتى أنه يصبح مستعداً أن يضحي بحياته من أجل الجماعة إذا كانت هذه التضحية ضرورية ويقول دوركايم إن هذا النوع من الانتحار، يوجد غالباً في المجتمعات التي تتميز بالتضامن الآلي"(59). ومن جهة أخرى قد ينتحر الفرد إذا فشل في الامتثال لأوامر الجماعة وتوقعاتها، فتجريم الجماعة للفرد قد يجعله يفضل الموت على الحياة بحيث يشعر بأنه لا قيمة لحياته إذا سحبت الجماعة رضاها عنه واعتبرته مذنباً بحقها. وكما في المجتمعات الصناعية والمجتمعات العسكرية عند سبنسر هذا النموذج يصف البناء الاجتماعي للمجتمع خلال مراحل خاصة من تطوره.

بالمقارنة مع كونت وسبنسر فإن دوركايم صور المجتمع في عبارات أكثر معيارية. إلا أن نموذجه على كل حال يعتبر عضوياً وتطورياً على حد سواء: المجتمع يمثل شكلاً من الإرادة الجمعية التي تطورت بالرجوع إلى الحاجات الاجتماعية الأساسية، المحددة والمقيدة

لسلوك الأفراد فيه. وبتغير هذه الحاجات وبزيادة عدد السكان يتغير كذلك تقسيم العمل والمعايير المرتبطة به، متغيراً من نمط التضامن الآلي إلى نمط التضامن العضوي. مثل هذا المدخل المعياري، العضوي، التطوري يمثل القاعدة الأساسية لعلم الاجتماع، واعتبرت إسهامات دوركايم مهمة جداً وباقية في نفس الوقت.

رابعاً: فردناند تونيز 1855- 1936م

ولد *فردناند تونيز. Ferdinand Tonnies* في مدينة إيزنشتادت Eisenstadt بمقاطعة شلزفيج Schleswig بأقصى شمال ألمانيا في مجتمع زراعي. انتقلت عائلته في سنة 1864 إلى مدينة صغيرة هي هوزومHusum وهناك تعرف تونيز الصغير على الشاعر ثيودور ستورم Theodor Sturm الذي كان له تأثير بالغ في حياته. وتخرج في المدرسة الثانوية وهو لم يكمل السابعة عشرة من عمره، والتحق بجامعة يينا Jena حيث درس فقه اللغة الكلاسيكي والفلسفة. ولم يمكث فيها طويلاً حتى انتقل إلى جامعة لايبزق Leipzig وبعد ذلك التحق بجامعة بون ثم جامعة برلين وتحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة توبنجن Tubingen في عام 1877. لعل من أهم المفكرين الذين أثروا في فكر تونيز تأثيراً كبيراً خلال سنوات عمره الدراسية تمثلوا في الفيلسوف فريدريك بولسينFriedrich Paulsen، والاقتصادي أدولف فجنرAdolph Wagner، وعالم النفس الاجتماعي الشهير فلهلم فوندت Wilhelm Wundt. (60)

وفي عام 1881 أصبح تونيز محاضراً في جامعة كيل Kiel واستمر في هذه المؤسسة العلمية إلى أن طرده منها النازيون في عام 1933. وعلى الرغم من أنه عمل مع هذه الجامعة لأكثر من خمسين عاماً إلا أن علاقته معها كانت ضعيفة. حيث عمل ثماني سنوات فقط كأستاذ متفرغ، ثم فضل بعد ذلك البحث، والكتابة، والسفر من أجل التعليم.

تعلم تونيز في ظل التقاليد العلمية لتوماس هوبز Thomas Hobbes وفلسفته في القانون ونظريته في الدولة. وهنا تجدر الإشارة إلى أننا كثيراً ما كنا ننسى أن تونيز إلى جانب

أعماله المتميزة في علم الاجتماع المتمثلة في الجماعة والمجتمع ومقدمة في علم الاجتماع، كانت له إسهامات مهمة في فلسفة القانون وكتب عملاً شاملاً عن الرأي العام. كما تأثر كذلك بكل من هيجل وكونت وسبنسر وقد عايش الجيشان والثوران الاقتصادي والسياسي في ألمانيا وكان مهتماً أساساً بفهم المجتمع على أساس أنه نتاج الإرادة الإنسانية كما هو الحال عند دوركايم كما أضاف البعد الاجتماعي النفسي للنظرية العضوية وتلخصت أهم أعماله في الجماعة والمجتمع Gemeinschaft und Geseellschaft الذي صدر باللغة الألمانية عام 1887م، ولم يترجم إلى اللغة الإنجليزية إلا في عام 1940 تحت عنوان مختلف، وهو مفاهيم أساسية في علم الاجتماع Fundamental Concepts of Sociology وعدل عنوان الطبعة الإنجليزية إلى Community and Society وهو العنوان الذي يعرف به الآن بين قراء اللغة الإنجليزية، وقد كان تونيز حينها في مرحلة الشباب أي أنه لم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر، وكان لهذا العمل تأثير كبير على التفكير الاجتماعي في حينه على الرغم من أنه ظل لمدة خمسة عشر عاماً يُقرأ في دائرة ضيقة لأنه كتب بأسلوب لغوي صعب. وفي طبعته الثانية تحصل على اهتمام أكثر. وقد اكتسب مؤلفه هذا شهرة واسعة من خلال طبعاته الستة المتلاحقة بعد ذلك والتي ظهرت الواحدة تلو الأخرى. وقد أشار هذا المؤلف في الماضي إلى العصور الوسطى، وإلى المستقبل الذي أمامنا وذلك في محاولة منه للإجابة على الأسئلة: من هم نحن؟ وأين نحن؟ ومتى أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟. وأخيراً كتابه مقدمة في علم الاجتماع Introduction to Sociology الذي صدر عام 1931م.

لا يوجد على أية حال أدنى شك في أن تونيز سوف يذكر دائماً بعمله الرئيسي: الجماعة والمجتمع. إلا أن فهمه للنظرية الاجتماعية كان غير عادي، فقد اعتبر أن النظرية الاجتماعية عبارة عن معطيات سوسيولوجية، وهي مجرد تعبير عن الإرادة الاجتماعية، وانعكاسات للحالات الاجتماعية الواقعية.

وقد ترتب على ارتباط الجماعة المحلية بالإرادة الطبيعية Natural will التي يسميها أحياناً الإرادة الرئيسية أو الضرورية، Essential will وهي تمثل اتجاهاً أساسياً وغريزياً وعضويا يكمن

وراء النشاط الإنساني كدافع له، أما المجتمع فإنه مرتبط بالإرادة العقلانية Rational will التي يسميها أحياناً الإرادة التحكمية Arbitrary will وهي الشكل المتعمد والقصدي للإرادة، الذي يحدد النشاط الإنساني بالنظر إلى المستقبل. ويؤكد تونيز أن الإرادة الطبيعية أو الرئيسية تسيطر على القرويين، وأصحاب الحرف، والعامة. بينما الإرادة العقلانية أو التحكمية هي الطابع المميز لنشاط رجال الأعمال، والعلماء، والذين يمارسون السلطة، ومن ينتمون إلى الطبقة العليا. ويميل النساء والشباب إلى إشباع إرادة طبيعية أو رئيسية، بينما نلاحظ أن الرجال وكبار السن يسيرون وفقاً للنمط العقلاني أو التحكمي للإرادة. (61)

وهذان النمطان من الإرادة يفسران وجود نموذجين من الجماعات. فقد توجد الجماعة الاجتماعية نتيجة لوجود نوع من التعاطف بين أعضائها، مما يجعلهم يشعرون بأن لهذه العلاقة قيمة في ذاتها. ومن ناحية أخرى قد تنشأ جماعة اجتماعية كوسيلة لتحقيق أهداف معينة. وقد أطلق تونيز على الجماعة الأولى - التي تعبر عن الإرادة الرئيسية - مصطلح الجماعة المحلية Gemeinschaft بينما أطلق على الجماعة التي نشأت نتيجة لإرادة تحكمية مصطلح مجتمع Gesellschaft. ويذهب تونيز إلى أن مفهومي الجماعة المحلية والمجتمع لا يشيران فقط إلى ظاهرة التجمع الإنساني، بل إنهما يعكسان مراحل تطورية للنمو فالمجتمع ينبثق حينما ينفصل الأشخاص، وتتحرر الخدمات من إطار الجماعة المحلية. وبخاصة بعد أن تباع وتشترى السلع والخدمات في الأسواق الحرة. (62) وقد توصل تونيز إلى تحديد هاتين الجماعتين بعد عدة دراسات قام بها على الأسرة ومجتمع المدينة ومجتمع القرية وجماعات الأصدقاء.

كان هدف تونيز الرئيسي تطوير مفاهيم علمية يمكن أن تستخدم كأدوات للإمساك بالعملية التاريخية. بكل تأكيد يجب أن لا نعتبر أن الجماعة والمجتمع محاولة لوصف التطور من البدائية، والشيوعية الأصلية إلى الاشتراكية، لكن أكثر من ذلك بكثير باعتبارها شرحاً وتفسيراً للتصنيفات التي استخدمت من قبل العلماء الاجتماعيين منذ أن قدمها لنا تونيز.

بالإضافة لكونه مؤسس الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع German Sociological

Society فقد كان تونيز عضو شرف في الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع American Sociological Society. وقد توفي عن عمر يناهز الواحد والثمانين عاما. (63).

الجماعة والمجتمع في فكر تونيز (المعرفة ونقيضها)

يرى تونيز أن علم الاجتماع هو دراسة الإنسان ليس من الناحية الجسمية الطبيعية الفيزيقية ولكن من حيث الطبيعة البشرية. فناحية تكويناته الجسمية الطبيعية ينظر إليها فقط على أساس أنها شيء لازم لطبيعته الاجتماعية. إن غايتنا هي دراسة العواطف والدوافع التي تجذب الناس كل منهم للآخر، وتبقي الناس مع بعضهم وتحثهم على العمل الجماعي. نحن نرغب على وجه الخصوص في بحث نتاج الفكر الإنساني الناجم عن ذلك الذي يحافظ على الحياة الاعتيادية بين الناس ويجعلها ممكنة. حيث يجدون كمالهم في تلك الأشكال المهمة مثل الجماعة والدولة والمؤسسة الدينية التي يمكن الإحساس بها كحقائق وأحياناً كقوى فوق طبيعية.

إذا أردت أن تعرف الآخرين عليك أن تعرف نفسك أولاً، انظر إلى داخل قلبك. كل منا عنده عدد كبير من العلاقات المباشرة وغير المباشرة مع الآخرين، كل منا يعرف عدداً كبيراً من الأفراد، لكن هذا العدد الكبير سيظل قلة بالنسبة لإجمالي عدد الأفراد في المجتمع. لذلك فالسؤال الذي يطرح نفسه، كيف يمكنني أن أعرف الآخرين؟

سوف ندرس أولاً الكيفية التي يمكن أن نفرق بها بين جميع الناس وبين الذين نعرفهم منهم، بغض النظر عن السؤال كيف تعرفنا عليهم، التفريق سوف يتكون من قائمة تحتوي على أربع ثنائيات تتعلق بعلاقة الشخص بأقرانه من بني البشر وهي كما يلي:

1- المعارف والغرباء Acquaintanceship And Strangeness:

ليس من الضروري أن تفعل بكل بساطة أكثر من الإشارة إلى هذا التمييز. في حشد من الغرباء أو في مدينة غريبة عنك، من الممكن أن يقابل الإنسان أحد معارفه العاديين، بل قد يكون أحد معارفه الذي يعرفه من مدة طويلة، هذه الصدفة ستكون بدون شك

مناسبة سارة. وقد تبدأ مع هذا الشخص في حديث في التو واللحظة وهو شيء نادراً ما تفعله مع الشخص الغريب تماماً. إن الرغبة المحدودة التي قد تكون لدى الشخص في محادثة الغرباء عادة ما يعوقها حاجز اللغة، إذا كان الفرد قد تم التعرف عليه بشكل غير مقصود، فقد يكون لأول مرة (وآخر مرة كذلك) تصافح ذلك الشخص، مثل هذا الشخص المتعرف عليه بشكل غير مقصود قد يكون غريباً باستثناء أنه معروف بشكل ما مثل أن يكون يعمل في نفس مجال العمل الذي تعمل به أو في حقل قريب من الحقل الذي تعمل به، أو أن الشخصين قد سبق لهما أن التقيا من قبل وتبادلا بعض الكلمات المحدودة، الشخص الذي تعرفت عليه بشكل عفوي أو غير مخطط له من الممكن أن يكون مواطناً لدولة أخرى ويتكلم لغة غير التي أتكلمها لكنه معروف لدي ويعتبر معرفة على الرغم من أننا نجد صعوبة في فهم كل منا للآخر. ففي اللغة الألمانية هناك تفريق دقيق بين الشخص المعرفة وبين الشخص الذي يعرفه الشخص فقط، فالشخص المعرفة أو الذي هو من معارفي يعرفني كذلك، أما الشخص الذي أعرفه فقط فهو لا يعرفني، في جميع الاحتمالات يعرفني أو على الأقل ليس بالضرورة يعرفني. فالشخص الذي يشغل مركزاً مرموقاً يراه ويعرفه الكثيرون الذين يتجاهلهم ولا يعرفهم، وغالباً جداً ما يكون لا يود معرفتهم. فالشخص الذي أعرفه قد لا يتذكرني حتى ولو كان يجب أن يفعل، أو يمكن أنه لا يرغب في أن ينتبه إلى. قد لا أكون أعني شيئاً له، أو قد لا يحبني، ولتمييز بالتضاد فإن التعارف يعتبر من قبل الكثيرين أنه يتم بينهم وبين أصدقائهم، هذه من الممكن أن تعتبر موقفاً عقلياً سطحياً، أو ضرباً من الحديث، على الرغم من أن التعارف يشير إلى نزعة نحو موافقة متبادلة مثلها في ذلك مثل الاستغراب الذي يتطلب تجاهلاً متبادلاً. هذا من باب التأكيد، نزعة فقط، لكن النزعات مهمة.

2- المشاركة الوجدانية (التعاطف) والكراهية Sympathy And Antipathy.

إن كون الفرد يعرف شخصاً أو تعرف عليه لا يعني بالضرورة أنه ميال إليه أو مغرم به أو يحبه. هناك بالطبع فرق كبير بين الأشخاص المناسبين لنا والذين نميل إليهم بشكل

فطري، وبين الذين ننظر إليهم بكراهية فطرية كذلك. المشاركة الوجدانية والكراهية ما هي إلا أحاسيس؛ فهما يُعَرَّفَان على أساس أنهما غرائز، أي على أساس أنهما شيء أدنى من البشر Subhuman. في الحقيقة هما متصلان كثيراً بالفكر والمعرفة وبالتالي بمشاعر راقية ونبيلة وهي المشاعر التي تميز الكائن البشري. وهما في الحقيقة غالباً ما ينطلقان من مثل تلك المشاعر ومن أفكارنا ومعارفنا، توجد هناك علاقة ذات أهمية معينة كما سبق وأن أشرنا بين المعرفة الشخصية والمشاركة الوجدانية من جهة وبين الغربة والكراهية من جهة أخرى، كلما كانت المشاركة الوجدانية والكراهية غريزية كانت متصلة بالمظهر الخارجي، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالمرأة، هذه الحقيقة تعلو على كل الحقائق بالنسبة للمشاعر الناجمة عن الانطباع الذي يتركه الرجال عليهن. مثل هذا الانطباع يمكن أن يكون ناتجاً عن مظهر الرجل الخارجي أو وجهه أو أسلوبه في الحديث أو ملبسه أو سلوكه أو تصرفه أو حتى صوته. والرجل كذلك يقع في حب المرأة من النظرة الأولى، بالنسبة للبعض يكون ذلك بسبب جمال شكلها العام، وبالنسبة لآخرين فإن جمال وجهها يعتبر العامل المهم، وبالنسبة لغيرهم تعابير العيون فقط تكفي، أو طريقة الحديث المنمقة، ومازال آخرون يعشقون الملابس الأنيقة أو القبعة الفاخرة التي ترتديها المرأة. المشاركة الوجدانية المباشرة والتعاطف أو الكراهية الغريزية، على أية حال، يمكن أن تجابه في الخبرة الواقعية بواسطة المعرفة الأكثر جوهرية، فبالنسبة للشخص الغريب يمكن أن يجد الشخص على سبيل المثال أن الشخص الذي أعطى انطباعاً غير محبوب (سيئ) في المرة الأولى يمكن أن يتحول إلى شخص جيد، بل ربما يكون ممتعاً أو فاتناً بشكل إيجابي. وقد حدث أن النساء والفتيات يمكن أن تطور علاقة عاطفية مع رجل كان في البداية مثيراً للاشمئزاز لديهن. إنه سؤال آخر، هل يمكن أن ينمو حب مخلص وقوي من مثل هذه الجذور؟. في حالات عديدة الخبرة يمكن أن تثبت أن الانطباع الأول قد يكون صحيحاً ولكن كذلك العكس معروف جداً، ويظهر يومياً على وجه التحديد. الانطباع الذي يكون ممتازاً ومن الدرجة الأولى يمكن أن يكون انطباعاً متحيزاً لشخص معين وهو انطباع قد

يلوم الإنسان نفسه عليه لأنه بعد تعارف حميم (شخصي) يمكن أنه أخذ بواسطة مظهر خارجي براق.

لكن عواطفنا وأحاسيسنا غير مهمة بالنسبة للناس بشكل عام، ليس فقط بالنسبة للذين لا نعرفهم، والغرباء ولكن حتى بالنسبة للذين نعرفهم معرفة جيدة نوعاً ما، عدم الأهمية هذه ليست ثابتة بشكل لا يمكن زحزحته، يمكن أن يكون هناك تطوير لنزعة تتأرجح بين العاطفة والكراهية. العواطف والكراهية يمكن أن تكون بدرجات متفاوتة، خاصة إذا أخذنا في الحسبان ما ذكر أعلاه وهو التعاطف العاقل، والكراهية المتجذرة في وعينا الإدراكي. نحن عادة يكون لدينا درجة معينة من التعاطف حتى وإن كانت طفيفة، مع الذين يشدون أزرنا في بعض المواقف سواء أكنا نعرفهم من قبل أو عرفناهم فقط باعتبارهم من رفاقنا في السلاح، أو في العقيدة السياسية أو كانوا مواطنين من بلادنا أو كانوا من الأقاليم التي نعيش فيها أو كانوا من الزملاء أو العقيدة الدينية الواحدة أو نفس المهنة. التعاطف يمكن أن يتولد عن طريق كون الأفراد ينتمون إلى نفس الطبقة الاجتماعية الجامدة estate كما هو الحال بالنسبة لطبقة النبلاء أو نفس الطبقة كما هو الحال في طبقة العمال أو طبقة الملاك. وفي نفس الوقت يوجد من جهة أخرى بعض النفور نحو كل الذين في المعسكر المعادي لنا. مثل هذا النفور عادة ما يزداد ليصل إلى درجة الكراهية، خاصة إذا كان هناك صراع حقيقي بين الجهات المتصارعة. على سبيل المثال مثل هذا النفور يُظهر نفسه فقط في أو يخفض إلى درجة عالية من عدم المبالاة نتيجة للمعرفة الحميمة أو أهداف أخرى يمكن أن يحول إلى تعاطف حقيقي. على أية حال نفس الاهتمامات كافية لإيقاظ التعاطف لدرجة أن مثل هذا التطابق يوجد في شعور الأفراد الذين يهمهم الأمر، وبنفس الكيفية اهتمامات معاكسة سوف تثير النفور. على سبيل المثال في الوقت الذي يكون فيه الأفراد عندهم إحساس بالاهتمامات المشتركة كمستهلكين. في ذلك الوقت سوف يشعر كل منهم بقدر قليل من التعاطف نحو الآخر. فإن اهتماماتهم تكون معاكسة تماماً للمنتجين والتجار الذين يوجه إليهم النفور، مثل هذا النفور يكون قوياً بشكل يفوق درجة تعاطفهم.

3- الثقة وعدم الثقة. Confidence and Mistrust

الفرق الثالث الذي نود أن نوجه العناية إليه هو الثقة وعدم الثقة نحو الآخرين. الشخص الذي نعرفه جيداً يبعث فينا نوعاً معيناً من الثقة، لكن الشخص الغريب بعض الشيء على أية حال من المحتمل أن يبعث فينا شعوراً معيناً بعدم الثقة وهو شعور غالباً ما يكون قوياً. علاوة على ذلك فإن التعاطف قد يقود بسهولة وبسرعة إلى شعور بالثقة يؤسف عليه غالباً بسرعة، في حين أن النفور يمكن أن يوقظ ويقوي، أضف إلى ذلك فإن النفور قد يثبت في بعض الأحيان أنه لا مبرر له. ولكن يوجد أيضاً الكثير من التدرج، في عدد قليل فقط من الذين اخترناهم والذين عندنا فيهم تلك الثقة الكبيرة والثابتة التي نعتمد على صدقها المطلق، في الحب والإخلاص نحو أنفسنا وأقاربنا وشعورنا بأنه بإمكاننا أن نعتمد على إخلاصهم. وكما هو معروف هؤلاء القلة الذين اخترناهم ليسوا دائماً متساوين. عندما لا يملكون حق المطالبة بالتعاطف الذي هو خاصية أولئك الذين ينتمون إلى نفس الطبقة الاجتماعية Class أو نفس الطبقة المغلقة Estate. الخادم المخلص أو الخادمة المخلصة ليسا مجرد أشكال بشرية في قصة أو رواية على الرغم من أنهما على الدوام يقعان تحت حالات بسيطة وريفية أكثر منها حديثة. الثقة تضلل أو تخدع وهذا في الواقع مؤسف، الخبرة المنغصة التي غالباً ما تقود إلى اليأس، لكن حتى عدم الثقة يمكن أن يتغير إلى ثقة، مثلما أساءت استعمال الثقة بصرف النظر عن إثارة السخط، أو الغضب أو الغيظ سوف يتحول فوراً إلى عدم الثقة موجه نحو هؤلاء الذين سبق وأن وصفوا بأنهم محل ثقة، ليس خبراتنا فقط ولكن خبرات أناس آخرين يمكن أن تقود الشخص إلى الثقة أو عدم الثقة، تستثمره إما بسمعة يعتمد عليها أو مشكوك فيها.

من جهة أخرى الثقة أصبحت غير شخصية أو غير متأثرة بالشعور الشخصي خلال المعاملات التجارية الحديثة. فالشخصية أصبحت ذات قيمة منخفضة أو معدومة القيمة بالمرة. بحيث أصبحت ثروة الشخص فقط هي التي يحسب لها حساب، فالاهتمامات الشخصية سوف تغري (تقنع) حتى رجل الأعمال الأقل ثقة بنفسه لدفع ديونه طالما كان

قادراً على ذلك، إذن الثقة الشخصية تلاشت عندما تحولت إلى ثقة فيه كمدين. كقاعدة أنه رجل الأعمال أو الشركة الصناعية (بغض النظر عن الخلل الأخلاقية للمالك أو المدير) التي تملك القدرة المالية والسمعة الحسنة المتينة أو التي يفترض أنها متينة. في الواقع أنه كنتيجة لهذا النوع من الثقة في الوضع المالي لهذه الشركة، فإن الخلل الأخلاقية لرئيسها يمكن أن تعد أشياء لا يمكن المساس بها حتى وإن كانت هناك أسباب وجيهة لقبول الأحكام المناقضة. لهذا فإن الثقة في السمعة المالية للشخص أو الشركة، مثل هذه الثقة في الخلل الشخصية كثيراً ما تكون مضللة. علاوة على ذلك فإننا دون أن نشعر نثق في عدد كبير من الناس بناءً على معرفة بسيطة بهم، وفي بعض الأحيان نحن لا نعرفهم بالمرة ولا نعرف عنهم أي شيء إلا كونهم في المواقع التي يشغلونها. هذه كذلك ثقة مجردة. الثقة الشخصية مرتبطة بالضرورة بشخصية الأفراد الذين يمنحون الثقة. وذلك إما بواسطة ذكائهم أو بواسطة معرفتهم بالطبيعة البشرية أو بواسطة خبرتهم التي بنوا عليها تلك الثقة. لذلك فإنه في حالة الثقة الشخصية نجد الناس البسطاء والذين ليست لديهم خبرة بأمور الحياة هؤلاء بشكل عام ميالون إلى الثقة بالآخرين. بينما الأشخاص الأذكياء وأصحاب الخبرة ميالون إلى الشك والارتياب. على أية حال هذا الاختلاف ينتهي جميعه عندما يكون الأمر يتعلق بالثقة المُرَشَّدة أو العقلانية. فنحن لا نعرف المهندس الذي يقود القطار الذي نركبه، ولا نعرف الربان الذي يوجه السفينة التي نبحر فيها، وفي أحيان كثيرة لا نعرف الطبيب الذي نستشيره في بعض الأمور الصحية والذي قد نسلمه أجسادنا وأرواحنا لكي يجرى لنا عملية جراحية. وغالباً لا نعرف المحامي الذي نطلب منه أن يتولى قضيتنا، ومازلنا كذلك لا نعرف القاضي الذي سوف يحكم لنا أو علينا والذي نأمل أن يعيد إلينا حقوقنا أو سمعتنا ويحكم بالعدل في قضيتنا. بل كنا في جميع الحالات السابقة نعتمد على: (أ) الخبرة (أو المعرفة العلمية للشخص)، (ب) الاختيار.

وذلك على النحو التالي.

(أ) الخبرة التي يمكن تحديدها بالشكل التالي:

(1) بقدر ما تكون تلك الخبرة (أو المعرفة) مهمة فنحن نبرر ثقتنا في الشخص بسبب أن الخبرة (أو المعرفة) مرتبطة بمهنته، كيف يتجرأ ويقول إنه طبيب أو محامي أو قاضي إذا لم يكن كذلك. فالإسكافي وصانع الأقفال والخياط يعرفون كذلك فنون مهنهم. كلما كانت المسألة مهمة اعتمدنا على (2) الامتحانات (3) الخبرة (4) السمعة (5) النصيحة الشخصية أو التوصية التي تفتح الباب بالنسبة للرجل أو المرأة لمثل هذا النشاط أو المكتب. في حالات كثيرة على أية حال كما هو الحال على سبيل المثال بالنسبة للمهندس أو الربان المؤهلات فقط هي التي تحسم الأمر وهي التي تُطلب منهم لإثبات الخبرة.

(ب) بقدر ما يكون الاختيار مهماً فإننا نضع ثقتنا في:

1) عدد معين من الخلل الأخلاقية العادية وافتراض أن الفرد الذي نأتمنه لرعاية أنفسنا من المحتمل أنه لا يمكن أن يمارس مهنته إذا لم يتحصل على القدر الأدنى من التأهيل على الأقل لممارسة تلك المهنة.
2) بعد ذلك مباشرة يكون الاهتمام منصباً على الاهتمامات الشخصية للشخص سواء أكانت هذه الاهتمامات مادية أو غير مادية، وعادة ما يكون كلاهما مندمجاً في الآخر.

لكن يمكن أن يرى بسهولة أن هناك شيئاً آخر بجانب هذه الأسباب يبطن راحة بالنا وشعورنا بالأمن وأن ثقتنا في ذلك قوية على الرغم من أننا نادراً ما نشعر بها تعتمد على الأنساق الثلاثة للإرادة الاجتماعية التي نعرفها بأنها النظام العام والقانون والأخلاق، أن الوظيفتين الأخيرتين الأنظمة القانونية والأخلاقية كانا النوعين اللذين تطورا بشكل كامل منذ البداية.

4- التواقف Interdependence :

أي توقف شيء على شيء آخر، والآن وصلنا إلى نقطة الاختلاف الرابعة والتي لها علاقة وثيقة بالثلاثة نقاط السابقة بل ومتضمنة فيها. وهذه النقطة تتناول الحالة التي تكون فيها مرتبطاً بأناس آخرين أو إذا ما كنت مستقلاً كلياً عنهم ومتحرراً منهم. وحالة كون الشخص

مرتبط بالآخرين هي العكس تماماً لحالة التحرر، فالسابقة تتطلب التزامات أخلاقية، والإلزام الأخلاقي أو التحريم. هناك العديد من مثل تلك الروابط التي تلزم الشخص من خلال أنواع مختلفة من العلاقات. هذه الارتباطات يمكن أن تسمى أنواع الكيانات الاجتماعية أو الأشكال التي تربط الإنسان إلى رفاقه من بني البشر. وعليه فإنه سيكون مقيداً من قبل هذه الكيانات الاجتماعية إذا كان يشعر بأنه مرتبط بهم. إحساسه بهذا الارتباط أما أن يكون عن طريق سيطرة شعورية أو سيطرة فكرية. من هذا الشعور هناك نتائج الإحساس بملاحظة الالتزام الأخلاقي أو الإلزام الأخلاقي أو التحريم وبغض شديد للشعور بالخطأ أو عدم الشرعية أو المحظور بالإضافة إلى التصرفات والأفعال غير الأخلاقية أو الفاجرة أو البذيئة.

الحديث عن تلك العلاقات مثل الروابط يتطلب بالطبع استخداماً رمزياً لهذا المصطلح. فمثلاً لا يمكن أن تفسر الرابطة الاجتماعية أو المنظمة بالمعنى الحرفي للكلمات، ذلك لأن المخلوق البشري عندما يكون مرتبطاً بمخلوق بشري آخر يمكن أن يشير إلى حالة اعتمادية كاملة. هذا على أية حال تعبير رمزي يشير إلى أن واحداً من الاثنين المرتبطين مع بعضهما لا يملك إرادته الخاصة، لكن بدلاً من ذلك يعتمد على إرادة الشخص الآخر لتحقيق أي شيء يرغب فيه. وهكذا فإن اعتماد الطفل الرضيع وإلى حد ما الطفل الصغير على أمه أو أي شخص آخر يقوم برعايته يعتبر مثالاً واضحاً على هذه الاعتمادية. هذه الأنواع من الاعتمادية التي تعتمد على سعادة الإنسان بدرجة أقل على إرادته بدلاً من إرادة الآخرين مثل هذه الاعتمادية تتمثل في المستعبدين والأرقاء وما شابه ذلك. وقد وجد أكثر تعابيرها الواضحة ولذلك أكثرها فعالية في مثل ذلك الاكراه الجسدي كما يستخدم مع الأرقاء ومازال يستخدم مع مئات المجرمين. بالإشارة إلى عدم قدرة الشخص ليتصرف بإرادته الخاصة التي يمكن أن تكون نتيجة لإرادته الضعيفة، يمكن أن يجرنا الحديث كذلك إلى الأشخاص المنومين مغناطيسياً، والاسترقاق الجنسي وما شابه ذلك.

5- العلاقة الاجتماعية Social Relationship أو الرباط الاجتماعي Social Bond أو الصلة الاجتماعية Social Connection.

العلاقة الاجتماعية أو الرباط الاجتماعي أو الصلة الاجتماعية متضمنة بالتبادل، وهو ما يعني أن إرادة شخص ما تؤثر في إرادة الآخرين بحيث إما تعززها أو تهددها أو كليهما. إذا ما التقت إرادة شخص ما واتحدت مع إرادة شخص آخر فإن الإرادتين ينتجان إرادة مشتركة يمكن أن تفسر بأنها موحدة لأنها متبادلة. هذه الإرادة المشتركة تحتاج إلى وفي نفس الوقت تتحكم في إرادة الشخص(أ) انسجاماً مع إرادة الشخص (ب) بالإضافة إلى إرادة الشخص (ب) انسجاماً مع إرادة الشخص (أ). هذه أبسط حالة للإرادة الاجتماعية لفردين أفضل أن أسميهما شخصين عندما نشير إلى إرادة ورد فعل كل منهما تجاه الآخر. وبنفس الكيفية إذا أمكن ربط شخص بآخر قد يكون متحداً مع أشخاص عديدين وهؤلاء من الممكن أن يكون كل منهم مرتبطاً بالآخر، عليه فإن إرادة كل فرد ينتمي إلى هذه الجماعة تعتبر جزءاً من الإرادة الجمعية وفي نفس الوقت متأثرة بهذه الإرادة الجمعية التي يعتمد عليها الشخص. مثل هذه الإرادة الجمعية يمكن أن تتخذ عدة أشكال معتمدة على عدد الأشخاص المرتبطين، وطبيعتها، وشكل وجودها وهذه هي الطريقة التي تظهر بها. وكذلك يكون الأشخاص مدركين لها بطرق مختلفة. الإرادة الجمعية يمكن أن تبقى كما هي لفترة زمنية غير محددة، لكنها قد تتعرض من حين لآخر لبعض التغيير بسبب قوانين التجديد. والإرادة الجمعية يمكن أن تؤثر في الأشخاص المرتبطين بها بشكل مباشر أو غير مباشر فيمكن أن تؤثر إرادة جمعية شاملة في جماعة صغيرة وهذا بالمقابل يمارس تأثيره على المجموعات الأصغر. كل إرادة جمعية يمكن أن تمثل نفسها في شخص طبيعي فرد أو في عدد من الأفراد الذين يمكن أن تعتبر إرادتهم المشتركة ممثلة لإرادة جمعية أعلى.

كل إرادة جمعية من الممكن أن تُعْطَى اسماً خاصاً، إلا أنها من الممكن أن تحمل كذلك اسم المفكر الذي حدد الجماهير المتحدة. ماذا يعني هذا الاسم أنه يفهم ويتم التفكير فيه بواسطة أفراد الجماعة كشخص مثلهم. لنقول إن الشخص الجمعي هو الذي يعتمد

عليه أشخاص جمعيون آخرون، أو في أبسط الحالات يعتمد عليه بشكل أساسي شخص طبيعي. كلهم يعرفون مدى اعتماد كل منهم على الآخر، ومدى اعتماده على الإرادة الجمعية التي هي في أبسط حالاتها تمثل علاقاتهم المتداخلة أو وحدتهم، وخلال هذه المعرفة المحددة يكون كل منهم مرتبطاً بالآخر، هذه الأسماء أخذت من جميع اللغات حيث أعطيت معاني ثابتة منذ زمن بعيد، على الرغم من أنها غالباً ما تعطي هذه المعاني دون تبصر مناسب في خصائصها الحقيقية. (64)

يمكن القول إن من أهدافه العلمية هو دراسة الإرادة الاجتماعية حيث إن علم الاجتماع بالنسبة لتونيز هو دراسة الإرادة الاجتماعية على أساس أنها قاعدة الحقيقة الاجتماعية Social Reality، فنظرية الإرادة الإنسانية مبنية على أساس محاولة فهم الطبيعة الإنسانية، ولهذا فإنه حاول أن يتفهم المجتمع على أساس أنه من عمل الإرادة الإنسانية.

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن أهم افتراضاته العلمية فإننا يمكن أن نحددها كما يلي:

1- افتراض تونيز الأساسي ينحصر في أن المجتمع بما فيه من علاقات وروابط ما هو إلا نتاج للإرادة الإنسانية.

2- العلاقة تتكون من أفعال الإرادة الفردية التي تتجمع مع بعضها لتشكل الأفعال الجمعية للإرادة، وعلى هذا النحو تتشكل أو تتكون البنية الاجتماعية.

3- التفاعل الاجتماعي بين أفراد المجتمع يمثل تعبيراً Expression عن أفعال الإرادة أثناء تبادل الفعل.

4- يرى تونيز أن كافة العلاقات الاجتماعية هي نتاج للإرادة الإنسانية، هذه الإرادة من الممكن أن تكون أحد نوعين هما: أولاً: الإرادة الطبيعية Natural Will التي هي أساس الجماعة المحلية، وثانياً: الإرادة العقلانية Rational Will التي هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع، فالإرادة الطبيعية تمثل الأساس الذي يقوم عليه المجتمع التقليدي، أما الإرادة العقلانية فإنها تمثل الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الصناعي الحديث.

وعلى هذا الأساس فإن المجتمعات تختلف وتتباين طبقاً للمعايير الأساسية السائدة فيها والحركة التي تتبناها وهي تتحول من النمط الطبيعي إلى النمط العقلاني.

5- أخيراً المجتمع يمثل كلاً عضوياً مبنياً على نوع محدد أو خاص من الإرادة. (65)

أما المنهج العلمي Methodology يمكن توضيحه من خلال تقسيم تونيز لعلم الاجتماع إلى ثلاثة أنواع وهي:

أ- علم الاجتماع النظري الصرف Pure Sociology الذي يركز على تطوير النماذج التصورية Conceptual Models.

ب- علم الاجتماع التطبيقي Applied Sociology وهو الذي يتضمن مفاهيم العلم عن الظواهر الاجتماعية.

ج- علم الاجتماع التجريبي Empirical Sociology وهو الذي يستخدم المناهج التجريبية والبيانات بطريقة استقرائية.

وقد استخدم تونيز هذه الأنماط الثلاثة ووظف المنهج العام للاستدلال التاريخي بصفة خاصة ليحدد نموذج الجماعة والمجتمع Gemeinschaft und Gesellschaft باعتبارهما يمثلان نمطين مثاليين للإرادة الاجتماعية. (66)

أما إذا أردنا التعرف على نمط المجتمع Typology عنده فإننا سنجد أنه على الرغم من أن تونيز عرف بنموذجه لنمط المجتمع الذي يعتمد على الثنائية المكونة من نمطين من الإرادة الاجتماعية هما: الجماعة والمجتمع اللذان طورهما بعد دراسة مستفيضة. حيث يمثل الأول Gemeinschaft المجتمع التقليدي أو ما يمكن أن تسميه بالكميوني Communal المبني على العلاقات العائلية الحميمة الدافئة، ومعايير الحب، والتفاهم والحماية، والروابط الاجتماعية التي ترسخها القرابة العشائرية والجماعة المحلية واللغة المشتركة، أي أن الجماعة المحلية هي المجتمع الطبيعي. أما النمط الآخر فهو الذي يتمثل في المجتمع الصناعي الحديث Gesellschaft الذي يقوم على علاقات اقتصادية غير شخصية أي

علاقات مصطنعة، وتسود فيه المعايير المرتبطة بالقيم الاقتصادية الحديثة، والعمل، والاستهلاك، وروابط الطبقة الاجتماعية، والتبادل التجاري القائم على التعاقد. هذا النمط الاجتماعي يقابل نمط المراحل الثلاث للمجتمعات عند كونت وثنائية سبنسر عن المجتمع العسكري والمجتمع الصناعي ونمطي التضامن عند دوركايم.

وما يمكن أن نؤكد عليه هنا على كل حال هو أن تونيز نظر إلى المجتمع كنوع من الحالة العقلية الداخلية بالمقارنة مع النماذج الخارجية الأكثر آلية للمفكرين السابقين.

ملخص القول إن تونيز اعتبر المجتمع تعبيراً عن نوع خاص من الإرادة الجمعية (الطبيعية أو العقلانية)، هاتان الإرادتان تعملان من خلال المستويات الفردية أو الجمعية، ويمثلان نسقاً اجتماعياً عضوياً. وقد انبثقت عن هذا المدخل الذي تبناه تونيز عدة قضايا يمكن إيجازها كما يلي:

1- الواقع الحر للإرادة الاجتماعية عند مستوى المجتمع.
2- وجود نوعين من الإرادة الاجتماعية.
3- المشاكل الموروثة في مثل هذه الثنائية المبسطة.
4- مساهمة عوامل اجتماعية أخرى في النسق الاجتماعي. (67)

على الرغم من القضايا المذكورة أعلاه فإن أعمال تونيز كانت في معظمها تتميمات ومساهمات لعلم النفس/الاجتماعي من النظرية العضوية، والنمط الذي قدمه تونيز صار بمثابة القاعدة التي قامت عليها الكثير من الأعمال اللاحقة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

ملخص للمدخل العضوي

فيما تقدم حاولنا أن نبين كيف أن النظرية العضوية في علم الاجتماع تمثل ردة فعل مفكري الطبقة العليا الذي تعلموا في ظل تقاليد فلسفة التنوير وبالتحديد المذهب الطبيعي، المذهب العقلي، التطورية الاجتماعية، الإصلاح الاجتماعي، والمنهج الوضعي. حيث عاش المجتمع خلال تلك المرحلة ثورة سياسية عارمة، بالإضافة إلى الانهيار الاجتماعي،

والتنمية الصناعية. هذا التفاعل تولدت عنه مجموعة من المفاهيم كانت تنظر إلى المجتمع على أساس أنه نظام عضوي محدد عن طريق القوانين الطبيعية. يعتبر تقسيم العمل وبناء الدور أساس هذا النظام، الذي يتم بموجبه بناء النظام المعياري للمجتمع. هذا النظام لوحظ أنه يتطور من التقليدي إلى الحديث والصناعي مع تعديلات متميزة لبنائه القيمي خلال هذه العملية.

لمزيد من الإيضاح فإن العناصر الأساسية لإطار النظرية العضوية وهي النظرية القائلة بأن بناء ووظائف المجتمع تسير طبقاً للقوانين البيولوجية التي يتميز بها الكائن العضوي مع اعتماد الأجزاء أو الأعضاء المختلفة على بعضها البعض فتكون الجسم أو المجتمع ككل. يمكن أن يتضح من محاولة فهم القوانين الطبيعية لنظرية التطور الاجتماعي أنها تسعى إلى إحداث المزيد من التوافق والتلاحم الاجتماعي.

أهداف هذا المدخل:

هذا الإطار نشأ من محاولة فهم القوانين الطبيعية للتطور الاجتماعي من أجل إحداث أكبر قدر من الانسجام والتكامل الاجتماعي.

افتراضات هذا المدخل:

1- المجتمع كائن عضوي ذو نظام متداخل.
2- النظام الاجتماعي يتطور طبقاً لحاجاته الأساسية.
3- المجتمع يتطور من التقليدي غير الصناعي نحو الحديث الصناعي.
4- البناء الاجتماعي يتكون من البناء المعياري للمجتمع الذي يتكون نتيجة للنظام الأساسي من تقسيم العمل في المجتمع.
5- النظام الاجتماعي يمكن أن يقسم بشكل عام إلى البناء الاجتماعي (الاستاتيكا الاجتماعية) والعمليات الاجتماعية (الديناميكا الاجتماعية).

المنهج المتبع من قبل أصحاب هذا المدخل

1- الملاحظة الإمبيريقية (الوضعية).
2- المناهج التجريبية والمقارنة.
3- استخدام منهج الاستقراء التاريخي.

النماذج العلمية لمفكري هذا المدخل:

المجتمع مقسم إلى مراحل رمزية من التطور الاجتماعي (المراحل الثلاث لكونت، ونمطي سبنسر العسكري والصناعي، والنمط العضوي والآلي لدوركايم والإرادة الطبيعية Natural Will والإرادة العقلانية Rational Will لتونيز). (68)

مما سبق ذكره يتضح أن المدخل العضوي يمثل أسلوباً طبيعياً، تطورياً في النظر إلى تطور المجتمع في ظل تقاليد فلسفة التنوير. مثل هذا الإطار يقدم أساساً لنظرية علم الاجتماع. وهو جزء من النموذج الرئيسي العام لعلم الاجتماع كما سوف نرى عندما نتحول إلى دراسة نظرية الصراع والنظرية السلوكية الاجتماعية.

هوامش الفصل الثالث

1- Kinloch, Graham, sociological theory, Mcgraw-Hill Book company1977 p 69

2- Ruitenbeek, Hendrik M. (Editor) Varieties of Classic Social Theory, E. P. Dutton& co., Inc. New York, 1963, pp 30-31.

3- Kinloch, Graham. Ibid p 70

4- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها ترجمة محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1978، ص 47.

5- السيد محمد بدوي، مبادئ علم الاجتماع، الطبعة الثانية 1970، دار المعارف بمصر، ص 107.

6- المرجع السابق، ص ص 107-108.

7- محمد الجوهري، علم الاجتماع: النظرية. الموضوع. المنهج. دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، 1992، ص ص 8- 9.

8- السيد محمد بدوي، مرجع سبق ذكره، ص ص 108-110.

9- المرجع السابق نفسه، ص ص 111- 112.

10- محمد علي محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص ص 85-86.

11- السيد محمد بدوي، مرجع سبق ذكره، ص ص 112- 113.

12- المرجع السابق نفسه، ص ص 113- 114.

13- Coser, *Lewis A. Masters of Sociological Thought,* Second Edition, Harcourt Brace Jovanovich, Inc. New York 1977,p3.

14- عمر، معن خليل، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، الطبعة الثانية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1991، ص 104.

15- محمد الجوهري، مرجع سبق ذكره، ص 9.

16- Kinloch,Graham. Ibid, p 72.

17- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر القاهرة، (بدون تاريخ)، ص 317.

18- نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص 51.

19- يوسف كرم، مرجع سبق ذكره، ص ص325-326.

20- محمد الجوهري، مرجع سبق ذكره، ص 13.

21- Coser, Lewis A., Ibid, pp, 102-105.

22- السيد محمد بدوي، مرجع سبق ذكره، ص 133.

23- Coser, Lewis A. Ibid, p 103.

24- Kinloch,Graham. Ibid p 76.

25 - Coser, Lewis A., Ibid, P 89.

26- محمد علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص 151.

27- يوسف كرم، مرجع سبق ذكره، ص 356.

28- نيقولا تيماشيف مرجع سبق، ذكره ص68

29 - Kinloch, Graham. Ibid, p 77.

30 - محمد علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص 63.

31- يوسف كرم، مرجع سبق ذكره، ص359.

32- Kinloch, Graham. Ibid, pp 77-78

33- نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص ص 69-70.

34- Kinloch, Graham. Ibid, pp 77-78

35- Coser, Lewis A., Ibid, P 143.

36- Coser, Lewis A., Ibid, PP 161-163.

37- مهى سهيل المقدم، محاكمة دوركايم في الفكر الاجتماعي العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1992، ص 9.

38- المرجع السابق نفسه، ص ص 9-11

39- المرجع السابق نفسه، ص ص 11-12.

40- محمد علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص 91.

41- Coser, Lewis A., Ibid, PP 145-148.

42- Coser, Lewis A., Ibid, PP 145-148

43- Coser, Lewis A., Ibid, PP 145-148

44- Coser, Lewis A., Ibid, PP 145-148

45- Coser, Lewis A., Ibid, PP 145-148

46- Kinloch, Graham. Ibid, pp 82-84.

47- علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1982، ص433.

48- المرجع السابق نفسه، ص 440.

49- المرجع السابق نفسه، ص 440.

50- علي عبد الرازق جلبي وآخرون، نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2001، ص 83 .

51- المرجع السابق نفسه، ص ص 83-84.

52- Kinloch,Graham. Ibid, p 84.

53- نيقولا تيماشيف، مرجع سيق ذكره، ص68

54- مجد الدين عمر خيري خمش، علم الاجتماع: الموضوع والمنهج، مجدلاوي، الطبعة الأولى، 1999، ص ص168-171.

55- Kinloch,Graham. Ibid, pp 86-85.

56- Kinloch, Ibid, pp 86-85

57- مهى سهيل المقدم، مرجع سبق ذكره، ص 13.

58- Kinloch,Graham. Ibid, p86.

59- مهى سهيل المقدم، مرجع سبق ذكره، ص 42.

60- Ruittenbeek, Hendrik, M. Verities of Classic Social Theory, Published by Clarks, Irwin and Company Limited, Toronto and Vancouver, 1963 p 137.

61- نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص155.

62- المرجع السابق نفسه، نفس الصفحة.

63- Ruittenbeek, Hendrik Ibid 137-138.

64- Ruittenbeek, Hendrik Ibid 138-146.

65- Kinloch,Graham. Ibid, p89.

66- Kinloch,Graham. Ibid, p89.

67- Kinloch,Graham. Ibid, pp89-90.

68- Kinloch,Graham. Ibid, p92.

الفصل الرابع

نظرية الصـــراع
Conflict Theory

ويشتمل هذا الفصل على النقاط الآتية:

- **أولاً: كارل ماركس**
- **ثانياً: فلفريدو باريتو**
- **ثالثاً: روبرت إبزرا بارك**
- **رابعاً: ثورشتاين فبلن**
- **ملخص لنظرية الصراع**

الفصل الرابع

نظرية الصـراع
Conflict Theory

تمهيد

بالمقارنة مع المدخل العضوي فإن نظرية الصراع تعتبر على النقيض مع المدخل العضوي في تفسير المجتمع. حيث ينظر مدخل الصراع إلى المجتمع على أساس أنه نسق يتألف من جماعات متصارعة ومتنافسة، تتصارع من أجل الحصول على الحاجات المادية الأساسية، والعوامل الأساسية وراء هذا الصراع هي المشكلات المرتبطة بالتنظيمات الاجتماعية ذاتها، مثل: تغير حجم السكان، وزيادة تقسيم العمل أو المشكلات المرتبطة بالطبيعة الإنسانية مثل: الغرائز أو السمات.

هذا النموذج النظري طور بشكل كبير من خلال تقاليد فلسفة عصر التنوير والواقع إن نظرية الصراع طورت أساساً من قبل جماعة من المفكرين الذين كانت خلفيتهم وخبرتهم الاجتماعية تختلف تماماً عن المفكرين أصحاب النظرية العضوية. حيث كان منظرو مدخل الصراع مهتمين بحاجات الإنسان والتغير الاجتماعي أكثر من اهتمامهم بمشكلات توازن الأنساق القائمة ومحاولة إعادة تأكيد النظام الاجتماعي القائم. ويأتي في مقدمة مفكري نظرية الصراع كارل ماركس وروبرت بارك، وفلفريدو باريتو وثورشتاين فبلن.

إن منظري الصراع الذين سوف نتحدث عنهم فيما بعد عاشوا على امتداد فترة تجاوزت المئة والعشرين عاماً امتدت ما بين عامي 1818 و1944 ويتألف منظرو الصراع من مفكرين أبعد من أن يكونوا متجانسين، أي أنهم كانوا متعارضين في الفكر. إلا أن ثمة عناصر مشتركة بين هؤلاء المنظرين فهم يشتركون في بعض الخصائص حيث يتبين لنا أن

نشأتهم كانت في الغالب في أسر تنتمي إلى الطبقات الفقيرة، بدلاً من الطبقات المتوسطة أو العليا التي عادة ما كان مفكرو تلك الحقبة ينتمون إليها، وأن تعليمهم كان إلى حد ما في عدم انتشار فلسفة التنوير حيث احتوى على تعليم تقليدي (كلاسيكي) في الفلسفة، والتاريخ، والقانون، والاقتصاد، وقد شاركوا جميعهم في التفاعلات السياسية التي حدثت خلال الفترة التي عاشوا فيها كما تأثروا بمذهب الفاعلية Activism (وهو مذهب يؤكد على اتخاذ الإجراءات الفعالة أو العنيفة كاستعمال القوة لتحقيق الأغراض السياسية) كما أنهم تعرضوا للقمع السياسي، والصراع، وعايشوا الاستقطاب في المجتمعات التي عاشوا فيها، أي استقطاب المجتمع إلى طبقتين متصارعتين، وقد تأهلوا اجتماعياً من خلال الأنماط الفكرية للفترة التي سادت فيها فلسفة عصر التنوير التي كانت مهتمة بالمذهب الطبيعي Naturalism(*)، والمذهب المثالي Idealism(**)، والتطور Evolution، والمذهب العقلي Rationalism(***)، وفلسفة الذرائع (البرجماتية) Pragmatism، وأخيراً الاشتراكية Socialism.

ومن جهة أخرى فإن نظرية الصراع تختلف في منظورها العقائدي (الأيديولوجي) طبقاً للتفسيرات المستخدمة، أي أن الاتجاهات العقائدية (الأيدولوجية) تتباين داخل مدخل الصراع، فالمدخل الاجتماعي الاشتراكي لكل من ماركس وبارك يعتبر أكثر تطرفا أو ثورية في مضمونه، بينما أصحاب وجهة النظر أو الرؤية الطبيعية للصراع خاصة التي طورها باريتو

(*) المذهب الطبيعي: مذهب يرد الأشياء إلى الطبيعة وحدها، فيفسر كل شيء في ضوئها ويرجع الظواهر كلها إليها ويستبعد كل مؤثر يجاوز علم الطبيعة. ويتأثر المذهب كذلك بنظرية دارون التي تقرر بأن الإنسان ينتمي كلية إلى نظام الطبيعة وليس لديه روح أو صلة أخرى بعالم روحاني وراء الطبيعة. ويتأثر مصير الإنسان بعاملين وهما الوراثة والبيئة.

(**) المذهب المثالي: اتجاه فلسفي يشمل جانبا كبيرا من المذاهب الميتافيزيقية والعقلية التي ترى أن العقل أو الفكر هو الحقيقة النهائية أو أساس التجربة والمعرفة. مثل مثالية كانط ومثالية هيجل.

(***) المذهب العقلي: يقصد بالمدلول العام لهذا الاصطلاح Intellectualism أي كل ما هو موجود مردود إلى مبادئ عقلية.

تعتبر محافظة إلى حد ما في أسلوبها، وأهدافها واتجاهها العام، لكن كلا النمطين على أية حال أكدا على الصراع والتغير عند قيامهما بتحديد مفهوم المجتمع. والاختلافات بين نمطي الصراع السابقين من الممكن توضيحها كما يلي:

أولاً: طبقاً لأصحاب المدخل الاجتماعي، فإن الكفاح من أجل إشباع الحاجات ينتج عنه صراع وتغير، ومن جهة أخرى فإن أصحاب المدخل الطبيعي يجادلون بأن هناك خصائص معينة موروثة في الطبيعة الإنسانية.

ثانياً: نظر ماركس وبارك إلى الأوضاع الاقتصادية والأيكولوجية على أساس إنها تؤدي إلى خلق سلوك موجه نحو الصراع، بينما باريتوفبلن نظرا إلى الأفكار والقيم (مثل المدخل المعياري) على إنها من أكثر الأشياء التي قد تؤدي إلى شرح نفس العمليات السابقة. كلا النمطين من نظرية الصراع هام وتطوري وطبيعي في نفس الوقت وقد وجد طبقاً لوجهة النظر التي ترى أن المجتمع رتب على نفس النمط من التوازن بغض النظر عن كونه مؤقتاً أو غير مستقر.

كانت نظرية الصراع في ذلك الوقت تمثل شكلا أو نموذجاً شمولياً للمجتمع وهي في ذلك تشبه المدخل العضوي في بناء توضيحاتها أو تفسيرها، وتختلف عنه في نظرتها للمجتمع على أساس أنه مبني على التنافس والهيمنة والصراع بدلاً من التوافق، والتكامل وزيادة على ذلك فإن نظريات الصراع تختلف من حيث تأكيدها على العوامل الاجتماعية المرئية أو العوامل الطبيعية غير المرئية كمحددات لهذه العمليات. وأخيراً فإن نظريات الصراع تختلف عن النظريات العضوية في تأكيدهما العام على الحاجات الإنسانية بدلاً من الأولويات الاجتماعية. لكن بينما من الممكن أن يكون بناء هذه النظريات متشابهاً فإن محتوياتها العقائدية (الأيدولوجية) من الواضح أنها تختلف اختلافاً بيناً. (1) هذه لمحة موجزة عن الاتجاه العام لنظرية الصراع التي سوف نحاول أن نتناول مضمونها الأساسي أثناء تناولنا لوجهات نظر المنظرين الأساسيين لهذه النظرية والذين تناولوا هذا الجانب المهم من نظرية علم الاجتماع وذلك على النحو التالي:

أولاً: كارل ماركس 1818-1883م

ولد كارل ماركسKarlMarx في 5 مايو من عام 1818م في مدينة تريرTrier الألمانية التابعة لمقاطعة بروسيا وكان والده محاميا يهوديا مولعاً بالثقافة، مهتما بفلسفة التنوير، وخلال طفولة ماركس المبكرة تخلى والداه عن الديانة اليهودية واعتنقا المذهب البروتستانتي المسيحي على الرغم من انحدار كليهما من أسر عرفت بظهور أحبار الديانة اليهودية بين صفوفها. ويبدو أن السبب في اعتناق والد ماركس للديانة المسيحية يعود إلى أسباب سياسية، ذلك لأن المناصب العليا في الدولة في ذلك الوقت في ألمانيا كانت ممنوعة على اليهود.

تربى ماركس في كنف عائلة برجوازية، وكانت أمه هنريتا Henrietta لا تجيد الكتابة باللغة الألمانية بل إنها كانت لا تستطيع حتى الحديث بها دون لكنة ذلك لأنها كانت من مواليد هولندا، لهذا كان تأثير أمه عليه طفيفا عكس والده الذي كان قريبا منه طوال حياته. وبجانب والده كان للسيد فستفالن Westphalen صديق وجار والده تأثير كبير على حياته، حيث كان هذا الجار من المعجبين بالأفكار السائدة في عصر التنوير مثل والده، كما كان هذا الجار يتحدث بعدة لغات وكان قارئاً جيداً للفلسفة القديمة والحديثة والآداب، لهذا انجذب إليه ماركس الصغير فعرف منه الكثير عن شكسبير وسان سيمون وأصبح الرباط بين الاثنين وثيقا وأعار هذا الجار العديد من الكتب لماركس الصغير، وهو والد زوجة ماركس وصديقة عمره يني Jenny التي تزوجها سنة 1843. عندما أكمل ماركس تعليمه الثانوي في مدينة ترير كان قد بلغ السابعة عشرة من عمره. وقد التحق بعد حصوله على الثانوية مباشرة بجامعة بون لدراسة القانون بناءً على نصيحة والده. ثم انتقل بعد سنة من وجوده في بون إلى جامعة برلين التي مكث فيها سبع سنوات. وفي برلين وقع ماركس تحت تأثير فلسفة هيجل وبسبب تأثير الفلسفة الهيجيلية التي ركزت على نقد القانون والدين، انضم ماركس خلال وجوده في بون إلى برونو باورBruno Bauer أحد الشباب الهيجيليين في إصدار صحيفة ناقدة للأوضاع السائدة في عصره. في هذا الوقت

تقريباً كانت وزارة الثقافة قد شعرت بالضيق وبدأت تنظر بحذر إلى تصرفات الشباب الهيجيليين لهذا اعترضت على تعيين باور في جامعة بون وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي منعت تعيين ماركس في نفس الجامعة كذلك. وهكذا عندما تحصل ماركس على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة يينا Jena سنة 1841 كانت رحلته كأستاذ جامعي قد انتهت قبل إن تبدأ. (2) وهو ما جعله يقف موقف المشاكس للسلطة على الدوام وجعل حياته في شبه ترحال دائم وهو ما اضطره كذلك إلى العيش خارج بلاده وقضاء بقية حياته في المنفى.

زج ماركس بنفسه في العمل السياسي فكان صحفيا وداعيا إلى الديمقراطية والثورة حيث عمل محررا لصحيفة لبرالية هي صحيفة الراين Rheinische Zeitung التي صدرت في كولون عام 1842 لكنها ما لبثت أن أوقفت في بداية عام 1843 من قبل السلطات السياسية بسبب منهجها الثوري المعادي للحكومة. هاجر ماركس على أثر ذلك إلى فرنسا واستقر به المقام في باريس مع زوجته التي تزوجها في نفس العام.

للأسباب السالفة الذكر أصبح ماركس مفكراً ثورياً بدلاً من أن يكون أستاذا جامعيا في الفلسفة، أصبح قائداً للحركة العمالية الثورية الدولية. فقد روع ماركس من ما رآه من ظروف العمل السيئة التي يتعرض لها العمال من الرجال والنساء والأطفال على أيدي من يسميهم بملاك وسائل الإنتاج. وقد فصّل في مرحلة مبكرة في كتابه رأس المال كيف كان يوم العمل في المصانع والشركات في الجزيرة البريطانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد كان من المعتاد أن يعمل الشخص اثنتي عشرة ساعة في اليوم ولمدة ستة أيام في الأسبوع. وكان أمراً معتاداً كذلك أن يعمل العامل أكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم ولمدة سبعة أيام في الأسبوع. وقد وصف ماركس حالة ميري آن ولكلي Mary Anne Walkley بأنها عاملة تبلغ من العمر عشرين عاماً تعمل مع شركة لصنع الملابس في مدينة لندن وكان متوسط ساعات عملها اليومي 5-16ساعة. وخلال مواسم الطلب على الموضة كان من الممكن أن تعمل ميري ثلاثين ساعة متصلة دون راحة. وقد توفيت ميري في يونيو

1863 من إجهاد نفسها بالعمل كما أشار إلى ذلك تقرير إحدى الصحف الصادرة في تلك الفترة.

وقد كان تشغيل الأطفال في الصناعة في بريطانيا منتشرا خلال القرن التاسع عشر وكان الطلب عليهم مثل الطلب على الكبار تماماً. وقد تحدث ماركس عن حالة طفلين أحدهما يبلغ من العمر تسع سنوات والآخر عشر سنوات يعملان لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميا سبعة أيام في الأسبوع. وقد استشهد بتقرير لدراسة قامت بها الحكومة جاء فيها:

في أحد مصانع تشكيل الحديد المنصهر Rolling-mill كانت ساعات العمل من السادسة صباحا إلى الخامسة والنصف مساءً، كان هناك طفل يعمل أربع ليالي حتى الثامنة والنصف مساءً على الأقل وهو يعمل أسبوعاً كاملاً... ولمدة ستة أشهر. وآخر عمره تسع سنوات يعمل أحياناً ثلاث ورديات اثنتي عشرة ساعة متصلة لكل وردية. وعندما بلغ العاشرة أصبح يعمل يومين وليلتين متصلتين. وثالث عمره عشر سنوات يعمل من الساعة السادسة صباحا حتى الثانية عشرة ليلا لمدة ثلاث ليالي، وحتى التاسعة في بقية الليالي، وآخر عمره الآن ثلاثة عشر عاماً يعمل من الساعة السادسة صباحا حتى الثانية عشرة ظهراً في اليوم التالي وهو يعمل أسبوعاً كاملاً وأحياناً ثلاث ورديات متتالية، مثلاً من يوم الاثنين صباحا حتى الثلاثاء ليلا.

من هذا نرى أن معايشة ماركس للظروف غير الإنسانية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر والظلم الفادح الذي كان منصبا على الطبقة العاملة هي التي جعلته يناصب الرأسمالية الجائرة على الطبقة العاملة في ذلك الوقت العداء، وكان ماركس يرى أن الأذى الذي لحق بأجساد العمال أقل بكثير من الأذى النفسي الذي تعرض له هؤلاء العمال وهذا يعتبر أمرا ملحا يدعو إلى تحسين نوعية العمل. وقد اعتقد ماركس أن العامل في المجتمعات الرأسمالية أجبر على أن يشعر بالاغتراب عن نفسه، وعمله، ورفاقه.

يمكن القول إذن إن الفكر الماركسي كان فكراً ماديا وفلسفة ماركس كانت فلسفة مادية بحتة. والمادية تشكل أساس علم الاجتماع عنده. والمادة في رأي ماركس هي التي توجد

فقط. أما "الوعي أو الشعور" فظاهرة لاحقة Epiphenomenon، وهي مظهر الحركة في خلايا المخ. وتعكس هذه النظرة تأثر ماركس بـ لودفيج فويرباخ Feuerbach1805-1872 وهو الجناح اليساري للفلسفة الهيجيلية. ويمكن رد الماركسية بوصفها نظرية في علم الاجتماع إلى مسلمتين أساسيتين: المسلمة الأولى تنتمي إلى النزعة الحتمية الاقتصادية التي تذهب إلى أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره. والمسلمة الثانية تتعلق بآليات (مكانزمات) التغير، الذي ينبغي أن يفهم -وفقا لهذه النظرة - في ضوء المراحل الثلاث الأزلية. فكل شيء في العالم، بما في ذلك المجتمع نفسه يمر وفقا لضرورة جدلية خلال مراحل ثلاث: الإثبات أو الموضوع، والنفي أو نقيض الموضوع، ثم تصالح الأضداد أو مركب الموضوع. (3) وهذا ما أخذه ماركس عن هيجل ويختلف عنه فقط في توجهه المادي واعتماده الفلسفة المادية على العكس من هيجل الذي كانت جدليته جدلية مثالية فكرية تؤكد أن الفكر قبل المادة.

الحل إذن بالنسبة للتأثيرات الناتجة عن استغلال وتغريب الرأسمالية يمكن أن يوجد من خلال تطبيق الجدلية المادية وهي كما يعتقد ماركس تصف عملية تغير ثلاثية الأوجه. الوجه الأول، الموضوع أو القضية Thesis، وهو يصف حالة الإثبات Affirmation والوجه الثاني نقيض الموضوع أو نقيض القضية Antithesis وهو عملية الرفض، والوجه الثالث هو تصالح الأضداد أو التآلف بينها أو القضية المؤلفة Synthesis وهي العملية التي بواسطتها تحل الخصومة بين القضية ونقيضها. هذه الوجوه الثلاثة من الجدلية لم يتم تصورها كدورات متكررة، فتصالح الأضداد وصف بأنه تقدم كيفي. المنهج الجدلي... يعتقد أن عملية النمو يجب أن لا تفهم كحركة دائرية، وليس كتكرار بسيط لما حدث بالفعل، ولكن كحركة إلى الأمام وإلى أعلى، أو تحول من حالة كيفية قديمة إلى حالة كيفية جديدة، تتجه من أسفل إلى أعلى. (4) والخلاصة في موضوع الجدلية المادية كما رآها ماركس لها أوجه ثلاث كما أشرنا إليها أعلاه.

استعار ماركس منهج الجدلية من هيجل، لكن بينما كانت جدلية هيجل جدلية مثالية

تؤكد على أن أهمية الفكر تأتي قبل المادة، وترى أنه من المستحيل اعتبار وجود المادة بعيدة عن مفهومها وتعمل على أبعاد ثنائية الفكر والمادة بالنظر إلى أن المادة ما هي إلا تعبير عن فكرة أساسية. بينما جدلية ماركس كانت جدلية مادية تمثل وجهة نظر مخالفة لمثالية هيجل. فالمادة بالنسبة لماركس ليست من نتاج الفكر بل على النقيض من ذلك فإن الفكر بكل بساطة نتاج متقدم للمادة. والسؤال الذي يطرح نفسه هل يختلف الجدل الماركسي عن الجدل عند هيجل أو غيره من الفلاسفة؟ وللإجابة عن هذا السؤال يمكن القول إن الجدل منذ أن بدأ في اليونان على يد أرسطو وغيره من الفلاسفة اليونانيين لا يختلف عنه عند هيجل أو ماركس "لكن ما هو جديد في الأمر أن ماركس برغم اعترافه بشرف تتلمذه عقليا على مفكر عظيم مثل هيجل، إلا أن الجدل قد عانى من الغموض على يديه، إذ يقف التنظير الهيجلي لديه على رأسه، ومن ثم فقد كان عليه - أي ماركس- أن يجعله معتدلا. وهو بذلك يوافق فويرباخ في نقده لهيجل إذ يؤكد أن العلاقة الصحيحة بين الفكر والوجود، هي أن الوجود موضوع والفكر محمول، فالفكر ينبثق من الوجود، ولكن الوجود لا ينبثق من الفكر." (5) وهو النهج الذي سار عليه ماركس طيلة حياته فالوجود يسبق الفكر عادة فالإنسان يوجد ثم بعد ذلك يفكر وهو في نفس الوقت مادي على أبعد الحدود لدرجة أنه كان يرى إلى أن الماديات هي التي تحدد الأيدولوجيات ومع أننا قد نوافقه في الرأي الأول إلا أننا قد لا نشاطره الرأي تماماً فيما ذهب إليه ثانياً.

إذا كان هيجل يبدأ بالفكرة، فإن ماركس يبدأ بالمادة Matter، والمادة تنطوي على حركة، وإذا كانت فلسفة هيجل فلسفة فكرية جدلية فإن فلسفة ماركس فلسفة مادية جدلية. ولقد كتب فردريك إنجلز في رده على دورنج Duhring تفسيراً للفلسفة المادية ذكر فيه " لا تتمثل وحدة العالم في وجوده وإنما في ماديته، ولقد ثبت ذلك عبر تطور الفلسفة الطويل والعلوم الطبيعية، وتعد الحركة أسلوب وجود المادة، وليس هناك في أي مكان حركة بدون مادة، ولا مادة بدون حركة. والسؤال الذي يثار هنا مؤداه: ما هي حقيقة كل من الفكر والوعي، ومن أين يأتيان؟ والإجابة أنهما يوجدان في العقل البشري، وأن الإنسان

نفسه نتاج للطبيعة "(6) وهناك كما هو معلوم اختلاف بيّن بين الفكرتين يمكن أن نصل إلى حقيقته إذا تمعنا جيداً في وجهة نظر المفكرين العملاقين في قضية الفكر والمادة.

بالإضافة إلى المادية الجدلية Dialectical Materialism التي يرى ماركس من خلالها أن المادة والوجود هما أساس الوعي والفكر والتي تهتم بدراسة العالم باعتباره في حالة تطور وحركة مستمرتين. تناول ماركس المادية التاريخية Historical Materialism التي تشكل مع المادية الجدلية شقين هامين في النظرية الماركسية يكمل كل منها الآخر، وهي عبارة عن تطبيق القوانين العامة للمادية الجدلية على نوع معين من ظاهرات الكون وهو الحياة الاجتماعية. ويعرفها جلذرمان بأنها "النظرية العامة للعملية التاريخية التي تم استخلاصها من دراسة التكوينات الاجتماعية الاقتصادية وهي في نفس الوقت منهج لتحصيل المعرفة"(7) وقد يختلف البعض مع وجهة نظر ماركس في هذا التفسير للمادية التاريخية على وجه الخصوص.

بنهاية العام 1844 أسس ماركس صداقة العمر مع فردريك إنجلزFriedrich Engels استمرت مدى الحياة. كانت الأسرة التي ولد فيها إنجلز أسرة برجوازية وكان قد ولد سنة 1820 في مدينة برمن Barmen بمقاطعة بروسيا الألمانية وهي مدينة كانت تقع إلى الجنوب من مقاطعة الرور Ruhr التي كانت مقاطعة نامية صناعيا في ذلك الوقت. حيث كان والده صناعيا يملك مصانع للقطن بالقرب من مقاطعة الرور وفي إنجلترا وقد توفي إنجلز في 15 أغسطس من عام 1895 ودفن في لندن. وقد اعتنق إنجلز الصغير الراديكالية خلال فترة وجوده القصيرة في جامعة برلين في سنة 1841. وقد قرر والده على إثر ذلك إرساله في الحال إلى إنجلترا ليتعلم تجارة النسيج. وقد تعلمها إنجلز بالفعل ومعها تعلم الحياة البائسة التي كان يحياها العمال الإنجليز في الأيام الأولى للثورة الصناعية. وقد اتخذ فتاة عاملة ايرلندية خليلة له لمدة عشرين عاما دون أن يتزوجها. وقد عزلته هذه العلاقة عن المجتمع أكثر مما تستطيع الشيوعية. وبما أن ماركس وإنجلز كانا يناقشان كل المشاريع مع بعض حتى وهما لا يكتبان مع بعض فإنه من الصعب عزل مساهماتهما عن بعضها. إلا أن الجميع بما في ذلك إنجلز نفسه يقرون بأن ماركس كان هو صاحب الفكر اللامع والأصيل.

(8) لهذا كان إنجلز المفكر قد عاش في ظل فكر ماركس واختلطت الكثير من أفكاره مع أفكار ماركس ويمكن أن تكون بعض أفكاره قد نسبت إلى ماركس بقصد أو بغير قصد لكن إجمالا كانا متفقين تماماً في كثير من توجهاتهما الفكرية.

التقى ماركس بفردريك إنجلز لأول مرة في باريس ومنها أصبح صديقه مدى الحياة كما سبق وأن أشرنا. فإنجلز لم يساعد ماركس ماديا فقط وإنما كان مساعداً له على تشكيل وتطوير أفكاره. وبعد سنوات قليلة نفي ماركس إلى مدينة برسلز Brussels البلجيكية وهناك انضم إلى الجماعة الشيوعية وكتب البيان الشيوعي المشهور بالاشتراك مع إنجلز. وقد كان كل من ماركس وإنجلز في قلب أحداث ثورة عام 1848 ولعبا دوراً مهما فيها وفي هذا الوقت قرر ماركس إصدار صحيفة الراين الجديدة Neue Rheinische Zeitung(9). وقد شجعه التقاؤه في مدينة برسلز بعدد من الألمان اللاجئين إليها من الاضطرابات السياسية في بلادهم على إصدار صحيفة الراين مرة أخرى بعد أن أضاف إلى اسمها كلمة الجديدة.

أثناء إقامته في باريس أصبح ماركس من نقاد فلسفة هيجل ذلك النقد الذي لم يجعله يرفض نظرية هيجل الديناميكيا في التغيرات التاريخية لكنه جعله يعيد تفسير هذه الديناميكيات باعتبارها حقائق اقتصادية واجتماعية بدلاً من كونها تطوير لأفكار تصورية فقط. ولعل من أهم الأسباب التي جعلت ماركس يعتنق المادية هو إسراف هيجل في التصورية وذلك على الرغم من إعجاب ماركس بجدل هيجل. فنمو الحياة الإنسانية عند ماركس يتوقف على الظروف المادية والاقتصادية وأن درجة الحضارة تقاس بدرجة الثروة الزراعية والصناعية وأن أنواع الإنتاج في الحياة المادية شرط لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية.

على العموم يمكن القول إن ماركس تأثر بكتابات الكثير من الاقتصاديين السابقين له مثل آدم سميث صاحب كتاب ثروة الأمم وغيرهم، وذلك عند إعداد ماركس لكتاب رأس المال المعروف الذي قدم من خلاله عرضا لعلم الاقتصاد كما يراه هو، والذي يرى فيه أن

الصراع المادي ينتهي حسب رأيه بفوز الطبقة العاملة على الملاك، فتنزع الملكيات الخاصة بتعويض أصحابها وتصبح الثروة والمرافق العامة مملوكة ملكية مشاعة بين الجميع.

بالإضافة إلى عمله بالصحافة انضم ماركس إلى العديد من الجمعيات كاتحاد العمال الدولي والمؤتمر الشيوعي وقد تفاعل مع الضغوط السياسية والاقتصادية التي حدثت في ألمانيا وذلك من خلال تأثير البيئة الفكرية للمثالية الألمانية، والأفكار الاشتراكية الفرنسية والنظرية الاقتصادية التي كانت سائدة في بريطانية. وتمثلت أعمال ماركس المهمة في، كتاب نقد الاقتصاد السياسي، والبيان الشيوعي، وكتاب رأس المال. وكنوع من ردة الفعل للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في عصره من وجهة النظر المثالية الفلسفية طور نظرية الصراع التي كان لها تأثير قوي على الفكر الاجتماعي المعاصر.

عاد ماركس في عام 1848 إلى ألمانيا واتخذ لنفسه دوراً نشيطا في ثورة ديموقراطية غير ناجحة. وفي السنة التالية وصل إلى إنجلترا كلاجئ وعاش في لندن إلى أن توفي في 14 مارس من عام 1883(10). بعد استقراره في لندن كرس ماركس جهده للكتابة والبحث. فكتب رأس المال وغيره من الأعمال المهمة أثناء إقامته في لندن، واشتغل ماركس لمدة طويلة مراسلا أوروبيا لصحيفة نيويورك تربيون New York Tribune التي كانت حينها صحيفة ذات توجهات اشتراكية. (11)

ماركس والصراع الطبقي

بعد أن أصبح شبح الشيوعية يخيم على أوروبا في تلك الحقبة الزمنية، صار لزاما على كل قوى أوروبا القديمة أن تدخل في تحالف مقدس بهدف التخلص من هذا الشبح المخيف، حيث اتفقوا جميعاً على المواجهة من البابا إلى القيصر ومن الراديكاليين الفرنسيين إلى البوليس السري الألماني وعلى التصدي لهذا الخطر الداهم.

فلا يوجد حزب في المعارضة في أوروبا إلا واتهم ووصف أعضاؤه بأنهم شيوعيون من قبل معارضيهم، وأصبحت الشيوعية وصمة عار تطلق على كل حزب يتقدم بقوة في المعارضة

وقد نتج عن ذلك شيئان اثنان: أولهما اعتراف الأوروبيين بأن الشيوعيين أصبحوا قوة يجب أن يحسب لها حسابها. وثانيهما أن الوقت أصبح مناسبا بالنسبة للشيوعيين أن ينشروا أفكارهم، وأهدافهم دون تردد من مواجهة كل العالم إذا لزم الأمر. في هذا الوقت قرر الشيوعيون من جنسيات مختلفة الاجتماع في لندن وأصدروا البيان الشيوعي باللغات الإنجليزية، والفرنسية والألمانية، والإيطالية، والفلمنكية، والدنماركية.

يرى ماركس أن تاريخ المجتمعات المعاصرة يعتبر تاريخاً لصراع الطبقات. فالأحرار والعبيد والنبلاء والعامة وملاك الأرض والأقنان ومعلمو الصناعة والصناع أو بعبارة أخرى المُضْطَهِدِين والمُضْطَهَدِين يقف كل منهم في مواجهة الآخر في حروب تكون خفية حينا وتكون ظاهرة في أحيان أخرى، وهي حروب إما أن تنتهى بالثورة وإعادة بناء المجتمع بشكل عام أو تحطم الطبقات المتصارعة.

هناك إذن في أي مجتمع من المجتمعات طبقتان رئيسيتان، تمثل إحداهما نظام الإنتاج البائد، بينما تمثل الثانية النظام الآخذ في التكوين، والصراع الطبقي هو الوسيلة التي تنقل المجتمع من مرحلة لأخرى. وفي النهاية تنتصر الطبقة الصاعدة أو المنبثقة في هذا الصراع وتشيد نظاما جديدا للإنتاج يحمل بدوره في داخله بذور فنائه لتستمر العملية الجدلية من جديد.

رأى ماركس أن التنظيم الاجتماعي للإنتاج في المجتمع الغربي الذي عاش فيه والذي انطلقت منه الثورة الصناعية التي شكلت أساس الرأسمالية الحديثة يتمثل في وجود طبقتين، الطبقة البرجوازية أو المالكة لوسائل الإنتاج وطبقة البروليتارية أو العمال. والصراع بينهما حتمي لا مفر منه، وسوف يؤدي من خلال الوعي الطبقي والعمل العسكري الطبقي إلى تدمير النظام الموجود ليرثه النظام الاشتراكي الذي يتميز بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، ويسلم في النهاية لمجتمع بلا طبقات ولا دولة، وذلك هدف طوبائي تطلع إليه مفكرون سابقون على ماركس ونعتت اشتراكياتهم بأنها غير علمية. (12) والبرجوازية كانت تعني في الأساس سكان المدن، لكنها خلال مرحلة التحرر من القواعد القائمة والتقاليد

الموروثة في أوروبا فيما عرف بالعصر الرومانسي Romanticage أصبحت تعني الطبقات الوسطى سواء أكانوا يعيشون في المدن أو في الريف. لكن البرجوازية عند ماركس تعني كل رجال الأعمال من ملاك مصانع النسيج الكبيرة إلى المحلات التجارية الصغيرة والأطباء والمحامين والمدرسين وغيرهم من المتعلمين وأصحاب الحرف المتخصصة، وكل الجماعات التي نطلق عليها الآن أصحاب الياقات البيضاء يعتبرون عند ماركس جزءاً من البرجوازية. وقد شعر ماركس بأنه مجبر على أن يعطي تعريفاً اقتصادياً ضيقاً للبرجوازية فعرفها بأنها تتكون من "ملاك وسائل الإنتاج الرأسمالي" لكنه كان يستخدم مصطلح البرجوازية ليشير إلى الطبقات المتوسطة ككل.

أما البروليتاريون Proletarians فكانوا في الأساس يتألفون من الجماهير الفقيرة المعوزة في روما القديمة، الذين ليست لديهم أي نوع من الملكية أو ليست لديهم أي نوع من الثروة وليست لديهم أي ضمانات مادية لرعاية أطفالهم. وعلى الرغم من أن الفقراء الرومانيين لا علاقة لهم بالصناعة والمصانع إلا أن ماركس أطلق هذا المصطلح على عمال المصانع لأنه أحبه لما له من دلالة رومانسية تاريخية كبيرة. على الرغم من تحديده الاقتصادي إلا أن ماركس أدخل في البروليتارية جميع الفقراء الحضر سواء أكانوا يعملون في المصانع أم لا. فقد اقتنع أنه بتطور المجتمع الصناعي، فإن كل الناس تقريباً سوف يصبحون بروليتاريا. فالفلاحون سوف يساقون إلى المدن بسبب الحاجات الاقتصادية، ومعظم البرجوازيين سوف يفلسون بسبب المنافسة الرأسمالية وبالتالي سوف ينزلون إلى طبقة البروليتارية، إلا أن هذا التنبؤ لم يصدق على الإطلاق، وكان من أشهر تنبؤات ماركس الخاطئة. الواقع أنه بنمو الصناعة نمت بالفعل الطبقات العاملة أو البروليتارية، لكن الطبقات الوسطى نمت بسرعة كذلك. ولم تكن هناك دولة واحدة في العالم كان فيها العمال يشكلون أغلبية. بل إنه في أكثر الدول المتقدمة صناعيا في الوقت الحاضر وهي أمريكا وبريطانيا وألمانيا أصبحت الطبقات الوسطى تشكل الأغلبية. (13) وهو ما نراه في كثير من دول العالم في الوقت الحاضر حيث تكون الطبقة الوسطى في حالة نمو على حساب الطبقة الدنيا

والطبقة العليا وعليه فإنه في النهاية تكون الطبقة الوسطى هي التي تتمتع بالأغلبية في كثير من دول العالم وخاصة الصناعية منها.

إن المجتمع البرجوازي الحديث الذي تكون من حطام المجتمع الإقطاعي لم يتخلَّ عن العداء الطبقي، لكنه بدلاً من ذلك استحدث طبقات جديدة وظروف قهر جديدة، وأنواع جديدة من الصراع في مكان القديمة. وهذا الزمان الذي يمكن اعتباره زمن البرجوازية بسط العداء بين الطبقات والمجتمع ككل أصبح أكثر فأكثر منقسم إلى معسكرين متعاديين، وإلى طبقتين عظيمتين تواجه كل منهما الأخرى بشكل مباشر وهما طبقة البرجوازية وطبقة البروليتارية. ويستشهد ماركس بظروف عديدة تعتبر ظروفا جوهرية لظهور الطبقة الاجتماعية منها: "الصراع على الامتيازات الاقتصادية، والتركز الطبيعي لجماهير الناس، والاتصال السهل بينهم، ووجود تنظيم يعبر عن تضامنهم من أجل تحقيق أهدافهم المشتركة. غير أن ماركس يضيف إلى هذه الظروف عاملا مهما يتمثل في الآثار الإنسانية المترتبة على الإنتاج الآلي في ظل الرأسمالية، فالعلاقات الاجتماعية التي تفرضها الصناعة الرأسمالية تحرم الطبقة العاملة من فرص إشباع حاجاتهم النفسية في العمل، وقد أطلق ماركس على ذلك "اغتراب العمل الإنساني" وهو ما يشير إلى تطور الوعي الذاتي لدى أعضاء الطبقة بحيث يجعلهم يتفهمون مصالح طبقتهم، وهذا الوعي الذاتي هو عنصر رئيسي في تطور الطبقة الاجتماعية، وهو ينمو عند العمال نتيجة لنمو المتناقضات التي ينطوي عليها النظام الرأسمالي"(14) كان انحياز ماركس للطبقة العاملة واضح في جميع أعماله تقريباً واغتراب العامل عن السلعة التي ينتجها كان من أهم الهواجس الملازمة له بشكل مستمر إضافة إلى تسلط البرجوازيين على البروليتارية.

إن النظام الإقطاعي الصناعي الذي يحتكر فيه الإنتاج الصناعي بواسطة الطوائف المغلقة لم يعد كافيا الآن بالنسبة للحاجات المتزايدة للأسواق الجديدة. النظام الصناعي الحديث احتل مكان الطوائف المغلقة، حيث زحزح رؤساء الطوائف الصناعية جانبا بواسطة الطبقة الوسطى الصناعية، وتلاشى تقسيم العمل بين الطوائف المتحدة في وجه تقسيم

العمل في كل مشغلٍ على حدة.

البرجوازية لا تستطيع البقاء بدون تجديد أدوات الإنتاج بشكل مستمر، ومعها علاقات الإنتاج وعلاقات المجتمع بشكل عام. وحاجتها المستمرة إلى توسيع السوق لاستيعاب إنتاجها كانت تطارد البرجوازية على الدوام وفي جميع بقاع الأرض. فهي يجب أن تعشش في أي مكان، وتستقر في كل مكان، وتنشئ علاقات في أي مكان. (15) ويمثل الصراع الطبقي -على المستوى الاجتماعي - الصراع الدائر (على المستوى الاقتصادي) بين وسائل الإنتاج القديمة والوسائل الجديدة. وتمثل الوسائل الجديدة دائما بوادر ومقدمات طبقة اجتماعية صاعدة. فعلى أيام ماركس كانت الطبقة البرجوازية تمثل نظام الإنتاج الرأسمالي، أما البروليتارية (العمال الصناعيين) فيمثلون أشكال الإنتاج الاشتراكي الآتية في المستقبل (حسب التصور الماركسي) ولذلك فالصراع الطبقي لا يخضع لإرادة الداخلين أطرافا فيه ولا لأيديولوجياتهم ولا لمبادئهم وتعاليمهم الأخلاقية الخاصة، ولكنه يخضع أولاً وأخيراً لتطور وسائل الإنتاج فهي التي تحدد علاقات أولئك الناس ببعضهم البعض. ولذلك كان تقدير كارل ماركس أن الثورة البروليتارية سوف تشتعل شرارتها الأولى في إنجلترا التي تمثل على أيامه قاعدة الرأسمالية وليس في روسيا القيصرية. (16) ويمكن تحديد القضايا الأساسية عند ماركس على النحو التالي:

أولاً: كلما تزايدت حدة الظلم في توزيع الموارد النادرة، داخل نسق ما، ازداد صراع المصالح بين القطاعات المهيمنة والخاضعة داخل النسق.

ثانياً: كلما زاد وعي القطاعات الخاضعة بمصالحها الجمعية الحقيقية، ازداد احتمال تساؤلهم عن مدى شرعية بقاء واستمرار النمط السائد الذي يتولى توزيع الموارد النادرة.

أ- كلما أدت التغيرات الاجتماعية التي أحدثتها الجماعات المهيمنة إلى تفكك العلاقات القائمة بين الطبقات الخاضعة، ازداد احتمال وعي الفقراء بمصالحهم الحقيقية.

ب- كلما أدت ممارسات القطاعات المهيمنة إلى زيادة حالات الاغتراب بين الخاضعين، ازداد احتمال وعي الخاضعين بمصالحهم الحقيقية الكلية.

ت- كلما ازدادت أعداد الأفراد المقهورين الخاضعين في التعبير عما يعانونه من مآسٍ وآلام ازداد احتمال وعي هؤلاء بمطالبهم الجمعية الحقيقية.

1- كلما ازداد تجمع أعضاء الجماعات الخاضعة في بيئة محددة، ازدادت مظاهر الاتصال والمشاركة في التعبير عما يعانونه من ظلم.

2- كلما ازدادت فرص التعليم لأعضاء الجماعة الخاضعة ازداد تنوع أساليب اتصالهم وازداد احتمال توصيل ما يشعرون به من ظلم إلى بعضهم.

د- كلما ازدادت إمكانية الجماعات الخاضعة في تكوين أيدولوجيات توحد بينهم، ازداد احتمال وعي هؤلاء بمصالحهم الجمعية الحقيقية.

1- كلما ازدادت القدرة على حشد الزعماء السياسيين ازداد احتمال الوحدة الأيدولوجية.

2- كلما قلت هيمنة الجماعة المسيطرة على ضبط وتوجيه عمليات التنشئة وشبكات الاتصال في نسق ما ازداد احتمال الوحدة الأيدولوجية بين المقهورين.

ثالثاً: كلما ازداد وعي أفراد الطبقات الخاضعة في نسق ما بمصالحها، الحقيقية ازداد تساؤلهم عن شرعية توزيع الموارد المتاحة النادرة، وازداد احتمال تضامنهم واشتراكهم في صراع مكشوف صريح ضد القطاعات المهيمنة في نسق ما.

أ- كلما قلت قدرة الجماعات المهيمنة على فهم مصالحهم ازداد احتمال تضامن الجماعات الخاضعة في الصراعات.

ب- كلما ازداد تحول الجماعات الخاضعة من المبادئ المطلقة إلى المبادئ النسبية، ازداد احتمال تضامنهم في الصراع.

ت- كلما ازدادت قدرة الجماعات الخاضعة على اختيار زعامة سياسية ازداد احتمال تضامنهم في الصراع.

رابعاً: كلما ازدادت الوحدة الأيدولوجية بين أعضاء الجماعات المقهورة ازداد احتمال ظهور بناء الزعامات السياسية وازدادت فرص استقطاب كل من الجماعات المقهورة والمهيمنة.

خامساً: كلما ازداد استقطاب الجماعات المهيمنة والمقهورة ازداد عنف الصراع.

سادساً: كلما ازداد عنف الصراع، ازدادت فرص التغيير البنائي للنسق وازدادت القدرة على إعادة توزيع الموارد. (17).

هذه هي القضايا الأساسية في الصراع عند ماركس أما عند الحديث عن أهدافه العلمية فقد كان هدف ماركس الأساسي تحليل العلاقة بين ظروف الحياة وأوضاعها المادية، أي البناء الفرعي لاقتصاد المجتمع والأفكار أي البنية الفوقية للمعايير الاجتماعية تلك العلاقة التي تقوم على أسس متطورة ومتغيرة وذلك من خلال التطور التاريخي للمجتمع. مثل هذه العلاقة المتبادلة أساسية بالنسبة للفكر الماركسي. وفي تحليله للكيفية التي فسد فيها الإنسان الطبيعي بحيث أصبح إنساناً مغتربا من خلال الصناعة بعد أن عمت مظاهر الفساد الأخلاقي في عصر التصنيع والتوسع الرأسمالي الهائل. وقد كان الهدف العقائدي (الأيديولوجي) من وراء تنظير ماركس هذا هو إعادة المجتمع إلى حالته الطبيعية، أي إلى حالة يعاد فيها تكوين الإنسان الطبيعي بدلاً من الإنسان المغترب حتى يمكنه أن يعيش في حالة من التآلف مع بيئته الطبيعية والاجتماعية. وقد وضع ماركس دراسة تاريخية مفصلة للاقتصاد السياسي وفق منهج الجدلية المادية. وكان ماركس قد أصبح آنذاك منظرا وعالما تطبيقياً يستخدم تقاليد الهيجيلية الألمانية. وكردة فعل للقهر السياسي والاقتصادي في عهده طور ماركس نظرية جدلية في التغير الموجه للبناء الاقتصادي للمجتمع. (17) ويمكن تلخيص أهم افتراضات ماركس العلمية فيما يلي:

1- يتلخص فرض ماركس الأساسي في أن الوجود يحدد الوعي، بمعنى أن الظروف المادية للحياة هي التي تحدد نمط الوعي الاجتماعي أو الضمير المعياري للشخص. لهذا نجد أن أسلوب إنتاج الحياة المادية هو الذي يحدد عملية الحياة الفكرية والسياسية عموما، بمعنى ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي، وإنما وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم.

2- يرى ماركس أن الماديات إلى حدٍ ما هي التي تحدد الأيدولوجيات، وأن التغير المادي، أي

التناقض المادي أو الاقتصادي يؤدي إلى تغير اجتماعي أي تغير في المعايير أو الوعي الاجتماعي.

3- إن تاريخ جميع المجتمعات الموجودة في الوقت الحالي هو تاريخ صراع بين الطبقات. وعليه طبقاً لوجهة النظر هذه فإنه منذ أن وجدت المجتمعات البشرية حتى وهي في أشكالها البدائية المتجانسة تقريباً ظلت مقسمة إلى طبقات تتصادم من أجل مصالحها الطبقية. ففي المجتمعات الرأسمالية مثلاً يعتبر المصنع الخلية النووية في النظام الرأسمالي وظل المصنع مكان الصراع بين المستغَلين والمستغِلين، أو بين البائعين لجهدهم والمشترين لهذا الجهد بدلاً من التعاون الوظيفي.

4- إن المجتمع تمتد جذوره في داخل الظروف المادية للحياة التي طور فيها البناء الاقتصادي التحتي للمجتمع وذلك أثناء محاولة الناس إشباع حاجاتهم الأساسية، أي الحاجات الإنسانية وذلك من خلال صراع الإنسان ضد الطبيعة، وهو الذي يحدد البناء الفوقي التشريعي والسياسي للمجتمع. لذلك فإن المجتمع يمثل توازنا متطورا يحدد فيه أسلوب الإنتاج المادي الأساسي أي النظام الاقتصادي طبيعة العلاقات والوعي الاجتماعي. البناء الاقتصادي يمثل البناء الأساسي الذي يعتبر شرطا ضروريا لوجود البناء الفوقي المتمثل في البناء التشريعي والسياسي والديني والأدبي والفلسفي والعلمي والأخلاقي وهو ما يؤكد أن البناء الفوقي ما هو إلا انعكاس للبناء الأساسي على الرغم من أنه ليس انعكاسا كليا له دائما، لكنه بمرور الوقت يستقل عنه ويكون مساندا له.

5- هذا التفاعل الجدلي بين البناء الاقتصادي الفرعي (التحتي) والبناء المعياري (الفوقي) يقود المجتمع خلال مجموعة من المراحل التطورية، فزيادة عدد السكان، وتزايد الحاجات الاقتصادية يؤديان إلى زيادة تقسيم العمل أو بناء الأدوار، وهذا التطور في المقابل يؤدي إلى تراكم الملكية الخاصة، وبتأثير نمو الصناعة وتطورها ينشأ النظام الرأسمالي، ويتبع ذلك مرحلة تحكم أو هيمنة الاقتصاد، واغتراب الطبقة العاملة

(البروليتارية) عن طبيعة وأدوات الإنتاج. وأخيراً التناقضات وتزايد المشاكل داخل نظام الاقتصاد الرأسمالي تؤدي إلى تغير الوعي وبالتالي الثورة التي تحرك المجتمع نحو الاشتراكية، التي يرى أنه عن طريقها يمكن أن يعود الإنسان الطبيعي من جديد. ويبين هذا النموذج الذي طبق فيه ماركس الفكرة الجدلية للتطور التاريخي للمجتمع، وضوح علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين البناء التحتي والبناء الفوقي. وهكذا فإن الصراع بين الطبقات وبالتالي الصراع بين الدول ما هو إلا نتيجة للتطور الاقتصادي وهو الذي يقود بالتالي إلى تغيير ملحوظ في البناء الاقتصادي يصاحبه تغير ثوري في الوعي الإنساني الاجتماعي ويبدو لنا واضحا من هذه الأفكار أن مدخل الصراع عند ماركس هو مدخل متطور وديناميكي في آن واحد. (18) يرى ماركس أن نمو الصناعة يؤدي إلى تقسيم العمل والتخصص وأن الصناعة أدت إلى تراكم الملكية الخاصة كما أن الصناعة هي محرك الرأسمالية الأساسي وأن اغتراب الطبقة العاملة سببه الصناعة بالدرجة الأولى والصحيح عنده أن يعود الإنسان الطبيعي من جديد.

بتطبيق الجدلية الهيجيلية على التفسير المادي للتاريخ الاجتماعي، استطاع ماركس أن يرى أن العناصر المادية هي التي تحدد العناصر الاجتماعية وتوجه المجتمع نحو الرأسمالية، وذلك نتيجة لزيادة تقسيم العمل، وزيادة الفائض في الملكية الخاصة نتيجة لاستغلال الجهد البشري. عليه فإن الجدلية التي تنطلق من داخل الرسمالية يمكن أن ينظر إليها بالمقابل على أنها بداية الطريق نحو الاشتراكية، التي عن طريقها ستكون العودة إلى الإنسان الطبيعي وذلك عندما يعيد الإنسان توحده مع بيئته الطبيعية والاجتماعية.

الصراع الاجتماعي في هذه الحالة سيكون نتيجة للجدل القائم بين البناء التحتي والبناء الفوقي عندما تحاول الإنسانية مواجهة حاجاتها الأولية على أسس متغيرة ومتطورة باستمرار. فعلم الاجتماع طبقاً لوجهة النظر هذه يمثل الدراسة التاريخية لتغير البناء الاقتصادي للمجتمع كأساس للصراع الاجتماعي وأخيراً المجتمع ما هو إلا توازن مؤقت لهذه الجدلية في مراحل محددة من تطوره الاقتصادي.

أما بالنظر إلى منهجه العلمي فإننا نجد ماركس عُرِفَ بشكل كبير بجدليته المادية كمدخل للتاريخ الاجتماعي وهذه الجدلية متجذرة في الفلسفة الألمانية وعلى وجه الخصوص عند فردريك هيجل، حيث يرى أنصار المادية الجدلية أن ثمة مجموعة من القوى كامنة داخل الظاهرة تدفع بها إلى التغير تتمثل في وجود القضية والنقيض ثم ظهور مركب جديد أو حالة ثالثة تجمع بين الحالتين المتعارضتين ويتحول هذا المركب إلى حالة أو قضية جديدة يوجد نقيضها وتستمر الدورة، وهكذا تكون الظاهرة الاجتماعية في صيرورة مستمرة. ومن هنا نرى أن التطور الجدلي يركز على حركية (ديناميكية) تطور وتغير الظواهر.

وقد أخذ ماركس هذا الاختراع الفلسفي وحاول تطبيقه على وجهة النظر المادية للمجتمع التي ناقشناها منذ قليل. وطبقا لذلك فإنه يعتقد أن البناء المادي للمجتمعات يفسر تغيرها وتطورها المستمر. وعندما طبق ماركس وجهة النظر الجدلية هذه على التاريخ حدد لنا مراحل تاريخية جدلية اجتماعية تبدأ بالشيوعية البدائية وتنتهي بالاشتراكية وذلك على النحو التالي:

الشيوعية ← البدائية ← الرق ← الإقطاعية ← الرأسمالية ← الاشتراكية.

على هذا الأساس فإن الجدلية المادية أصبحت أداة علم اجتماعية (سوسيولوجية) في التحليل التاريخي للتطور الاجتماعي، كما أدت هذه الأداة إلى اكتشاف القوى المادية التي تتألف مع بعضها والقوى المتناقضة التي تقود بدورها إلى تغيرات في البناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع.

باستخدام هذه الأداة حاول ماركس خلق علم اجتماع تاريخي يهتم بالعلاقات المتغيرة بين أسلوب أو طرق الإنتاج في المجتمع والبناء الاجتماعي. حيث طور تاريخ النظم الاجتماعية، محاولا بذلك تجريد الأحداث والنتائج النظرية المجردة من العمليات الاجتماعية قاصدا من وراء ذلك هدفا أيديولوجيا وهو تقديم قاعدة علمية للاشتراكية. وهكذا يكون هدف التحليل الاجتماعي عند ماركس هو تحليل التغير الاجتماعي بالدرجة الأولى. (19) ويمكن تلخيص نمط المجتمع عند ماركس أو نموذجه العلمي في دراسة المجتمع في أنه استخدم

منهجه المتمثل في الجدلية المادية لتحديد عدد من المراحل الاجتماعية للتطور تمثل الأنماط السائدة للإنتاج في كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي. ويبدأ نموذجه التطوري هذا بالمرحلة القبلية التي يسيطر عليها نمط إنتاج متمثل في الصيد البري والمائي والزراعة، والمجتمع خلال هذه المرحلة أبوي بالضرورة أي يخضع للسيطرة الأبوية، وتقسيم العمل يمثل امتداداً للنسق العائلي، لذلك يمكن القول إن تقسيم العمل، والملكية الخاصة أي الفردية، كانا محدودين جداً خلال هذه المرحلة، ويمثلان أبسط أشكالهما.

أما عندما تندمج مجموعة قبائل مع بعضها فإنها بهذا الاندماج تتحول إلى مرحلة التكتلات الاجتماعية البدائية أو ما يعرف بالمرحلة الكميونية(*) Communalism وهي المرحلة التي سادت فيها العبودية وكانت تعتمد على استخدام الرقيق، وظهرت فيها بدايات الملكية الخاصة، ونظام تقسيم العمل، وبتقلص الزراعة بدأ التغير والتحول إلى نظام الإقطاع المبني على أسلوب السلطة الأبوية Paternalistic ونظام الاقتصاد المعتمد على الأرض الذي يسيطر فيه النبلاء من ملاك الأرض على الفلاحين الأقنان أو رقيق الأرض الذين صاروا مرتبطين بالأرض ارتباطا وثيقا. مثل هذا البناء على كل حال أصبح غير ملائم وانهار في مرحلة التحضر التي ظهرت وتطورت خلالها المدن البرجوازية، وزيادة الحاجة إلى الاقتصاد المعتمد على التصنيع والتأثيرات العامة لزيادة حركة التنقل بين أقطار العالم بعد الفتوحات الجغرافية التي أدت إلى اكتشاف قارات جديدة، الأمر الذي أدى إلى ظهور حركة الاستعمار التي عمت الكثير من مناطق العالم.

وكانت النتيجة الأساسية لهذه التطورات ظهور ونمو الرأسمالية، وهو النظام الذي احتكر فيه أصحاب رؤوس الأموال وسائل الإنتاج وموارد الثروة على هيئة رأس مال،

(*) الكميونية: مذهب الحكم المحلي وهو رأي يقول بأن المجتمع يجب أن يتكون من مجتمعات محلية Communes ذات حكم ذاتي متمتع باختصاصات وسلطات واسعة مع التقليل من مركزية السلطة التي تظهر في الوحدات السياسية الكبيرة. وهناك نظرية تقول بأن الدولة كناية عن اتحاد بين كميونات مستقلة.

وأصبح الجهد هو السلعة الأساسية التي يمتلكها العمال. وتكون الأيديولوجية المسيطرة هي مبدأ المنفعة utilitarian، والتوجه نحو الاستثمار النقدي، والمجتمع يصبح مقسماً إلى طبقات تتدرج بشكل هرمي على قمته المالكون، تليها طبقة المشرفين على الإنتاج (المديرين) ثم في أسفل الهرم طبقة العمال. وقد أوضح ماركس أن الرأسمالية لن تبقى ثابتة بشكل دائم، فمن خلال تزايد المشاكل المترتبة على الإفراط في الإنتاج Overproduction، أي أن تفاقم المشكلات المترتبة على الإنتاج يؤدي إلى زيادة اغتراب العمال، الأمر الذي يؤدي إلى أن تصبح البروليتارية طبقاً لمنظور ماركس منظمة تنظيما جيداً ويكون بإمكانها أن تثور ضد البرجوازية الرأسمالية.

وهكذا تبدأ عملية انحلال الرأسمالية دافعة المجتمع نحو قمة الغاية القصوى التي يسعى إليها ألا وهي حالة الاشتراكية اليوتوبية حسب وجهة نظر ماركس. ومن خلال هذا النسق تظهر الدكتاتورية الثورية للطبقة العاملة (البروليتارية) وتلغى الملكية الخاصة، ولا تكون هناك طبقات حيث سيتم إلغاؤها، ويتحول الفرد إلى إنسان اجتماعي، وتعود الوحدة بين المجتمع والطبيعة عندما تختفي الملكية الخاصة، ونظام تقسيم العمل من الوجود بالكامل، إلى حد ما فإنه عند هذه الوضعية تتضمن الاشتراكية عودة المجتمع إلى حالته البدائية الأولى وهي القبلية، حيث يكون الأشخاص منسجمين ومرتبطين بشكل كبير مع بيئتهم الطبيعية والاجتماعية. (20) كثير من هذا التصور المثالي لماركس من أجل خلق المجتمع المثالي لم يستطع الشيوعيون الذين جاءوا من بعده تحقيقها على أرض الواقع فإلغاء الطبقات يكاد يكون شبه مستحيل وإلغاء الملكية الخاصة كذلك يعتبر ضرباً من الخيال وعودة المجتمع إلى حالته البدائية تكاد تكون مستحيلة كذلك.

ثانياً: فلفريدو باريتو 1848- 1923م

ولد عالم الاجتماع الإيطالي ماركوس فلفريدو فريدريكو داماسو باريتو Marquis Vilfredo Frederico Damaso Pareto في باريس يوم 15 يوليو عام 1848م وكان والده

ماركوس روفائيل باريتو Marquis Rapheal Pareto ينتمي لعائلة نبيلة من جنوه بإيطاليا، هرب في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر إلى فرنسا. وكان يعتنق آراء الجمهوريين كما أنه كان من المؤيدين لتحرير مازيني Mazzini وكان مطلوبا قضائيا من قبل الأسرة الحاكمة التي ضمت جنوه Genovaفي عام 1815. وقد تزوج والده أثناء وجوده في المنفى من سيدة فرنسية هي ماري ماتيني Marie Metenier أنجب منها بنتين وولداً هو فلفريدو. وقد عمل والده كمهندس مدني في باريس وبدأ في إجراءات الحصول على الجنسية الفرنسية لكنه قرر في عام 1865 العودة إلى إيطاليا ليدخل ابنه إلى مدرسة ثانوية راسخة في التعليم التقليدي (الكلاسيكي) الإيطالي، وبعد أن أكمل باريتو تعليمه الثانوي في هذه المدرسة دخل إلى مدرسة (كلية) البوليتكنيك (الهندسة) في مدينة تورين الإيطالية وتخرج فيها مهندسا مدنيا مثل أبيه. وكان تركيزه على الرياضيات خلال السنتين الأولى والثانية من دراسته التي استمرت خمس سنوات، وقد تخرج في عام 1870م وكان عنوان رسالته: المبادئ الأساسية للتوازن في الأجسام الصلبة، إلا أن اهتمامه انصب فيما بعد على تحليل التوازن في الاقتصاد وعلم الاجتماع. (21) وهو ما صار شغله الشاغل طوال فترة حياته المليئة بالإسهامات العلمية المتميزة والتي شملت مختلف نواحي الحياة الاجتماعية.

عمل باريتو بعد تخرجه مديرا لشركة سكة حديد روما، وبعدها مديرا لشركة لإنتاج الحديد كان مقرها في فلورنس. كان باريتو في السنوات الأولى من حياته العملية يتردد على الصالونات الأرستقراطية وتنقل في الطبقات البرجوازية العليا، إلا أنه كان متتبعا لخطى والده حيث كان يعبر عن تحمسه للديموقراطية والجمهورية بل حتى بالنسبة للمشاعر السلمية عند والده. إلا أن هذه المشاعر تغيرت سريعا ورفض الابن بعنف المثاليات التي تشربها من والده. (22) واختط لنفسه مسارا جديدا بعيداً عن مسار والده المسالم بحيث صارا معارضا مشاكسا للقوى الحاكمة في بلاده وصار يسعى إلى الانضمام لصفوف المعارضة في بلاده بشكل صارم لدرجة أنه رشح نفسه لمقعد في البرلمان إلا أنه لم ينجح.

عندما سقط نظام التجارة الحرة اليميني الذي كان يحكم إيطاليا في عام 1876

وجاءت بعده فترة من حكم أحزاب اليسار المعتدل التي سيطرت على المسرح السياسي في إيطاليا فحولت سياستها بعيدا عن التجارة الحرة ومارست نوعا من الحماية وقادت إيطاليا إلى مغامرات عسكرية في الخارج. وتحول باريتو إلى معارضٍ عنيفٍ للنظام السياسي وهاجم في عدة مقالات صحفية النظام القائم، ويمكن تفسير معارضته هذه على أساس أنها كانت معارضة لتدخل الحكومة في نظام التجارة الحرة. وقد رشح نفسه في عام 1882 لمقعد برلماني معارض في دائرة فلورنس الانتخابية لكنه هزم من قبل مرشح الحكومة. وأصبح منذ ذلك الحين ساخرا باستمرار من الوضع السائد في إيطاليا، حيث رأى أن رجال الصفوة الحاكمة عبارة عن عصابة فاسدة يسعون إلى خدمة أهدافهم الخاصة مستخدمين مطارق السلطة ليجعلوا أنفسهم أغنياء. (23) ويبدو أنه في هذه المرحلة تسربت إلى فكره تأثيرات من الفكر الاشتراكي الذي بدأ ينتشر في أوروبا في تلك الفترة بتأثير قوي من ماركس وإنجلز رواد الفكر الاشتراكي حينها.

في عام 1882 توفي والده وبعد وفاة والده بعدة سنين توفيت والدته، في ذلك الوقت قرر باريتو أن يغير نمط حياته فتخلى عن عمله الرسمي وتزوج في عام 1889 من شابة روسية فقيرة صغيرة السن تدعى أليساندرينا باكونينAlessandrina Bakunin من فينسيا وانتقل من فلورنس شبه متقاعد ليقيم في فيلا في فيسولي Fiesole وكرس وقته للقراءة حيث كان يقرأ بست أو سبع لغات وتوجه إلى دراسة الاقتصاد. بعد أن تحرر باريتو من الوظيفة ركز هجومه اللاذع على سياسة الدولة الداخلية والخارجية ففي ما بين عامي 1889 و1893 كتب أكثر من 167 مقالة معظمها بلهجة عنيفة مضادة للحكومة بينما كان بعضها الآخر يتسم بالصبغة العلمية. (24) وبدأت أفكاره تلقى رواجاً في كثير من الأقطار الأوروبية خاصة وأنه كان يكتب بأكثر من لغة إضافة إلى الفرنسية لغة أمه والإيطالية لغة والده وازدادت أفكاره انتشاراً بعد ترجمة بعض أعماله إلى الإنجليزية.

نهدف من خلال استعراضنا بالتفصيل للظروف والملابسات التي مر بها كل منظر من المنظرين الذين تعرضنا لهم فيما سبق أو الذين سوف نتعرض لهم فيما بعد إلى التعرف

على تأثير هذه الظروف على تفكير هؤلاء المنظرين أي تأثيرها في تشكيل مسيرتهم العلمية والفكرية والعملية. فبالنسبة لباريتو هناك أحداث عديدة شكلت الخلفية التي انطلق منها أساس الموقف النظري لفكره منها أولاً عدم استقرار حياته حيث كان والده يتنقل بين إيطاليا وفرنسا واختلاف جنسية والديه مما جعله يتعرض لقيم اجتماعية وثقافية مختلفة وللغات مختلفة، وهي كلها عوامل ساعدت على تشكيل حياته منذ الطفولة وأثرت في فكره وتوجهاته السياسية في مرحلة الشباب والرجولة.

أما التحول الثاني فيتمثل في التعليم الأكاديمي لباريتو فقد درس الهندسة أولاً ثم درس الرياضيات التي كان لها تأثير بالغ على تفكيره المستقبلي ودرس العلوم الطبيعية وكتب فيها بحث تخرجه في عام 1870 عن "المبادئ الأساسية لتوازن الأجسام الصلبة" وقد وظف المعارف التي حصل عليها في هذا المجال في دراسة علمي الاجتماع والاقتصاد وقد تحول في آخر أيامه إلى دراسة علم الاجتماع السياسي وتاريخ المذاهب الاجتماعية والاقتصادية.

أما التحول الثالث فكان نتيجة للثروة الطائلة التي حصل عليها أثر وفاة أحد أعمامه وهو ما أدى إلى انتقاله من الحياة العصامية النشطة إلى الحياة الأرستقراطية المترفة بعد أن أصبح ثريا. فبعد وفاة أحد أعمامه في سنة 1898 أوصى له بثروة كبيرة، أصبح بفضلها متحررا اقتصاديا وقادرا على أن يرتب حياته بشكل لم يستطع المرتب الأكاديمي أن يوفره له من قبل فبنى منزلا مناسبا في سليني Celigny القريبة من لوزان لكنها تتبع إقليم جنيف حيث الضرائب فيها أقل من الضرائب في لوزان. وقد اتسمت حياته الاقتصادية بعد ذلك بنوع من الاستقرار، والانغماس أكثر فأكثر في ملذات الحياة. وقد مكنته تلك الثروة من العيش حياة مترفة في سكنه وملبسه ومأكله ومشربه وتمكن من التفرغ للبحث العلمي، حيث لم تمض إلا سنوات قليلة بعد ذلك إلى أن صدر له مؤلفه النظم الاشتراكية.

أما التحول الرابع الذي حدث لمسار حياته فهو يتمثل في مجموعة التحولات الأيدولوجية التي طرأت على موقفه الاجتماعي. إذ نجده في بداية حياته تابعا لأبيه أيديولوجياً فكان

جمهورياً ديموقراطياً مسالماً. غير أننا نجده في مرحلة لاحقة من حياته يشن هجوما على النظريات الليبرالية الديموقراطية والاشتراكية الماركسية خاصة. ثم ينقلب من اليسار الليبرالي ويتحول إلى الوقوف ضد أي شكل من أشكال الفكر الديموقراطي. ثم يتحول من النزعة الإنسانية التي تميز بها تفكيره المبكر من معاداة للاستعمار والحرب إلى إدانته للنزعة الإنسانية التي اعتبرها تمثل عاطفة ضعف في الطبقة الحاكمة أو عاطفة تشهد على تدهور الصفوة الحاكمة. "وفي إطار ذلك فإنه بإمكاننا أن نصل إلى استنتاج رئيسي يذهب إلى أن باريتو كان ليبراليا إنسانيا ديموقراطيا في فترة حياته الأولى، غير أنه حينما امتلك الثروة وعاش الحياة المريحة، بدأ يمارس انعكاسا لهذه المرحلة، حياة لا إنسانية، يؤكد فيه على الصراع والقوة والرواسب ذات الفاعلية في حركة التاريخ والمجتمع" (26) وهنا صدق عليه قول ماركس بأن الماديات تحدد الأيدولوجيات أي أن تغيره الأيديولوجي الأخير كان بسبب الثروة التي هبطت عليه من السماء أثر وفاة أحد أقاربه وأثرت في فكره بشكل ملحوظ.

خلال سنوات حياته العلمية استطاع باريتو أن يكون صلات وعلاقات متعددة مع رجال الاقتصاد والسياسة على السواء، فنجده ينضم إلى عضوية جمعية آدم سميث الاقتصادية التي أسسها فرانسيسكو فيرارا Francesco Ferrara، وفي هذه الجمعية اتصل باريتو بأفكار الاقتصاديين الليبراليين أمثال دي جوهانزDe Johannis ومارتيلو Martello وبنتاليوني Pantaleoni الذي أصبح صديقا حميما له، وهو الذي وجه اهتمام باريتو نحو نموذج التوازن الرياضي في الاقتصاد الذي طوره ليون ولراس Leon Walrasأستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة لوزان Lausanne. ومنذ ذلك الوقت كتب باريتو عدة مقالات في النظرية الاقتصادية تعكس وجهة نظر ولراس، نشرت في عدد من الدوريات الإيطالية والفرنسية. (27) وفي يونيو 1891 قدَّم بنتاليوني Pantalleoni باريتو إلى والراس Walras بهذه الكلمات "إنه مهندس مثلك، واقتصادي ليس مثلك، لكنه يأمل أن يكون مثلك إذا ساعدته" وأصبح والراس مريضاً على نحو خطير بعد ذلك اللقاء، وعندما اضطر

والراس إلى ترك التدريس أقنعه بنتاليوني أن يقترح اختيار باريتو خليفة له. في أبريل سنة 1893 انتقل باريتو إلى جامعة لوزان Lausanne حيث عين أستاذا مؤقتا للاقتصاد السياسي وبعد سنة من ذلك التاريخ تم تثبيته على وظيفة أستاذ وكان حينها في منتصف الأربعينيات. وباريتو يعتبر نفسه من اللبراليين اليمينيين وكان قد أوى الكثير من الاشتراكيين واليساريين الذين قرروا هجر البلاد بعد أحداث الشغب التي حدثت في ميلانو في مايو 1898م.

صار باريتو أكثر نزوعا لبغض بني البشر وفقد إيمانه بالإنسانية، عندما عاد من رحلة إلى باريس، ليجد أن زوجته هربت متخفية سرا مع طباخه وذلك بعد أن أخذت معها ثلاثين حقيبة مملوءة بما خف حمله وغلا ثمنه. وبما أنه مازال مواطنا إيطاليا على الرغم من أنه كان يعيش في سويسرا فإنه لم يستطع الحصول على حكم بالطلاق طبقاً للقانون الكنسي. وكل ما أمكن عمله هو الحكم بالتفريق بينه وبين زوجته في المضجع والطعام. (29) مثل هذه الحالة من العلاقة الزوجية انتهت الآن في إيطاليا بحيث صار الطلاق مقبولا في بلاد باريتو في الوقت الحاضر بعدما كان محرما في الماضي إلا في حالات نادرة جداً.

تنوعت المجالات التي عمل فيها باريتو بين العمل الأكاديمي والعمل في مجالي الاقتصاد والسياسة. وقد عايش الكثير من الصراعات السياسية في إيطاليا المتمثلة في الكفاح من أجل الحرية والوحدة وكذلك الصراع بين الأحزاب اليمينية واليسارية. وقد تأثر بأفكار ميكافيلي والنظريتين: الوضعية والداروينية. أما أهم أعماله العلمية فهي كتابه دروس في الاقتصاد السياسي (1896-1897) وكتابه النظام الاشتراكي 1901 (30) وكتابه مقدمة في علم الاجتماع 1916 باللغتين الفرنسية والإيطالية، وترجم في عام 1936 إلى الإنجليزية بعنوان جديد هو العقل والمجتمع. وكانت هذه الترجمة أفضل بكثير من الكتاب الأصلي. ويرجع ذلك إلى عدة اعتبارات منها أن هذه الترجمة أرجعت كافة الاقتباسات إلى مصادرها الأصلية (وهو ما أهمله باريتو)، واشتملت كذلك على فهرس ممتاز، كانت له فائدة كبيرة نظرا لما تميز به كتاب مقدمة في علم الاجتماع من إسهاب وعدم تنظيم. وكان من نتيجة ظهور هذه الترجمة زيادة الاهتمام بباريتو وبخاصة في الولايات المتحدة منذ أواخر عام

1920. (31) يبدو أن اطلاع الأمريكيين على فكر باريتو كان قبل ظهور الترجمة المشار إليها أعلاه بمدة تزيد على عقد ونصف من خلال مقالاته التي نشرت بعدة لغات لكن المؤكد صيته قد ذاع في أمريكا بعد ظهور ترجمة مقدمة في علم الاجتماع في عام 1936 وتهافت عليه المختصون في علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية.

عندما استولى موسليني Mussolini على السلطة في إيطاليا في السنة الأخيرة من حياة باريتو أعتبر موسليني نفسه من أتباع ومريدي باريتو وأمطره بسيل من التكريم والتقدير وقد ذكر موسليني أنه عندما كان يعيش منفيا في سويسرا انتسب إلى موضوعين من المواضيع التي كان باريتو يقوم بتدريسها في جامعة لوزان إلا أن هناك شكوكاً حول انتظام موسليني في أي من الموضوعين، بل لقد اعتبر موسليني "فكر باريتو هو أساس العقيدة (الأيدولوجية) الفاشية أو الأساس الأيديولوجي للعقيدة الفاشية، وقد كتب موسليني يصف نظرية باريتو عن الصفوة يقول: "إن هذه النظرية تمثل ذروة مفاهيم علم الاجتماع في هذا العصر". (32) وقد منح موسليني باريتو مقعدا في مجلس الشيوخ في المملكة الإيطالية. ومع ذلك فإنه يمكن القول إنه كان من صالح باريتو أن يرفض هذا العرض، إلا أنه من المعروف أن باريتو كان قد رحب بالفاشية مع بعض التحفظ. كما عين باريتو من قبل الفاشيين مندوبا في لجنة نزع السلاح في جنيف، ووجهت له الدعوة بأن يساهم في التأريخ لحياة موسليني الشخصية، إلا أنه لأسباب صحية لم يقم بأي من تلك المهام. وقد توفي باريتو عام 1923 بعد حياة حافلة بالأحداث العلمية والاجتماعية والسياسية.

يمكن النظر إلى أهداف باريتو العلمية التي كان يسعى إلى تحقيقها من خلال مسيرته العلمية الحافلة بالعطاء العلمي تتلخص في أن هدف باريتو الأساسي كان منصبا على أن يعرف ويفسر القوى الحقيقية التي تحدد حالة التوازن في النسق الاجتماعي. هذه القوى لا تتضمن التأكيد على استاتيكية الأوضاع الاجتماعية، لكنها تركز على الديناميكا الاجتماعية Social Dynamics للصراع والتغير. العناصر الرئيسية وراء هذه العمليات بالنسبة لباريتو العناصر الجزئية التي تتكون من حالات نفسية وعلاقات اجتماعية وهي العناصر التي

تُعَرِف بدورها الفعل الاجتماعي والعمليات الاجتماعية. لقد كانت نظرية باريتو معيارية واستقرائية تعتمد على المذهب الطبيعي وفكرة الرواسب(*) المبنية على الطبيعة بوصفها العنصر الأساسي في فهم المجتمع. (33) أما مساهمات باريتو الأساسية فتتلخص في تأكيده لضرورة خضوع علم الاجتماع للمتطلبات العلمية وتصوره للمجتمع كنسق يحقق توازنا ديناميا. وفيما يتعلق بهذا المفهوم الأخير نجد أن القضايا التي قدمها باريتو بصدد ميل الأنساق الاجتماعية نحو استعادة توازنها إذا ما طرأ عليها اختلال، بالإضافة إلى العوامل التي تسهم في تحديد ظروف الأنساق الاجتماعية، وأهمية السلوك غير المنطقي في الحياة الاجتماعية، والطابع الدوري للتغير الاجتماعي، الذي يتميز بوجود فترات تغير بطيئ، تتبعها تعديلات سريعة، كل هذه القضايا يمكن اعتبارها صياغات جديدة تتسق عموما مع الظروف الواقعية. (34) أما بالنسبة لافتراضاته العلمية فإنها كانت تتلخص في أنها تستند على مسلمتين أساسيتين هما:

أولاً: إن علم الاجتماع هو العلم الذي يسعى إلى تحليل شروط توازن الأنساق الاجتماعية تحليلا علمياً.

ثانياً: ضرورة التفرقة بين الفعل المنطقي والفعل غير المنطقي أي العقل والفعل في المجتمع وبناءً على ذلك يمكن تحديد افتراضاته العلمية على النحو التالي:

1- افتراض باريتو الأساسي هو أن النشاط الاجتماعي يمكن أن يقسم إلى نمطين أساسيين هما: النشاط المنطقي الذي تكون فيه الغايات الموضوعية والذاتية متساويتان والنمط غير المنطقي الذي تتباين فيه تلك الغايات. وينهض تحليل القوى الداخلية على التمييز

(*) مجموعة من الدوافع والنزعات الإنسانية تستتبع أنواعا من الاستجابات وضروبا من السلوك غير المباشر بمعنى ان هذا النوع من السلوك لا يعتبر التعبير المباشر لإرضاء الدافع. والراسب ليس غريزة ولكنه وسيلة تخفي وراءها هذه الغريزة أو الدافع الأصلي ومن ثم كان الراسب غير منطقي لأنه يعمل على إخفاء عمل الدافع الأصلي ويظهر بصورة غير صورته الحقيقية.

بين السلوك (الفعل) المنطقي وغير المنطقي(35). ويكون الفعل منطقياً - حسب رأي باريتو - إذا ما استطاع أن يحقق غايته بطريقة موضوعية، وإذا كانت الوسائل المتبعة تتفق موضوعيا مع هذه الغاية في إطار أفضل معرفة متاحة. أما الأفعال التي تخرج عن هذا النطاق، فيعتبرها جميعاً أفعالا غير منطقية. (على أن ذلك لا يعني أنها أفعال مخالفة أو مضادة للمنطق) وفي ضوء ذلك لنا أن نتوقع أن تكون الأفعال المنطقية نادرة إلى حد بعيد. (36) إذن يمكن القول إنه ركز على الأفعال المنطقية والأفعال غير المنطقية وسبب ندرة الأفعال المنطقية عنده هو كونها تحتاج إلى التحقيق العلمي حتى نتأكد من كونها منطقية.

2- فضلا عن ذلك رأى باريتو أن معظم النشاط الاجتماعي يتكون من النمط الأخير (غير المنطقي) وهو الفعل المؤسس على حالات نفسية ومبني على الطبيعة، وغريزة التكامل. والسلوك غير المنطقي لا يظهر فيه عادة ارتباط موضوعي وذاتي بين الوسائل والغايات.

3- الأفكار غير المنطقية اعتبرت أساساً لعدد من فئات أو أنماط القوى أو الرواسب التي تحدد التوازن الاجتماعي. والفئة الأولى هي: غريزة التكامل (مثل الامتصاص والتشابه العام) وتعني القدرة على الربط بين الأشياء والقدرة على التفكير، والابتكار، والتخيل، والأصالة. أما الفئة الثانية فهي: راسب استمرار الجماعات ودوامها مثل العلاقات العائلية، واستمرار العلاقات بين الفرد وغيره من أفراد الجماعة، وذلك يشير إلى الاتجاه المحافظ. والفئة الثالثة: هي راسب الحاجة إلى التعبير عن الوجدانيات (العواطف) عن طريق أفعال خارجية كالجاذبية الدينية التي يدخل في نطاقها صياغة التبريرات العقلية، أو التعبير عن الذات. والفئة الرابعة هي: رواسب متصلة بالتنشئة الاجتماعية مثل التكيف، الشفقة، القسوة، التضحية بالنفس أو الدافع إلى تكوين مجتمعات وفرض سلوك محدد. والفئة الخامسة هي: راسب تكامل الفرد مع من يتبعونه (المساواة، الأمن) أو التكامل الشخصي، وهو الذي يعمل على إتيان بأفعال تعمل على استعادة التكامل إذا طرأ عليه تغيير مثل الأفعال التي تعتبر مصدرا للقانون

الجنائي. والفئة السادسة: تضم راسب الجنس. هذه الرواسب أو القوى الاجتماعية تحدد الفعل الاجتماعي والتوازن واستمرار الجماعات.

4- الرواسب Residues مدعومة اجتماعياً بواسطة المشتقات (المستنتجات) Derivations أو عمليات العقلنة الاجتماعية المبنية على الحاجة الإنسانية للمنطق. وقد رتب باريتو هذه العمليات على النحو التالي: الفئة الأولى: التأكيد أو الجزم Assertion، الفئة الثانية: السلطة Authority، الفئة الثالثة: التوافق مع العواطف أو المبادئ Accords With Sentiments or Principles، والفئة الرابعة: البراهين اللفظية Verbal Proofs. على هذا النحو تعمل الرواسب في الواقع الاجتماعي من خلال الأسس المنطقية المعيارية أو المشتقات (المستنتجات).

5- الرواسب تتوزع بتفاوت في المجتمع من خلال البناء الطبقي وبذا تعمل على التوازن الاجتماعي والتوافق. وبتغير توزيع الرواسب وبالتحديد الفئة الأولى التي هي غريزة التكامل والفئة الثانية التي هي استمرار الجماعة ودوامها يتغير هذا التوازن إلى حالة تتعاقب فيها السلطة بين الصفوة الحاكمة والصفوة غير الحاكمة. هذه التغيرات في توزيع الرواسب - حيث أفراد الطبقات العليا يتشربون الكثير من القيم المتدنية وأفراد الطبقة الدنيا يحصلون على الكثير من القيم ذات الدرجة الرفيعة - هذه التغيرات هي سبب الثورات التي تؤدي إلى التأرجح بين نوعين من الصفوة المسيطرة. وهما الأسود التي تحركها رواسب الفئة الثانية والثعالب التي تحددها رواسب الفئة الأولى. هذا التبادل بين الأسود والثعالب ثابت ومستمر ومعتمداً بشكل كبير على تغير توزيع رواسب الفئة الأولى والفئة الثانية. عند هذه النقطة يكون توازن المجتمع معتمداً على تغير توزيع الرواسب التي ينتج عنها استمرار المنافسة والصراع والتعاقب.

6- وأخيراً فإن باريتو نظر إلى المجتمع باعتباره نسقاً تبادلياً يتكون من عناصر رئيسية ثلاثة هي:

أ- عوامل طبيعية وأوضاع اجتماعية.

ب- عوامل خارجية (تأثير المجتمعات الأخرى)

ج- عوامل داخلية (العرق، الرواسب، المترتبات) يمكن القول إن هذه العناصر الثلاثة متداخلة ومتبادلة وديناميكية التأثير.

أما إذا انتقلنا إلى منهجه العلمي فإننا نجد أن باريتو يرى أن تركيز علم الاجتماع يجب أن يكون على التحديد والتصنيف وتوزيع الرواسب في المجتمع وكذلك تتبع إيقاعها وتغيرها. أما التقنيات المناسبة لذلك فهي استخدام الملاحظة العلمية والتجريب إضافة إلى التركيز على العلاقات الوظيفية، التوترات، الانتظام، الارتباطات. عموما فإن علم الاجتماع من الممكن أن يستخدم الدراسة العلمية للرواسب في المجتمع.

إن أهم ما يميز منهج باريتو في علم الاجتماع هو تأكيده للطابع العلمي (الإمبيريقي). ويرى باريتو أن ما يجنبنا الوقوع في هذه الفجوات غير العلمية، هو أن يستخدم علم الاجتماع المنهج التجريبي المنطقي، والذي يعتمد أساساً على الملاحظة والاستنتاج المنطقي وفقاً لقواعد الاستقراء الأساسية التي حددها جون ستيوارت مل فالعالم التجريبي (القابل للملاحظة) - في رأي باريتو - يتكون من ظواهر وعلاقات من الممكن إدراكها بالحواس، وعادة ما يتيسر إخضاعها للقياس. ومع ذلك كله، فقد عالج باريتو في كتابه (المقدمة) - بتعمق - مجموعة من الظواهر التي لا تنتمي إلى هذا العالم التجريبي، وإن كانت تقوم بدور كبير في الحياة الاجتماعية. وهذه الظواهر هي: الأفكار، والمجردات، والآراء، والمعتقدات، والعواطف. ولكنه اعتقد أن مهمته الأساسية تتمثل في أن يجعل من هذه الظواهر وقائع ممكنة الملاحظة، بحيث تنتمي إلى عالم الوقائع كما حدده هو. (37) من هذا نرى أنه كان يرى أن علم الاجتماع يجب أن يركز على المنهج التجريبي المنطقي الذي يعتمد الملاحظة والاستنتاج المنطقي وفقا لقواعد الاستقراء الأساسية.

وهكذا، يطالب باريتو أن يكتسب علم الاجتماع تلك الخصائص العلمية التي تجعله معتمدا على ملاحظة الظواهر وإجراء التجارب عليها، إذ يتعذر إقامة علم اجتماع صحيح بدون المعايير المنطقية التجريبية، فقد انتهى عصر التأمل الفلسفي، والأحكام الأخلاقية

وأصبحنا الآن ننشد اكتشاف المبادئ التجريبية التي تصف وتفسر انتظام الظواهر الاجتماعية وتواتر وقوعها. (38) وهو في ذلك يرفض النتائج التي تعتمد على التأمل الفلسفي والأحكام الأخلاقية ويؤمن بإجراء التجارب وملاحظة الظواهر ملاحظة علمية دقيقة.

وقد أتضح التزام باريتو بالنزعة العلمية في كتابه المقدمة، حيث عرض لكثير من الملاحظات الناقدة لما يسمى بالنزعة العلمية الزائفة عند كل من كونت وسبنسر، كما نجد أيضاً إشارات ساخرة للديانات، العلمانية عن التقدم والإنسانية والديموقراطية. ويرى باريتو أن ما يجنبنا الوقوع في هذه الفجوات غير العلمية، هو أن يستخدم علم الاجتماع المنهج التجريبي المنطقي الذي يعتمد أساساً على الملاحظة والاستنتاج المنطقي وفقا لقواعد الاستقراء الأساسية كما حددها ستيوارت مل. فالعالم التجريبي في رأي باريتو يتكون من ظواهر وعلاقات من الممكن إدراكها بالحواس، وعادة ما يتيسر إخضاعها للقياس. (39) إذن العلاقات بين الظواهر التي تدرك بالحواس والتي يتم التأكد منها عن طريق المنهج هي هدفه الأساسي وليس الأحكام الأخلاقية والتأملات الفلسفية التي تؤدي إلى استنتاجات ذات نزعة علمية زائفة.

مما سبق نرى أن باريتو كان له منهجاً عملياً متميزاً مؤسساً على مبادئ وإجراءات وأدوات تساعده على تأدية وظائفه في ظل الإدراك الكامل للتفاعلات التي تحدث في نطاق الواقع الاجتماعي. وحيث إن باريتو من الرواد الذين عاصروا نشأة علم الاجتماع فإن منهجه استطاع مواجهة مجموعة من القضايا الأساسية، وكان عليه أن يناقش مشروعية علم الاجتماع باعتباره علما حديث النشأة وأن يحدد مجالاته الرئيسية.

يمكن القول إن نمط المجتمع عند باريتو يتلخص في نموذجه النظري الذي ضمنه في وصفه لنمطين رئيسيين من الصفوة الاجتماعية الأسود والثعالب. الأول مسيطر عليه من فئة الرواسب الثانية (استمرار الجماعة ودوامها) مجسدة في الصفوة العسكرية والدينية، وهم الذين يشددون على الولاء، والتضامن، والوطنية كقيم مركزية ومستعدون لاستخدام

القوة عند الحاجة. أما طبقة الثعالب بالمقابل فهي مجسدة في فئة الرواسب الأولى (غريزة التكامل) وهم في الغالب من الرأسماليين والمحتكرين التطوريين في توجههم والفاعلين في التكتل السياسي وإلى حد ما قادرون على تطوير الإمبراطوريات السياسية. المجتمع عادة يستند على توازن هذه العمليات الثابتة من دورة الصفوة التي تعتمد على توزيع هاتين الفئتين من الرواسب أو مجموعات الأفكار.

إن مصطلح الصفوة Elite عند باريتو ليست له أية دلالة أخلاقية أو شرفية. وإنما يشير إلى فئة من البشر المتفوقين في مختلف فروع النشاط الإنساني. يقول باريتو إنه من الأمور المساعدة لو أننا قسمنا طبقة الصفوة إلى فرعين الصفوة الحاكمة وتضم الأشخاص الذين يلعبون دوراً مهما بشكل مباشر أو غير مباشر في الحكومة، والصفوة غير الحاكمة وتضم البقية (التي تمتلك إمكانية المشاركة في إدارة شؤون الدولة لكنها لا تشارك فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أي أفراد لديهم القدرة لكنهم ليسوا في مراكز قوة). وقد تركز نقاش باريتو الأساسي على الصفوة الحاكمة. (40) والصفوة في أي مجتمع عادة ما تكون نسبتها صغيرة. "ويحتل تباين انتشار الرواسب بين الصفوات أهمية خاصة بالنسبة للمسائل الاجتماعية يفوق مدى انتشارها بين الجماهير. وفي ضوء مبلغ سيطرة الرواسب على الطبقة الأولى أو الثانية، نستطيع أن نميز بين نوعين من الأفراد: الأول يمثل المفكرين، Speculators والثاني يمثل المحافظين Rentiers. وحينما يسيطر المفكرون على الصفوة الحاكمة، يمر المجتمع بتغير سريع نسبياً، بينما يكون التغير بطيئا حينما يسيطر عليها المحافظون. (41) والخلاصة أن باريتو يتهم بأخذ بعض الأفكار التي وردت في كتاباته من بعض المنظرين لكنه رفض أن ينسب تلك الأفكار لهم ولعل المثال الواضح لذلك هو موقفه من جيتانو موسكا الذي أخذ فكرة نظرية الصفوة منه ويمكن القول بشكل لا جدال فيه أن موسكا سبق باريتو بسنوات كثيرة في صياغة الخطوط العامة لنظرية الصفوة وهو ما جاء في كتاب الطبقة الحاكمة لموسكا الذي صدر عام 1884 وذلك قبل إن يتناول باريتو هذا الموضوع بسنوات.

ثالثاً: روبرت إيزرا بارك 1864-1944م

ولد روبرت إيزرا بارك Robert Ezra Park يوم 14فبراير 1864 في مدينة هارفي فيلHarvey Ville بولاية بنسلفانيا إحدى الولايات المتحدة الأمريكية وقد كان والده يعمل بالتجارة وقد انتقلت أسرته بعد ولادته مباشرة إلى مدينة ريد ونج Red Wing بولاية مينيسوتا Minnesota حيث ترعرع على ضفاف نهر الميسيسبي وبعد حصوله على الثانوية التحق بجامعة مينيسوتا Minnesota على الرغم من معارضة والده، وبعد سنة من ذلك انتقل إلى جامعة متشجن Michigan في مدينة آن آربر An Arbor في الولايات المتحدة الأمريكية.

كان من حسن حظ بارك أن التقى في آن آربرAnn Arbor بمدرس شاب هو جون ديوي، وأصبح عضوا في جماعة طلابية تضم الطلاب المتشابهين في ميولهم وتفكيرهم وتوجهاتهم العلمية والذين كانوا يتحاورون في أغلب لقاءاتهم حول القضايا الاجتماعية التي كانت حديث الساعة في ذلك الوقت وذلك في ظل الأفكار الإصلاحية التي كانت منتشرة في كل الغرب الأوسط الأمريكي Mid-west. وقد قام جون ديوي بتقديم بارك إلى رجل عظيم هو فرانكلين فورد الذي كان له تأثير حاسم على تشكيل حياته العملية فيما بعد. لقد كان فورد صحفيا مهتما بتتبع أخبار الأوراق المالية (البورصة) وكان يعتقد بتأثير بعض الأخبار على السوق وكان يعتقد كذلك بأن التغير الذي يحدث للرأي العام يمكن أن يقاس بدقة، وأن التقدم من الممكن أن يسير إلى الأمام دون أن تقاطعه فوضى الكساد الاقتصادي أو العنف بل إنه من الممكن أن يسير بخطى سريعة رغم كل ذلك. (42) وقد حاول فورد وبارك إصدار صحيفة جديدة اقترحا أن تسمى أخبار الفكر Thought News تقوم بتسجيل الرأي العام كما إنها سوف تؤثر في حركة الرأي العام وذلك بتقديمها للأخبار الصحيحة. لكن هذه الصحيفة لم تر النور مطلقاً. إلا أن وجهات نظر بارك على الأخبار الحاسمة والمهمة وتأثير الرأي العام كانت تشكل بقدر كبير عن طريق محادثاته مع فورد.

وتحت تأثير الجو التقدمي الذي كان سائدا في جامعة متشجن قرر بارك بعد تخرجه

في عام 1887 أن لا يمارس نفس مهنة والده بل قرر اختيار المهنة التي يستطيع من خلالها التعبير عن اهتماماته الإصلاحية. وقد لاحظ بارك أنه يختلف عن زملائه في جامعة متشجن وذلك بعدم انغماسه في أحلام يوتوبيا أو برامج عمل إصلاحية. وحيث إن الصحافة هي المهنة التي تتيح فرصة الملاحظة المباشرة فقد قرر بارك أن يتخذ من الصحافة مهنة له.

من سنة 1887 إلى سنة 1898 عمل بارك في صحف يومية في مينيسوتا وديترويت Detroit ودنفر Denver ونيويورك وشيكاغو. وقد كلف بهمة خاصة وهي تغطية أخبار القطاع الحضري وقد غطى هذه الأخبار بعمق من خلال سلسلة من المقالات التي كان يكتبها من حين لآخر. فقد كتب عن ميكانيكي المدينة والفساد الذي أتوا به في صحوتهم. كما وصف الحالة القذرة لمناطق المهاجرين في المدينة والعالم الإجرامي المعشش هناك. وقد توصل بارك إلى أن ينظر للمدينة على أنها معمل طبيعي لدراسة الرجل الحضري الجديد الذي خلقه المجتمع الصناعي. وقد نمت معظم أعمال بارك الأخيرة واهتماماته البحثية في الأساس نتيجة لخبرته كصحفي.

في عام 1894 تزوج بارك من ابنة محامٍ مشهور في متشجن. وقد أنجب الزوجان أربعة أطفال. وبعد أربع سنوات من زواجه قرر بارك أن معرفته الإمبيريقية Empirical للطرق التي تصنع بها الأخبار يمكن توسيعها عن طريق الدراسة الأكاديمية ولهذا التحق بجامعة هارفارد Harvard لدراسة الفلسفة.

في جامعة هارفارد درس بارك علم النفس Psychology على يد منستيربرج Munsterberg والفلسفة على يد رويس Royce وجيمس James، وبعد حصوله على الماجستير في عام 1899 قرر الذهاب إلى ألمانيا لتوسيع معلوماته في مجال الفكر الاجتماعي، حيث انتسب أولاً إلى جامعة برلين ودرس على يد جورج زيمل الذي تأثر به كثيراً وباستثناء الدروس التي تلقاها على يد زيمل، لم يتلق بارك أي تعليم رسمي في علم الاجتماع.

عندما كان بارك في برلين تحصل على بحث يتناول قضية المنطق في العلوم الاجتماعية Gesellschaft und Einzelwesen وهو البحث الذي كتبه عالم الاجتماع الروسي

كستياكوفسكي Kistiakowski وهو البحث الذي كتب عنه بارك "أنه الشيء الأول الذي وجدته في أي مكان يعالج القضايا التي كنت مهتما بها بنفس الكيفية التي كنت أفكر بها. وحسب وجهة نظر بتريم سوروكين فإن كستياكوفسكي شرح في هذا البحث الذي صدر على هيئة كتاب مجموعة من وجهات النظر تتعلق بخصائص الميول في المجتمعات الحديثة التي كانت في أحوال كثيرة مشابهة لتلك التي طورها زيمل وكذلك التي تناولها تونيز في كتابه الجماعة والمجتمع وهو الكتاب الذي كان له تأثير كبير على بارك كما شكل الدعامة الأساسية لأفكاره مع ما اطلع عليه من كتابات أخرى. وباعتبار أن كستياكوفسكي كان طالباً لـ فلهلم فندلباند Wilhelm Windelband فإن بارك ذهب إلى ستراتسبرج ثم هيدلبرج لدراسة الفلسفة الكانتية الجديدة. وقد كتب رسالة الدكتوراه التي كان عنوانها Masseund Publikum تحت إشراف فندلباند. وعاد إلى هارفارد في عام 1903 حيث وضع اللمسات الأخيرة لرسالته وعمل لمدة سنة كأستاذ مساعد في الفلسفة". (43) وقد تخلى بارك عن طموحه في التدريس لأنه شعر بالملل من العمل الأكاديمي وفضل تتبع اهتماماته في علم الاجتماع من خلال كتابات بعض الاجتماعيين.

لقد بدت لبارك المشكلة الاجتماعية للزنوج على أنها واحدة من أهم أكبر المشاكل في أمريكا. وقد كان بارك مهتما بالقضايا العرقية التي يظهر أنها كانت محل تركيزه طوال حياته العلمية، وقد ترسخ هذا الاهتمام عندما عمل بارك مع بوكر واشنطن Booker Washington الذي كان يعمل كرئيس المؤسسة تاسكجي Tuskagee وقد انضم إليه ليشغل منصب سكرتيره غير الرسمي وكان دائما مصاحبا له في رحلاته لتأدية المهام العلمية أو الإدارية حيث ذهب معه في رحلة بحثية إلى أوروبا كانت نتيجتها كتاب واشنطن، الرجل الذي هوى إلى أسفل The Man Farthest Downوقد أجمع الخبراء على أن هذا الكتاب كان حصرا لآلام الطبقة الدنيا/الدنيا في أوروبا الذي كان معظمه قد كتب من قبل بارك. وقد عمل بارك مع واشنطن لمدة تسع سنوات وكان طوال هذه المدة يكن له كل احترام وتقدير. وقد أبدى مرة ملاحظة لـ إرنست برجس مفادها أنه تعلم من واشنطن أكثر

مما تعلمه من أي من معلميه. ويبدو أن بارك كان معجبا على وجه الخصوص ببراعة واشنطن ومهاراته في صنع استراتيجية وتكتيكات الفعل الاجتماعي.

وقد قابل بارك واشنطن للمرة الأولى عندما دعي ليكون سكرتيراً وممثلاً صحفياً لمؤسسة إصلاح الكونغو وهي جماعة من المصلحين التي كانت تهدف إلى جذب انتباه الرأي العام للظلم والفساد للاستعمار البلجيكي في الكونغو. وقد كان بارك يعتزم الذهاب إلى أفريقيا لدراسة الأوضاع هناك بشكل مباشر، عندما دعاه واشنطن إلى تسكجي Tuskegee وأقنعه بأن يبدأ بدراسة أوضاع الأفارقة في الجنوب الأمريكي وكنتيجة لذلك عدل عن فكرة الذهاب إلى أفريقيا وقضى سبع سنوات وهو يذهب في كل فصل إلى تسكجي Tuskegee ليقضي معظم الشتاء فيها وكان في البعض الآخر من تلك السنين السبع يتجول في الجنوب الأمريكي، متعرفا على حياة وعادات وأوضاع الزنوج في ذلك الجزء من أمريكا الذي يتركز فيه الزنوج. وقد كتب أثناء هذه الفترة عدة مقالات في مجلة كل الناس Everybody's Magazine عن جرائم الاستعمار البلجيكي في الكنغو.

عندما بلغ بارك الخمسين من عمره في سنة 1914 حدثت نقطة تحول أخرى في حياته فقد بدأ العمل الأكاديمي. باقتراح من وليام توماس قبل بارك القيام بالتدريس بصفة مؤقتة أثناء فصل الصيف في قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو حيث قام بإعطاء دروس عن الزنوج الأمريكيين. وبعد ذلك مباشرة تم تعيينه عضو هيئة تدريس دائماً في القسم واستمر في التدريس به حتى تقاعده في عام 1936.

إن نجاح بارك في جامعة شيكاغو لم يأت بسرعة. فعندما انضم إلى قسم علم الاجتماع كان مؤسس القسم وأبوه الروحي، ألبيون سمول Albion Small مازال المسيطر على القسم، وتوماس الذي انضم إلى القسم منذ عام 1896 مازال أكثر أعضائه إبداعا وفعالية. وما إن حل عام 1920 وعاد الطلاب من الحرب وكان سمول قد اقترب من التقاعد وتوماس أُجْبِرَ على التقاعد إثر فضيحة أخلاقية حتى أصبح بارك من أبرز أعضاء هيئة التدريس بالقسم.

على الرغم من أن محاضراته كانت محفزة على التفكير إلا أن سمعة بارك لم تكن معتمدة على هذه المحاضرات بالكامل. فقد كان يصر على أن يعرف كل طالب من طلابه معرفة شخصية وذلك عن طريق المقابلات والجلسات المطولة معهم. متعرفا على خلفياتهم الاجتماعية واهتماماتهم العلمية بأسلوب شخصي، بعدها كان بارك يعمل على مساعدتهم على تحديد مجالات اهتماماتهم البحثية وتطوير المشكلات البحثية الخاصة بكل منهم. لقد كان الأسلوب الذي اتبعه مع طلابه أسلوباً مستهلكاً لكل وقته لكنه كان في الوقت ذاته محببا إليه.

لقد أحضر بارك معه إلى الجامعة اهتمامه بالمدينة فقد كتب مرة عن نفسه أنه في الواقع مسح الكثير من أراضي المدن وسافر إلى كثير من مدن العالم أكثر من أي رجل آخر على قيد الحياة (في ذلك الوقت بالطبع) واستطاع عن طريق ذلك أن يتحصل على مفهوم محدد للمدينة والمجتمع المحلي والإقليم ليس كظاهرة جغرافية وإنما كنوع من النظام الاجتماعي. إنه البحث لهذا النوع من النظام الذي كان يحث تلاميذه على القيام به دائما. وقد أصبحت مدينة شيكاغو أعظم مختبر طبيعي لدراسة الإنسان الحضري وبيئته الطبيعية.

خلال التسع السنوات الأولى من تدريس بارك في جامعة شيكاغو كان يتقاضى نفس المرتب الذي كان يمثل الحد الأدنى لمرتب أستاذ جامعي، لكن باعتباره كان متفانيا في خدمة طلابه بإخلاص ولحصوله على مصدر آخر للرزق عن طريق الإرث فإنه أصبح يعطى دروسا بدون مقابل لدرجة أنه استلم رسالة رسمية من الجامعة تطلب فيها منه أن يعطي دروساً في أحد الفصول الدراسية بدون مقابل. وقد اكتشفت الجامعة أخيراً ما حدث لبارك وأرادت أن تنظم الأمور التي لم تكن منتظمة. وعليه تم تعيينه كأستاذ يعمل بشكل كامل مع الجامعة Full-Time Professor إلا أن ذلك لم يأتِ إلا في عام 1923 عندما كان عمر بارك تسعة وخمسين عاماً.

كان بارك رجلاً مليئاً بالحيوية، متمتعا بحياة مستقرة عندما كان أستاذاً في جامعة

شيكاغو فكان يبدو مكتنز الجسم قصير القامة وقد كان شعره الأبيض يبدو طويلا في كثير من الأحيان ربما لأنه لم يكن يذهب إلى الحلاق بانتظام. وكان يعيش حياة أستاذ الجامعة الذي يبدو مشغول الذهن دائما لدرجة أنه كان يظهر في بعض الأحيان أمام طلابه وصابون الحلاقة عالق بأسفل أذنيه كما كان يظهر في أحيان أخرى بملابس غير مرتبة. وكان في مرات كثيرة ينسى أين وضع كتاب ما وقد حدث في إحدى المرات أن حضر إلى مؤتمر علمي ونسي أن يحضر معه البحث الذي سوف يلقيه في المؤتمر. وقد حدث مرة أخرى أن كان يلقي محاضرته بهدوء تام بينما تقدمت إحدى الطالبات إلى المكان الذي كان يقف فيه لتصحح له ربطة عنقه التي كانت موضوعة على ياقته بشكل غير سليم.

كان بارك في حجرة الدرس يتمتع بصوت أجش وأسلوب طيب في المعاملة مع طلابه، وكان في بعض الأحيان مضطراً إلى أن يبين لطلابه أنه عندما يتحدث بغلظة أو قسوة في بعض الأحيان فإنه لا يعني أن يضايق أحداً ولكن هذا هو أسلوبه عندما يكون يفكر بعمق. وكان الدمع ينهمر من عينيه أحياناً عندما يخبر أحد طلابه أن الفكرة التي طرحها (الطالب) لا تساوي (دايم Dime)(*) أي لا تساوي تعريفة أو نكلة (على رأي إخوتنا في مصر). وقد كان رئيس القسم إلسورث فاريس Ellsworth Faris يجد أنه من الواجب أن يحيط طلاب الدراسات العليا الجدد علما بأن بارك واحداً من أعظم علماء الاجتماع وأنه يجب عليهم أن لا يبتعدوا عنه لمجرد كونه سريع الغضب فإنهم إن فعلوا ذلك سوف يحرمون أنفسهم من فرصة نادرة. وعندما يتعرف طلابه عليه ويكتشفون فيه القلب الطيب والرجل العطوف الذي يختفي خلف ذلك القناع الفظ الكاذب الذي يحب أن يظهره فإنهم يصبحون مخلصين له. ولهذا يمكن القول إن رجالاً قلائل كان لهم طلاب مثل طلابه مرتبطون به بعمق وكانوا على الدوام شاكرين له جهوده.

(*) الدايم: قطعة معدنية من العملة الأمريكية تساوي واحداً على عشرة من الدولار وهو ما يعني لا تساوي تعريفة أو نكلة على رأي إخوتنا في مصر.

تحصل بارك على الكثير من التقدير المهني أثناء حياته حيث ترأس العديد من الجمعيات العلمية وشارك في تحرير العديد من المجلات العلمية وكان أول رئيس لعصبة شيكاغو الحضرية Chicago Urban League وشغل إلى جانب ذلك العديد من المناصب والمهام العلمية. (45)

وقد تأثر بارك كما سبق وأن ذكرنا بتعاليم جورج زيمل وذلك أثناء وجوده في ألمانيا وبالتحديد في جامعة برلين. وقد تقلب خلال حياته بين العديد من المناصب العلمية والأكاديمية والمهنية فقد عمل فترة بالصحافة، ثم انتسب بفاعلية إلى مؤسسة الكونجو الإصلاحية وقد كان له دور قيادي من الناحية الأكاديمية في قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو، وقد تشرب بارك التقاليد التقدمية والمثالية الأمريكية كما تأثر بأعمال جون ديوي ووليام جيمس وزيمل، وتونيز لقد انتهج بارك نهجا أيكولوجيا في دراسته الموجة للمجتمع، وهي وجهة مبنية على فهم العمليات الاجتماعية مركزاً على المنافسة والصراع كنقطة ارتكاز للتغير الاجتماعي.

إلا أن بارك عندما كان يتكلم عن دراسته الجامعية في شيكاغو كان يذكر أستاذاً واحداً على الدوام هو جون ديوي ويبدو أن ديوي كان ذا أثر في تشكيل وجهة نظر الشاب بارك عن الدنيا: حيث قدمه إلى دنيا التقدمية التحسنية(*) والتعصب للديمقراطية وفلسفة الذرائع وهي المبادئ التي عملت مجتمعة على تشكيل الأساس العلمي الذي انطلقت منه أفكار بارك. وعلى الرغم من أن بارك لم يكتب مطلقا في قضايا فلسفية محددة، إلا أنه يمكن أن نستنتج من كتاباته أنه كان ينتمي إلى حركة الفلسفة الذرائعية العامة(46) وهو مذهب كان قد بدأ يسيطر على الحركة الفكرية في الولايات المتحدة في ذلك الوقت.

(*) التحسنية: الإيمان بأن العالم ينزع إلى التحسن وبأن في ميسور الإنسان أن يساعد على تحسينه.

لم يكن بارك كاتباً كثير الإنتاج كما قال عنه فاريس فهو على استعداد لأن يقنع غيره بكتابة عشرة كتب على أن يستقطع هو نفسه بعض الوقت ليكتب كتاباً واحداً، باستثناء أطروحة الدكتوراه فلم يكتب إلا كتاباً واحداً هو صحافة المهاجرين وكيفية ضبطها The Immigrant Press and Its Control في سنة 1922 وقد كانت أهم مساهماته عبارة عن مجموعة من المقالات ومقدمات كتبها لكتب أعدها طلابه وقد جمعت جميع هذه الأعمال في ثلاثة أجزاء تحت عنوان أوراق مجمعة Collected Papers، بالإضافة إلى كتاب مقدمة في علم الاجتماع Introduction to The Science Of Sociology الذي صدر في عام 1921 والذي شارك في تأليفه مع إرنست برجس الذي يعتبر المؤلف الأساسي للكتاب، ثم كتابه السلالة والثقافة Race and Culture الذي صدر بعد وفاته في 1950 (46). وعلى الرغم من قلة إنتاجه العلمي إلا أنه نال مكانة علمية متميزة بين أقرانه من أعضاء هيئة التدريس الجامعي وعليه فإن القراء المعتادين على أعمال مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع وخاصة على أعمال أكثر أعضائها تأثيراً روبرت بارك قد يستغربون كيف نقدمه على أنه أحد المنظرين مع العلم أنه كان قد كرس معظم وقته للبحث بدلاً من النظرية. الحقيقة أن بارك نفسه على الرغم من أنه كان مهتما كثيراً بالتقارير والوصف الاجتماعي الدقيق إلا أنه رأى أن مساهمته الأساسية تكمن في تطويره لمجموعة من المفاهيم التي سوف تمكننا من الترتيب والتبويب النظامي للبيانات الاجتماعية وتحليلها.

إن التقييم المعاصر لأعمال بارك يتفق تقريباً مع تقييمه لنفسه عندما كتب: نحن في علم الاجتماع عندنا الكثير من النظريات لكن لا توجد لدينا مفاهيم للعمل. فعندما يقترح أحد الطلاب عنواناً لأطروحة علمية أجد نفسي دائما وباستمرار أوجه إليه بعض الأسئلة مثل ما هو هذا الشيء الذي تنوي دراسته؟ ما هي العصابة أو الزمرة؟ ما هو الجمهور؟ ما هي القومية؟ إلى غير ذلك من الأسئلة. فإنا لا يمكنني أن أرى كيف يمكن أن يكون لدينا شيء مثل البحث العلمي دون أن يكون لدينا نظام من التبويب وإطار مرجعي نستطيع من خلاله أن نفرز ونصف بشكل عام الأشياء التي نود أن نستقصيها. وقد ذكر بارك وبرجس

في المقدمة تخطيطا تقريباً مبدئيا لمثل ذلك التبويب والإطار المرجعي. وفي هذا الخصوص يقول بارك: لذلك فإن إسهامي في علم الاجتماع لم يكن ذلك الذي كنت أقصده، فالذي قدم لم يكن في الواقع هو اهتمامي الأساسي، لكن الذي أنوي فعله هو الفحص المنتظم للخدمة الاجتماعية التي أجد فيها نفسي. فالمشكلة التي كنت مهتما بها كانت دائما نظرية بدلاً من كونها عملية.

كان بارك دائما يقول: إنه يبحث عن علاقات بين المتغيرات المبوبة لذلك كان مشغولا في بحوث موجة نظرياً بدلاً من الاهتمام بكتابة التقرير الوصفي فقط. وكما ذكر إفرت هوز Everett Hughes في إحدى ملاحظاته أن بارك لم تكن لديه الرغبة في تشكيل نسق معين ورغم ذلك فإنه كان عالم اجتماع نسقيا Systematic Sociologist.

عرَّف بارك علم الاجتماع بأنه "علم السلوك الجمعي" وهذا التعريف يقترح مسبقا أنه بينما كان بارك غير متنبه للحاجة إلى تحليل البناء الاجتماعي فقد كان مهتما بالدرجة الأولى بدراسة العمليات الاجتماعية التي كانت أكثر مرونة. ومن وجهة نظر بارك المجتمع يكون مفهوما أكثر إذا نظر إليه على أساس أنه نتاج لعملية التفاعل بين الأشخاص المكونين Component Individuals والمجتمع الذي تتحكم فيه التقاليد والمعايير التي تنبثق من عملية التفاعل. لهذا فإن الضبط الاجتماعي يكون هو "الحقيقة المركزية والمشكلة المركزية للمجتمع". "المجتمع في كل مكان يعتبر منظمة تحكم" وظيفته تنظيم ودمج وتوجيه الطاقات الكامنة في الأشخاص الذين يكونونه. طبقاً لذلك فإن علم الاجتماع ما هو إلا " وجهة نظر ومنهج لبحث العمليات التي عن طريقها يجند الأشخاص للتعاون ويقنعون بنوع من الوجود التعاوني الذي نسميه المجتمع. (47) هذه باختصار وجهة نظره في الكيفية التي يجب أن يعمل بها المجتمع والكيفية التي يجب أن ينظم عن طريقها أفراده.

بعد أن تقاعد من جامعة شيكاغو، كان بارك جاهزا دائما ليعطي الغير مما لديه من معرفة وخاصة طلاب العلم وقد انتقل إلى جامعة فيسك Fisk عندما كان في الثمانينيات

من عمره فكان يدرس للطلاب ويشرف على نشاطاتهم البحثية حتى توفي في مدينة ناشفيل Nashville بولاية تينيسيTennessee الأمريكية يوم 7 فبراير 1944 وبالتحديد كان ينقصه أسبوع واحد ليتم عامه الثمانين.

أما إذا أردنا الحديث عن أهدافه العلمية فإننا نجد أن بارك يرى أن علم الاجتماع يسعى إلى الوصول إلى القوانين الطبيعية والتعميمات بالنسبة للطبيعة البشرية والمجتمع بصرف النظر عن الزمان والمكان حيث إن القوانين الطبيعية عبارة عن تعبير يصف سلوك طائفة من الأشياء ناظراً إلى المجتمع باعتباره مطابقا للأنظمة الأخرى في المجتمع وقد ركز بارك على وظيفتها لأيكولوجية وبالتحديد التوزيع المكاني للأشخاص والجماعات. وقد كانت وجهة نظره قريبة من نظرية الصراع متمثلة في تركيزه على صراع الإنسانية مع الأيكولوجيا من أجل البقاء، وهو الذي تنتج عنه العمليات الديناميكية مثل الصراع والملاءمة أو التراضي المتبادل(*) Accommodation التي هي عبارة عن حالة مؤقتة في مسيرة تطور المجتمع المتواصلة. عليه فإن بارك قدم لنا نظرية صراع أيكولوجية تشبه ما قام به ماركس من تأكيده على الدور. (48) ويمكن تلخيص أهم افتراضات بارك العلمية في أن توجه بارك الأيكولوجي لدراسة المجتمع قاده إلى عدد من الافتراضات الأساسية التي يمكن إيجازها كما يلي:

1- إن أساس استقرار المجتمع يكمن في عملية التطور، وبارك مثل ماركس رأى أن التوازن الاجتماعي مبني على التطور الاجتماعي.

2- افترض بارك أن الكائنات البشرية مشتبكة باستمرار في صراع من أجل البقاء ضد المنافسة كعملية أساسية.

(*) التراضي المتبادل: هو أحد مظاهر التفاعل الاجتماعي، وهى الحالة التي يتفق فيها المتصارعون على إخفاء صراعاتهم ووقف التنافس بينهم مؤقتا. ويلجأ الفرد أو الجماعة إلى التراضي المتبادل بتأثير إدراك الموقف وتبين استحالة تحقيق فوز على الغريم ولا يلغي التراضي المتبادل الصراع أو ينهيه بل هو يؤجله فقط ويخفيه عن الظهور.

3- من خلال ذلك الصراع ينشأ النظام الطبيعي الذي يمكن تمييزه في التوزيع الإقليمي أو المحلي للأشخاص والجماعات وأيضا في تكافلهم.

4- من خلال هذا النظام البيولوجي BioticOrder فإن المنافسة تنتج العمليات الأيكولوجية المتعلقة بالسيطرة Dominance والتتابع Succession..

5- العمليات الاجتماعية الأساسية ضمن هذا النظام تتكون من المنافسة، والصراع والملاءمة Accommodation، والتماثل Assimilation.(*) الأولى وهي المنافسة التي اعتقد بارك إنها ظاهرة كونية وقد وصفها البيولوجيون بدقة وبوضوح حيث عرفت في معادلة تطورية على أنها "الصراع من أجل البقاء" إذن المنافسة شكل كوني أساسي من أشكال التفاعل الاجتماعي. إنه تفاعل بدون احتكاك: سواء إذا كانت المنافسة بين أعضاء الجماعة النباتية التي تتصارع لتقاسم نور الشمس أو بين الكائنات البشرية التي تتنافس على السلع الثمينة أو القيم، فالوحدة الفردية غير مدركة لمنافسيها. إنه فقط عندما تتقابل العقول إنه فقط عندما يكون المعنى الذي في أحد هذه العقول يوصل إلى العقل الآخر وبالتالي فإن هذه العقول يؤثر أحدها في الآخر بشكل متبادل، عندها فقط يمكن القول إن الاحتكاك موجود. المنافسة مبنية على العملية التطورية التي ينتج عنها تعاقب متلاحق من العمليات الاجتماعية تقود في الآخر إلى التماثل الثقافي.

العمليات الاجتماعية إذن مبنية على قوى طبيعية ضمنية خصوصا المنافسة على الموارد التي تقود إلى تعاقب مميز لهذه العمليات. الصراع إذن عالم بيولوجي تطوري تنشأ عنه نتائج اجتماعية خاصة. مثل هذا المدخل لم يكن يختلف بشكل واضح عن الصورة التي رسمها ماركس للصراع على الموارد التي تقود إلى أشكال خاصة من السيطرة وتؤدي في النهاية إلى الاشتراكية التي هي شكل من أشكال الملاءمة (49). والملاءمة تتطلب توقف

(*) التماثل: تماثل الأفراد والجماعات في طباعهم ومصالحهم وأهدافهم بفضل التكيف وبذلك يتقبلون ثقافة بعضهم بعضا، ويكونون من الأنواع الثقافية المختلفة نوعا واحدا يسودهم جميعا.

الصراع الذي يحدث عندما يثبت النسق بشكل مؤقت نصيب الأطراف المتلائمة من المكانات والقوة ويحدد علاقات المخضعين بالخاضعين التي يكون متحكماً فيها من خلال القوانين والأعراف. ففي الملاءمة تكون خصومة العناصر المتعادية قد قننت في الوقت الراهن على الأقل والصراع اختفى كفعل علني على الرغم من أنه قد يظل في حالة قوة كامنة.

بالمقارنة مع الملاءمة التماثل عبارة عن عملية التداخل والانتشار التي يكون فيها الأفراد والجماعات المشتركون في الخبرات والتاريخ متحدين مع بعضهم البعض في ثقافة مشتركة. بينما يبدو أن بارك قد شعر أن الثلاث عمليات الاجتماعية الأساسية الأخرى تعمل في مجال رحب من التفاعل الاجتماعي فقد أفرد مناقشة التماثل وخاصة في علم اجتماع الثقافة والعملية التي عن طريقها تستطيع الجماعات العرقية أو السلالية أن تندمج بسهولة في كلٍ أكبر من خلال افتراضه ميراثاً ثقافياً مشتركاً. وعندما ينجز التماثل فإن هذا لا يعني أن الفروق بين الأفراد قد تلاشت أو أن المنافسة والصراع قد توقفا ولكن هذا يعني أن هناك وحدة كافية للخبرة وطائفية التوجه الرمزي بحيث يبرز المجتمع المحلي المبني على وحدة الهدف والفعل.

6- النسق الاجتماعي حسب رأى بارك يتكون من أساس أيكولوجي وضعت على أساسه الأنظمة الاقتصادية والسياسية والمعيارية وهو يؤثر فيها بواسطة القوى التي تكلمنا عنها فيما سبق. وفي قلب هذا النظام تأتي وظيفة الضبط الاجتماعي وهي الحقيقة والمشكلة المركزية للمجتمع. التوازي هنا مع ماركس واضح مرة أخرى.

7- بهذا المدخل الديناميكي للمجتمع افترضت نظرية بارك أن التغير الاجتماعي يتواصل من خلال تعاقب مستمر من خلال عدم الرضا وعدم الاستقرار ثم إن الحركات الاجتماعية تؤدي أخيراً إلى إعادة البناء والتحوير المؤسسي.

8- وأخيراً فإن بارك رأى أن مفهوم الذات Self-concept للفرد لا يؤدى وظيفة مهمة لتحديد وضعه في ترتيب المكانات في المجتمع. لهذا فإنه رأى أن المؤسسات الاجتماعية

الكبيرة (العيانية) Macroscopic تعمل على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي النفسي كذلك.

الخلاصة أن بارك رأى أن المجتمع مبنى على أساس نظام أيكولوجي وعملية طبيعية من المنافسة والتطور. وطبقا لذلك فإن النسق الاجتماعي .يتكون من نظام أيكولوجي، اقتصادي، سياسي، معياري. يعكس هذه العمليات والوظائف أساساً لضبط الشخص وعملية المنافسة. وبتطوره فإن هذا النسق يتقدم خلال مراحل متتالية من المنافسة والصراع والملاءمة والتماثل التي تعمل من خلال المستويات الصغيرة (المجهرية) Microscopic ومن خلال مفهوم الذات Self-Concept عند الشخص. إن هذه النظرية للصراع الأيكولوجي تعتبر مطابقة لفكرة ماركس القائلة بأن الصراع طبيعي وكوني، الضبط الوظيفي للمجتمع، المراحل التطورية للتطور الاجتماعي، والأسس الاجتماعية للظواهر المعيارية. مثل هذه المشكلة الاجتماعية تعد مدخلا للديناميكا الاجتماعية وتعتبر كذلك أساسية لإطار الصراع.

عند الحديث عن منهج بارك العلمي نجد أنه في ظل التقاليد الأيكولوجية التي كان مهتما بها استخدم بارك في دراسته تقنيات التاريخ الطبيعي المكونة من دراسة الحالة ومدخل تاريخ سيرة الحياة. فمثل هذا المنهج استخدم لتتبع المراحل المتتالية من التطور عند كل المستويات من النسق الاجتماعي. مرة أخرى التوازي مع منهج الاستقراء التاريخي عند ماركس واضح جداً.

كذلك الحال عند تحديده لنمط المجتمع رأى بارك أنه يتكون من مفهومه الهرمي لمستويات التنظيم وهو نموذج أيكولوجي للنسق الاجتماعي. أساس هذا النسق أو قاعدته هي النظام الأيكولوجي أي (الحضارة والمجتمع المحلى)، الذي يتألف من التوزيع المكاني للأشخاص والجماعات أثناء صراعهم من أجل الحصول على مكان يمكن استغلاله أي بيئة مناسبة للمعيشة وهو يرتكز علي العملية الأيكولوجية وبعده يأتي النظام الاقتصادي الذي يهتم بإنتاج واستهلاك الأشياء والخدمات ثم يتبعه النظام السياسي الذي يركز على حل الصراع من خلال أساليب الجزاءات الاجتماعية وأخيراً النظام المعياري (الثقافة،

المجتمع) الذي يكون في المستوى الأعلى والذي يرتب النظام الذي تحته من خلال عمل القيم ومن خلال الإرث الاجتماعي للمجتمع على وجه العموم.

هذا النسق العام من التنظيم الاجتماعي يتأثر بالقوى الأيكولوجية للسيطرة والتتابع بالإضافة إلى المراحل المتتالية من الاتصال والتنافس والصراع والملاءمة والتماثل الثقافي.

ملخص واستنتاجات حول وجهة نظر بارك

لقد رأينا كيف أن بارك نظر إلى المجتمع على أساس أنه نسق طبيعي وقد طور مدخلا خاصاً بالصراع الأيكولوجي مستخدما عمليات أيكولوجية أساسية للنظام الاجتماعي، مدركا في نفس الوقت إن التنافس والتطور نظامان كونيان. وقد حاول تطبيق ذلك المدخل مستخدما تقنيات التاريخ الطبيعي بهدف تطوير نسق اجتماعي (يتكون من النظام الأيكولوجي، والاقتصادي والسياسي والمعياري) ويتكون من عددٍ من المراحل الأيكولوجية المتعاقبة (بالتحديد الاحتكاك، المنافسة، الصراع، الملاءمة، التماثل) كردة فعل لقوى السيطرة والتتابع. هذا النموذج العلمي أثار عددا من القضايا يمكن طرحها فيما يلي:

1- إن بارك كان مطابقا لماركس في وصفه للصراع والتطور على أنه طبيعي وكوني، والاستقرار الاجتماعي على أنه مبني على التطور، والمجتمع كنسق للضبط، ومراحل من الصراع الاجتماعي والظواهر المعيارية المبنية على تدرج المكانات.

2- القضية هنا هي إلى أي مدى يمكن أن يوجه التطبيق المباشر للعمليات الطبيعية والأيكولوجية على المجتمع لكن هذه القضية ستظل موضع تساؤل باستمرار.

3- إن مراحل بارك المتعاقبة واسعة وعامة لدرجة أنها تجعل عملية تطبيقها واستخدام إطارها النظري شبه مستحيل، حيث إنه من الصعب جداً أن نفرق من الناحية الإمبيريقية بين كل مرحلة وأخرى.

4- مرحلة بارك التماثلية كان قد وجه لها النقد باعتبارها غامضة ومن الممكن أن تكون متمركزة ثقافياً في تأكيدها على تماثل ثقافة الأقليات والصفوة. (50) وهكذا كان بارك

من منظري الصراع الذين أكدوا على أن الصراع نتاج عوامل مجتمعية على مستوى المجتمع ككل تهتم بأولويات المجتمع أو أولويات النسق وقد فسر المجتمع بأنه نسق طبيعي وقد طبق العمليات الأيكولوجية الأساسية عند دراسة النظام الاجتماعي.

رابعاً: ثورشتاين فبلن 1857- 1929م

ولد ثورشتاين فبلن Thorstien Veblen في مزرعة بمدينة مانيتووك Manitowoc بولاية وسكنسن Wisconsin يوم 30 يوليو سنة 1857وكان ترتيبه السادس بين إخوته الاثني عشر وكان والده مهاجرا نرويجيا قدم إلى أمريكا قبل ميلاد ابنه ثورشتاين بعشر سنوات وعندما بلغ هذا الابن ثماني سنوات انتقل والده إلى ولاية مينيسوتا Minnesota المجاورة ليعيش في مجتمع من المهاجرين النرويجيين بعيدا عن اليانكيين Yankees الذين لم يعد يلتقي بهم إلا أثناء اللقاءات السياسية أو المعاملات التجارية، وقد ألحقه والده بمعهد كارلتون Carleton College عام 1874 دون أن يستشيره في ذلك فلم يعلم فبلن بقرار والده إلا بعد أن وقفت العربة التي كانت تقله أمام المعهد الذي لم يسمع باسمه إلا في تلك اللحظة حيث وضع في حجرة خشبية بناها والده له ولإخوته داخل حرم المعهد وقد كان فبلن خلال السبعة عشر عاما الماضية يعيش في بيئة لا تتكلم اللغة الإنجليزية إلا نادرا حيث كان يعيش قبل إن يأتي إلى معهد كارلتون في شبه عزلة ثقافية تامة عن البيئة المحيطة به. (51)

كان تعليم فبلن في معهد كارلتون منصبا على الفلسفة الأخلاقية الكلاسيكية والدين والاقتصاد ولم يكن المعهد يدرس التاريخ الأمريكي البتة أما الأدب الإنجليزي فقد كان يدرس خلال فصل دراسي واحد في السنوات الدراسية المتقدمة.

عندما تخرج فبلن في عام 1880 شعر المسئولون في المعهد بالراحة، وعلى الرغم من أن فبلن يعتبر أشهر خريج لذلك المعهد حتى يومنا هذا إلا أنه لم يسمِّ أي مبنى أو قاعة تكريما له بل لم توضع حتى لوحة واحدة تحمل اسمه في إحدى قاعات المعهد. (52) وعندما أراد

أخيه اندريو (والد عالم الرياضيات الشهير اوزوالد فبلن) دراسة الرياضيات في جامعة جون هوبكنز قرر فبلن أن يصطحبه متوقعا أن يدرس الفلسفة هناك وبالفعل انتسب إلى جامعة هوبكنز.

عندما ذهب فبلن إلى الشرق الأمريكي كان فكره قد تشكل من خلال حركات الفلاحين المطالبة بالإصلاح الزراعي والحركات الراديكالية التي انتشرت في الجزء الغربي من وسط أمريكا Midwest بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية مباشرة. وعندما فتح أحد المنفيين الألمان إلى أمريكا بعد ثورة 1848 مكتبته لفبلن قرأ من خلالها الكثير عن كانت، وميل، وهيوم، وروسو، وغيرهم من عظماء المفكرين الذين لم يدرس أفكارهم خلال دراسته في كارلتون وقد كان فبلن ماسونيا وذا توجه راديكالي بشكل عام ولهذا كان من أنصار المساواة بين البشر. وقد عانى كثيراً من شعوره بالاغتراب أثناء وجوده في مجتمع الجنوب الذي تسود فيه ثقافة المترفين التي كانت سائدة في بالتيمور وجون هوبكنز.

عانى فبلن أثناء وجوده في جون هوبكنز ظروفاً مادية صعبة إضافة للعزلة والحنين لأهله وأسرته وعندما فشل في الحصول على منحة دراسية من الجامعة قرر الانتقال إلى جامعة ييل Yale لدراسة الفلسفة بإشراف رئيسها في ذلك الوقت القسيس نوح بورتير Reverend Noah Porter لكن فبلن لم يرتح كثيراً أثناء دراسته في ييل وذلك لسيطرة التأثير الديني على الفلسفة فيها وهو التوجه الذي يقوده بورتير رئيس الجامعة الذي نشب خلاف بينه وبين وليام جراهام سمنر الذي كان يقود التوجه العلمي المتأثر بأفكار هربرت سبنسر وقد انتصر الأخير في المعركة وتغير منهج الجامعة لصالح التوجه العلمي بدلاً من التوجه الديني. (53) وبعد أن أمضى سنتين ونصف في جامعة ييل عاد فبلن إلى أهله مهزوما متألما. فهو الآن تحصل على درجة الدكتوراه، لكن لا يوجد لديه مصدر للدخل أو حتى أمل في الحصول على منصب أكاديمي.

عندما عاد إلى أهله أعلن فبلن أنه مريض ويحتاج إلى عناية خاصة، إلا أن إخوته كانوا ميالين إلى الاعتقاد بأن ما يفعله ما هو إلا نوع من التسكع وهي خطيئة لا يمكن غفرانها

بسهولة في المجتمع الزراعي النرويجي الذي تنتمي إليه أسرته. في هذا الوقت كان فبلن قد قرأ كل ما وقعت يداه عليه وكان يتجول في الغابة، ويطلق العنان لنفسه ويقوم بدراسات عابرة للنباتات كما قام بكتابة بعض المقالات في بعض الجرائد، وفي سنة 1888 تزوج فبلن من إلين رولف Ellen Rolfe وهي ابنة لعائلة مهمة من الغرب الأوسط الأمريكي Middle West وقد روع والدها أن تتزوج ابنته من كسول ملحد ابن لمهاجر نرويجي، لكنه رضخ في آخر المطاف للأمر الواقع وأعطى الزوجين الجدد إحدى مزارعه في ولاية أيوا Iowa ليعيشا عليها. وقد تتبع فبلن مع زوجته أخبار حركة المزارعين الراديكاليين التي اجتاحت الغرب الأوسط الأمريكي باهتمام كبير. وقد قرأ معاً كتاب إدوارد بيلامي Edward Bellamy اليوتوبيا الاشتراكية Socialist Utopia الذي كان قد طبع لتوه في ذلك الوقت. وخلال فترة إقامته في ولاية أيوا Iowa انخرط بعمق في دراسة الاقتصاد. وبعد عشر سنوات من الإحباط قرر فبلن أخيراً العودة إلى الشرق الأمريكي لدراسة الاقتصاد وسجل في جامعة كورنيل في فصل الشتاء لعام 1891(54)

وهنا بدأت تظهر في حياته الكتابات الجادة حيث كتب ورقته الأولى في الاقتصاد والتي كانت بعنوان بعض النقاط المهملة في النظرية الاشتراكية Some Neglected Points in the Theory of Socialism تبعها بعدد من الأوراق التي كانت تنشر بانتظام في مجلة الاقتصاد الفصلية The Quarterly Journal of Economics.

أما المنصب الأكاديمي الملائم الذي كان يسعى إلى الحصول عليه دائما والذي لم يجده من قبل في حياته فقد وجده في جامعة شيكاغو University of Chicago التي عمل بها من 1892 إلى 1906 في عهد رئيسها المكافح ويليام هاربر الذي عمل على جذب العديد من أعضاء هيئة التدريس المتميزين الذين وجد فيهم فبلن خير من يعمل معه أمثال جون ديوي في الفلسفة ويليام توماس في علم الاجتماع وجاكو لوب Jacques Loebفي علم وظائف الأعضاء Physiology وغيرهم كثيرون.

بعد تركه جامعة شيكاغو في ديسمبر من عام 1906 إثر فضيحة أخلاقية أثيرت عندما

سافر إلى أوروبا عام 1904 واصطحب معه امرأة (لم تكن زوجته بالطبع) فما إن عاد حتى طلبت منه الجامعة أن يوقع على ورقة يتعهد فيها بأنه لن يعود إلى مثل هذا العمل ثانية لكنه رفض ذلك باعتبار أن ما قام به شأن شخصي لا دخل للجامعة فيه وهو الأمر الذي أدى إلى أن تكون أيامه في جامعة شيكاغو معدودة. (55) وهذا ما جعله يقبل العرض الذي قدمته له جامعة ستانفورد Stanford بشغل منصب أستاذ مشارك بها وبراتب مغرٍ فانضم لها في عام 1906 لكن سلوكه الأخلاقي ظل على ما هو عليه فعلى الرغم من عودة زوجته إليه إلا أنها ما لبثت أن تركته إثر فضيحة أخلاقية أخرى وقد طلبت منه إدارة الجامعة أن يستقيل في ديسمبر من عام 1909.

بعد أن أُجبر على الاستقالة من ستانفورد حاول فبلن الحصول عل منصب أكاديمي في أكثر من جامعة، لكن ما أن تعرف إدارات تلك الجامعات أسباب فصله من ستانفورد حتى كانت تتراجع عن تعيينه. وأخيراً استطاع أحد طلابه السابقين إقناع رئيس جامعة ميزوري Missouri بأن يعينه في كلية الاقتصاد التي كان ذلك الطالب عميدا لها. ورغم تحسن أوضاعه الأخلاقية بزواجه الثاني من امرأة كرست كل وقتها لخدمته بل إنها كانت تقوم بطباعة أعماله على الآلة الكاتبة، ولكونها راديكالية مثله كانت مخلصة من كل قلبها لمبادئ زوجها وكانت دائما تظهر مزايا الاشتراكية أثناء نقاشها مع زوجات أعضاء هيئة التدريس ذوات السلوك التقليدي.

على الرغم من أن بعض تلاميذه السابقين كانوا يشغلون في تلك الفترة مناصب أعضاء هيئة تدريس بجامعة ميزوري إلا أن فبلن فقد المناخ الفكري والرفقة الممتازة التي كان يتمتع بها في جامعة شيكاغو وإلى حد ما في جامعة ستانفورد. فلم يكن أعضاء هيئة التدريس أو الطلاب بجامعة ميزوري من النوعية التي اعتاد عليها في الجامعتين السابقتين وكنتيجة لذلك بدأ فبلن ينسحب ويبتعد عنهم أكثر فأكثر. وكنتيجة لاعتلال صحته وإحساسه بثقل حمل سنوات عمره على كاهله أصبحت محاضراته أقل تنظيما وبالتالي أقل جاذبية مما كانت عليه في الماضي، وهو ما أدى لأن يجعله يزداد احتقاره لطلابه.

خاصة وأن الجامعة كانت قد خفضت راتبه بمقدار الثلث عما كان يعطى له في السابق وأخيراً قرر أن يترك جامعة ميزوري نهائيا في عام 1917م. (56) التي استكمل فيها كتباً كان قد بدأ في كتابتها في جامعتي شيكاغو وستانفورد قبل إن يأتي إلى ميزوري ونشرها أثناء وجوده فيها وبعضها نشر بعد تركه لها.

أثناء وجوده في ميزوري نشر فبلن كتابه الثالث، غريزة الصنعة The Instinct of Workmanship سنة 1914 وهو كتاب كان يعمل على نشره منذ أن كان في جامعة ستانفورد، وبعد بداية الحرب العالمية الأولى بقليل نشر كتابه، الإمبراطورية الألمانية والثورة الصناعية Imperial Germany and the Industrial Revolution وكان يعد واحداً من أعظم أعماله. ثم بعد ذلك مباشرة نشر كتابه تحقيق في مسألة طبيعة السلام، An Inquiry into the Nature of the Peaceفي عام 1918 وهو كتاب كان قليل الأهمية سرعان ما تلاشى بحيث لم تعد له أهمية مثلما تتلاشى النبتة التي تعيش لأيام معدودة فقط. وأخيراً نشر كتابه الذي كان يمثل هجوما ضاريا على بناء وعمل الجامعات في أمريكا وهو بعنوان، التعليم العالي في أمريكا، The Higher Learning in America الذي كان معظمه قد وضع في أوراق (بحوث) أيام تدريسه بشيكاغو ثم أتبع ذلك بمجموعة من الكتب التي كانت عبارة عن تجميع لأوراق سبق نشرها أو قضايا ومواضيع سبق وأن ناقشها من قبل وهذه الكتب هي: الاهتمامات المغلفة والرجل العادي The Vested Interests and the Common Man ومكانة العلم في الحضارة الحديثة Modern Civilization in The Place of Science وكلاهما نشر عام 1919 وفي عام 1921 نشر كتابه المهندسون ونسق السعر The Engineers and the Price System وفي عام 1923 نشر كتابه غياب الملكية والمشاريع التجارية في الأزمنة الحاضرة Absentee Ownership and Business Enterprise in Recent Times. وقد وجد فبلن أثناء تدريسه الجامعي أن من أصعب المهام التي واجهته هي مهمة تقييم الطلاب وما يعدونه من أوراق علمية وقد وجد أن هذه المهمة خالية من الذوق تماماً وكنتيجة لذلك فهو عادة ما يعطي جميع طلاب الفصل الذين يقوم بالتدريس لهم درجة

جيد أو جيد جداً حسب التوجه الذي يمليه عليه مزاجه في اللحظة التي يعطي فيها الدرجة وعندما كان طلابه يضايقونه طالبين منه تفسيراً منطقياً لما يفعله كان يقول لهم: حسنا كما تعلمون أنا في الواقع لا أعتقد إنني شخصيا أستطيع أن أفهم ذلك. (57) وقد كان محقا في ذلك فتقييم البحوث التي يعدها الطلاب وكذلك تقييمهم في الامتحانات تعد أموراً صعبة بالفعل ومملة في نفس الوقت لكنها على أية حال شر لا بد منه كما يقولون.

كما تبين من عرضنا السابق تقلد فبلن العديد من المناصب الأكاديمية وقدم العديد من الخبرات في مجال الخدمات المدنية واشترك في العديد من اللجان التي شكلتها الحكومة الفيدرالية لمناقشة قضية السلام بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. والمعروف أن نشأته الأولى كانت في طبقة اجتماعية دنيا وكانت له تجارب كثيرة في التوسع الصناعي في أمريكا فخلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر انتقلت أمريكا إلى المكانة الأولى بين الدول المصنعة في العالم فعدد المصانع زاد بمقدار أربعة أضعاف وعدد العاملين فيها زاد بمقدار خمسة أضعاف وقيمة الإنتاج الصناعي زادت سبعة أضعاف ورأس المال المتوفر زاد بمقدار تسعة أضعاف. هذا التوسع الصناعي أدى إلى سيطرة شركات النفط والصلب والسكك الحديدية على الاقتصاد الأمريكي بحيث أصبح الرجال الذين يديرون المؤسسات الصناعية الكبرى مثل راكفلر وغيرهم يتمتعون بسلطات أكبر من السلطات التي كان يتمتع بها الرئيس الأمريكي نفسه في ظل المجتمع الزراعي البسيط. لكن ظهور هذه القوة الصناعية أدى إلى اتحاد المزارعين لمقارعة الظلم الذي وقع عليهم وهو ما أدى بالتالي إلى الاضطرابات والاستقطاب السياسي في الولايات المتحدة، وقد ركز فبلن على التفاعل بين الاقتصاد والتطور الاجتماعي طبقاً للتقاليد الفلسفية لكل من وليام سمنر وماركس، والنظرية التطورية، وفلسفة الذرائع. أما أهم أعماله التي سبق وأن أشرنا إليها فتتمثل في كتبه: نظرية طبقة المترفين The Theory of Leisure Classعام 1899، ونظرية المشروع التجاري The Theory of Business Enterprise عام 1902، وغريزة الصنعة عام1914 The Instinct of Workmanship ، والإمبراطورية الألمانية German Empire والثورة الصناعية Industrial Revolution. (58)

التطورية التكنولوجية عند فبلن:

حاول فبلن أن يثبت أن التكنولوجيا هي التي تشكل العلاقات الاجتماعية الإنسانية والثقافية. وإذا كان لدى الإنسان مجموعة من الغرائز الثابتة، إلا أن العلاقات التي تنشأ عن هذه الغرائز تخضع لضروب من التنوع والاختلاف، نتيجة للظروف العديدة والفرص المتغيرة التي تتاح لها، كي تفصح عن نفسها. وهذه الفرص وتلك الظروف هما نتاج للبيئة المادية، أو بعبارة أخرى الإنسان هو نتاج لما يصنعه.

وعلى ذلك فإن تطور المجتمع هو في جوهره عملية توافق عقلي للأفراد مع الظروف المؤثرة في تشكيل عاداتهم السابقة. أما إعادة هذا التوافق فتتميز بالبطء والتذبذب، نتيجة للضغوط التي تفرضها على الأفراد مواقف جديدة. ويرجع ذلك إلى أن سهولة التكيف تعتمد على مبلغ تعرض الأفراد لقوى ضاغطة من البيئة. فأي طبقة تفيد مباشرة من ظروف البيئة المتاحة تعمل على تشكيل نسقها الفكري على نحو يقاوم أي تغير في هذه الظروف، وهذا بدوره هو الذي يعوق التحول الكامل للمجتمع، وتمثل طبقة الأعيان (طبقة المترفين) أحد أقسام المجتمع المعوق للنظام الاجتماعي العام.

نستطيع أن ننظر إلى كل مجتمع باعتباره ميالاً للآلة الصناعية، من حيث إن نظمه الاقتصادية تعتبر بمثابة العناصر البنائية لتلك الآلة. وهناك نوع من الترابط الوثيق بين الثقافة والنظام التكنولوجي. فالنظام الإقطاعي يقوم على وجود قوى عاملة مدربة وفقا لتخطيط معين يؤكد خضوع الإنسان للإنسان. أما في المجتمع الصناعي – الذي يمثل نظاما أكثر حداثة – فنجد أن القوة الآلية تحل بديلا للقوة العاملة. وهذا هو الذي يجعل التكنولوجيا الجديدة تحطم التنظيم القديم للمجتمع. (59)

كان فبلن قد خطط للعودة إلى الغرب الأمريكي في صيف عام 1929ولكن بعض أقاربه أقنعوه بأنه مريض وأن عليه أن لا يرحل بل لم يسمحوا له بالسفر وقد توفي فبلن في نفس العام وبالتحديد يوم 3 أغسطس عام 1929م وكان سبب وفاته عائداً إلى مرض في القلب. (60) ويمكن أن نقول إن من أهداف فبلن العلمية الآتي: كان هدف فبلن الأساسي دراسة

التطور الإنساني مستخدما المسببات العلم اجتماعية (السوسيولوجية) بدلاً من الاقتصاد التقليدي (الكلاسيكي) طبقاً لذلك طور فبلن نظرية في التطور التقني (التكنولوجي) متتبعا تأثير الغريزة الاقتصادية لدى الأفراد على العمليات الاجتماعية الأساسية مثل التنافس والتغير الاجتماعي، كما هو الحال عند باريتو فقد طور فبلن نظرية طبيعية استقرائية أي تعتمد على المنهج الاستقرائي لدراسة الصراع الاجتماعي، لكن فبلن ركز أكثر على تأثير العوامل الاقتصادية. أما إذا أردنا الحديث عن افتراضاته العلمية فإننا نجدها تتلخص في الآتي:

1- كان فرض فبلن الأساسي الذي تقوم عليه نظريته هو: إن الطبيعة البشرية تتكون من ثلاث سمات رئيسية وهي:

أ - العطف أو الحنو الأبوي.

ب- غريزة الصنعة (البراعة في العمل) أو الفعالية العملية.

ج- الفضول أو حب الاستطلاع.

وقد رأى فبلن إن هذه السمات هي التي تمثل الأسس التي تقوم عليها أنساق المجتمع.

2- الفضول أو حب الاستطلاع طبقاً لنظرية فبلن يقود إلى التغير التقني الذي يعتبر المحرك الرئيسي لتطور المجتمع ويقود إلى التغير الاجتماعي.

3- عملية التطور الاجتماعي تبدأ بتغير القيم الإنسانية التي تؤدي بدورها إلى تطور التقنية، وتغير التقنية يقود بالمقابل إلى تغير القيم والأفكار، ويستمر التغير كعملية تراكمية تؤدي إلى التكييف أو التوافق بين الوسائل والغايات واستمرارية التغير في الحياة الاقتصادية.

4- تتكون الأفكار الأساسية في نظرية فبلن من فكرة ولوع البشر بالنواحي الاقتصادية أو المصلحة الاقتصادية الإنسانية التي تعلل عملية النمو الثقافي والتراكم المتتابع أو المتلاحق في النظم الاقتصادية، ويتضح من ذلك إن فبلن كان اقتصاديا حتميا، أي أنه كان نصيرا للحتمية الاقتصادية.

5- في إطار عملية النمو هذه كان فبلن يرى أن التطور يعتبر عملية عضوية ومتوقف كل منها على الآخر أو متداخلة بمعنى أن كل مرحلة من مراحل التطور تمثل توازناً تقنياً

يكون فيه تداخل الأجزاء يعني التساند المتبادل والاعتمادية المتبادلة، مما يعني أن إضافة كل عنصر جديد أو نقصان وتقلص في أي عنصر قديم سوف يؤدي بالضرورة إلى تشويش على امتداد سلسلة العلاقات المتبادلة بين الأجزاء ولذلك فإن منهجه هذا يعتبر أقرب إلى النزعة الوظيفية التي تهتم بالتقنية.

6- ينظر فبلن إلى التطور على أساس أنه عملية تراكمية، وأنه يظهر كردة فعل لعملية التفاعل مع المشاكل المادية المتغيرة، وهو يمثل تكيفاً انتقائياً وتوافقاً اختيارياً للعناصر المتنافسة مع البيئة.

7- هذه العملية التطورية تتقدم باطراد خلال عدد من المراحل المتميزة، وفق وضعية مشابهة لتلك التي افترضها ماركس، حيث يبدأ المجتمع وجوده بحالته الوحشية أو البدائية المسالمة(قليل من تقسيم العمل مع تضامن كبير أو تماسك شديد) ويستمر التطور إلى المرحلة البربرية الدنيا (بداية ظهور الملكية الخاصة وبداية تقسيم العمل) ثم يتطور المجتمع إلى المرحلة البربرية العليا (تطور الملكية الراقية، وظهور طبقة المترفين) ثم يتطور المجتمع ليصل إلى المرحلة أو الطور الرابع وهي تكدس الأموال والتكنوقراطية Technocracy (حكومة التقنيين، والبدائل الاستهلاكية الكثيرة أو الاستهلاك الجشع، وتزايد المذهب المادي أو النزعة المادية) وهي المرحلة التي تكون فيها السمات الإنسانية الطبيعية أكثر تشوهاً أو مشوهة. وفي تلك الحالة يكون الفضول الفردي أو حب الاستطلاع عديم الجدوى ويقود الفرد إلى تغيرات تقنية ينتج عنها المنافسة، الصراع، ونسق الاقتصاد المستغل، ونشأة النظام الطبقي (الرأسمالية مثلاً). التوازي مع نموذج ماركس التطوري واضح هنا جداً.

8- وأخيراً فإن فبلن كان مهتما بعملية الاتصال الاجتماعي المتبادل للتثقيف (تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة) والاستعارة الثقافية وتهجين بين الأفكار والمبادئ. ورأى فبلن بهذا الخصوص أن بعض المجتمعات تكون أكثر قدرة من غيرها على تبني بعض الأفكار الخارجية وتوائمها في عملياتها الاجتماعية لتحقيق أغراض تلك المجتمعات، وبذلك

تستطيع هذه المجتمعات أن تسارع بعملية تطورها التقني. (61) منهج فبلن العلمي يختلف عن من سبقه من المنظرين باستثناء ماركس حيث كان تركيزه الأساسي على دراسة التأثيرات الاجتماعية (السوسيولوجية) للصناعة وانتشار التقنية ولهذا استخدم مدخلا علمياً منطلقا من وجهة النظر المتشككة أو مرحلة الشك وقد استفاد فبلن من البيئات التاريخية والاقتصادية والمعلومات الأثرية للحصول على بيانات تؤكد تتابع عملية التطور التقني في مراحلها الأساسية في مجتمعات غير متجانسة. هذا المدخل يشبه مدخل ماركس من حيث استخدامه للاستقراء التاريخي كأداة منهجية أساسية.

أما نمط المجتمع عند فبلن فإنه يتكون من المراحل التطورية للمجتمع التي سبق وصفها وذلك أثناء تعرض النسق لتأثير التقنية وضمور الحيوية أو الانحلال الارواحي(*). وتمثل مرحلة الهمجية المسالمة، المرحلة الأولية الأكثر طبيعية بالنسبة للوجود الإنساني ففي هذه المرحلة يكون ارتباط الناس بالطبيعة وثيقاً جداً وتقسيم العمل يكون بسيطاً جداً أو معدوماً، وغريزة الصنعة أو البراعة في العمل تكون طليقة بدون تصنع أو تكلف وذلك بأن تعمل في شكلها الخالص أو النقي، والدين مركزي أو أساسي بالنسبة لهذا المجتمع، ويوجد في هذا المجتمع مستوى عالٍ من التضامن والتماسك الاجتماعي.

وبالتطور الاقتصادي تأتي المرحلة البربرية الدنيا في هذه المرحلة يبدأ تقسيم العمل ويبدأ التمييز المستهجن بين البشر بالظهور مع ظهور خاصية الملكية.

المرحلة البربرية العليا تكون أكثر سلبية حيث يزداد الغنى وتتوسع الملكية الخاصة، وتظهر طبقة المترفين وغيرها من الصفوات المحتكرة للسلطة والسياسة وبهذا توضع أسس الرأسمالية.

أما في المرحلة الرابعة وهي الأكثر سلبية على الإطلاق وهي وصول المجتمع إلى المرحلة المادية، حيث تتحطم الغرائز الطبيعية والترف والاستهلاك يصبح واضحاً وجلياً وقاعدة

(*) الأرواحية: مذهب حيوية المادة: الاعتقاد بأن لكل ما في الكون، وحتى الكون ذاته، روحا أو نفسا؟.

النسق الاقتصادي هي الدعاية والحرب والعلاقات ذرائعية وغير شخصية والقيم مادية بشكل كبير والدوافع على مستوى الأشخاص والمؤسسات تكون مبنية على أساس مكاسب شخصية تقود إلى سيطرة صفوة التجار على المجتمع وتصل الرأسمالية والبيروقراطية إلى ذروتها وهي قمة الحالة غير الطبيعية.

العمليات الأساسية في هذه المرحلة التطورية تتكون من التطور التكنولوجي والاستعارة الثقافية وتمازج الطبقات.

ملخص لنظرية الصراع

أولاً: يوجد العديد من أوجه الشبه بين التوجهات النظرية لكل من: ماركس وبارك يمكن إيجازها فيما يلي:

1- كلا المفكرين وضع نظرية منطلقا من أجواء نماذج فكرية موجهة نحو التطور.
2- كلاهما كان اهتمامه الأساسي تحليل العلاقات بين الأساس الطبيعي أو المادي للمجتمع وبنائه الاجتماعي.
3- كلاهما رأى أن المجتمع يمثل توازناً تطورياً بين المنافسة والتطور، وظيفته الأساسية هي الضبط الاجتماعي.
4- كلاهما نظر إلى الأشياء المادية على أساس أنها المحدد للأشياء غير المادية.
5- كلاهما نظر إلى المنافسة على أساس أنها كونية وهي سبب الصراع.
6- كلاهما نظر إلى المجتمع على أساس أنه في حالة مستمرة من التطور.
7- كلا المنظرين حدد مراحل تطورية معينة.
8- كلاهما نظر إلى الحالة النهائية للتطور على أساس أنها تماثل لعناصر كانت متنافرة.
9- كلاهما نظر إلى الهوية الاجتماعية للفرد كوظيفة لحالته المادية أو وضعه في البناء الاجتماعي.
10- كلاهما استخدم الاستقراء التاريخي كمنهج رئيسي له.

11- كلاهما طور نماذج علمية لمراحل التطور الاجتماعي.

12- وضع كل منهما نموذجاً للنسق الاجتماعي حيث يحدد البناء التحتي المادي البناء الفوقي. (62)

ثانياً: هناك العديد من أوجه شبه أو التقارب بين الأفكار النظرية لكل من باريتو وفبلن يمكن إيجازها فيما يلي:

1- كلتا النظريتين تدور داخل محيط تطوري ومعايير علمية كما أن كلا المنظرين تعرضا لمستويات عالية من الصراع السياسي الاقتصادي.

2- كان هدف كليهما هو السعي إلى فهم العوامل الرئيسية وراء التوازن الاجتماعي، الصراع، التطور.

3- كلاهما يرى أن المجتمع مبني على الغرائز أو السمات.

4- كلاهما كان يرى أن المجتمع في توازن، حتى ولو كان هذا التوازن بشكل مؤقت.

5- بالنسبة لكليهما المعايير والأفكار مبنية على الغرائز أو السمات.

6- هذه الغرائز أو السمات هي التي كانت تقف وراء التطور الاجتماعي والصراع.

7- التطور الاجتماعي يظهر في مراحل تطورية أو دورات.

8- مسيرة التطور تتجه في اتجاه المسائل الجديدة والصراع.

9- المنهج الذي يتبعه كلا المنظرين يركز على تأثير الغرائز الإنسانية أو السمات، وكلاهما يستخدم الاستقراء التاريخي.

10- منهجهما العلمي ونمط المجتمع عندهما يصف نوعين من الصفوة أو مراحل التطور الاجتماعي. (63) وبهذا نكون قد انتهينا من تقديم منظري الصراع بصورة نعتقد أنها كاملة ووافية وفيها نوع التأكيد على أهمية هذا النوع من التنظير في المجتمع الحديث الذي يتميز بكثرة أنوع الصراع فيه من السياسي إلى الاقتصادي والأيديولوجي.

هوامش الفصل الرابع

1- Kinloch, Graham, sociological theory, Mcgraw-Hill Book company1977 p 26

2- Coser, Lewis A. Masters of Sociological Thought, Second Edition, Harcourt Brace Jovanovich, Inc. New York 1977,p3 .

3- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها ترجمة محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1978، ص 47.

4- Larson, Calvin J. Major Themes in Sociological Theory, David Mckay Company, Inc. New York, second Edition, 1977 pp 39-42.

5- علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1982، ص287.

6- محمد علي محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص 30.

7- محمد الغريب عبد الكريم، السيسيولوجيا الراديكالية: دراسة نقدية تحليلية في النظرية الماركسية، المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل - الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1988، ص ص39-40.

8- Marx, Karl and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, Washington Square Press Published By Pocket Books, New York 1964, pp18-19 .

9- Ruitenbeek, Hendrik M. (Editor) Varieties of Classic Social Theory, E. P. Dutton& co., Inc. New York, 1963, p 75 .

10- Marx, Karl, Grundrisse: Foundations of The Critique of Political Economy, Translated with A Foreward by Martin Nicolaus, Vintage Books A Division of Random House, New York 1973, p 898 .

11- Ruitenbeek, Ibid p 75.

12- نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص 86.

13- Marx, Karl and Friedrich Engels, Ibid pp 25-26 .

14- محمد علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص ص44-45.

15- Ruitenbeek, Ibid pp 76-80.

16- محمد الجوهري علم الاجتماع: النظرية. الموضوع. المنهج. دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، 1992، ص 31.

17- جوناثان تيرنر، بناء نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمد سعيد فرح، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000، ص ص109-110.

18- Kinloch, Graham, Ibid pp 102-103 .

19- Kinloch, Graham, Ibid pp 103-104 .

20- Kinloch, Graham, Ibid pp 104-105 .

21- Kinloch, Graham, Ibidpp 105-106 .

22- Coser, Lewis, Ibid, pp 402-403 .

23- Coser, Lewis, Ibid, p403 .

24- Coser, Lewis, Ibid, p 403 .

25- Coser, Lewis, Ibid, p 404 .

26- Coser, Lewis, Ibid, p405 .

27- على ليلة، مرجع سبق ذكره، ص ص666-668.

28- مخمد على محمد، مرجع سبق ذكره، ص143.

29- Coser, Lewis, Ibid, p 405

30- Coser, Lewis, Ibid, p 405.

31- Kinloch, Ibid, p 115 .

32- نيقولا تيما تشيف، مرجع سبق ذكره، ص 250.

33- مخمد على محمد، مرجع سبق ذكره، ص144

34- Kinloch, Graham, Ibid, p 11 .7

35- نيقولا تيما تشيف، مرجع سبق ذكره، ص 250.

36- Kinloch, Graham, Ibid, p 11 .7

37- نيقولا تيما تشيف، مرجع سبق ذكره، ص 242.

38- نيقولا تيما تشيف، المرجع السابق نفسه، ص ص239- 240.

39- محمد على مجمد، مرجع سبق ذكره، ص 154.

40- على ليلة، مرجع سبق ذكره، ص 674.

41- Coser, Lewis, Ibid, p 397 .

42- نيقولا تيما تشيف، مرجع سبق ذكره، ص ص246- 240.

43- Lewis A. Coser, Ibid pp 366-367.

44- Lewis A. Coser, Ibid pp 367-368 .

45- Lewis A. Coser, IbidIbid pp 366-369 .

46- Lewis A. Coser, Ibid pp 369-371.

47- Lewis A. Coser, pp 369-371.

48- Lewis A. Coser, Ibid pp 358.

49- Kinloch, Graham, Ibid, p 109.

50- Kinloch, Graham, Ibid, p 109-110.

51- Kinloch, Graham, Ibid, pp 109-111 .

52- Coser, Lewis, Ibid, p 275 .

53- Coser, Lewis, Ibid, p 277 .

54- Coser, Lewis, Ibid, p 27

55- Coser, Lewis, Ibid, pp..280 - 279

56- Coser, Lewis, Ibid, pp. 283- 280

57- Coser, Lewis, Ibid, pp. 284- 283 .

58- Coser, Lewis, Ibid, p. 284

59- Kinloch, Graham, Ibid, p 122 .

60- نيقولا تيما تشيف، مرجع سبق ذكره، ص ص -143-144.

61- Coser, Lewis, Ibid, pp 284- 283

62- Kinloch, Graham, Ibid, p 122-123

63- Kinloch, Graham, Ibid, p 114-115

64- Kinloch, Graham, Ibid, p 127 .

الفصل الخامس

النظريات السلوكية الاجتماعيـة

Social Behaviorism Theories

ويشتمل هذا الفصل على النقاط الآتية:

- **أولاً: ماكس فيبر**
- **ثانياً: جورج هربرت ميد**
- **ثالثاً: جورج زيمل**
- **رابعاً: وليام جرهام سمنر**

الفصل الخامس

النظريات السلوكية الاجتماعية
Social Behaviorism Theories

كما تتغير الظروف الاجتماعية التي من حولنا تتغير كذلك صيغ الفكر الاجتماعي: لهذا فإننا نجد أنه بفعل التصنيع أصبحت الأشكال أو النماذج العلم اجتماعية (السوسيولوجية) أكثر مجهرية Microscopic وأكثر فردية واستقرائية، مقارنة مع الأشكال العيانية المبكرة Macroscopic من أشكال الفكر الاجتماعي الاستنتاجي. باستخدام السلوكية الاجتماعية - دراسة العوامل الفردية المحددة للسلوك الاجتماعي - فإننا نقدم في الواقع وجهة نظر مختلفة للحقيقة السوسيولوجية مفادها أن: المجتمع يُرى من خلال المنظور الفردي على أنه مجموعة من القيم والأشخاص المتفاعلين. الظواهر المعيارية والثقافية عند المستوى المجهري تكون مركزاً لاهتمام هؤلاء العلماء عندما يحاولون فهم المجتمع على المستوى الفردي وذلك عندما تزداد الذاتية الإنسانية والوعي الاجتماعي في ظل التأثيرات العامة للتصنيع. بازدياد التحضر والنمو العام للاقتصاد فإن علم الاجتماع يحاول أن يفهم البناء الاجتماعي المتغير عند المستوى الفردي وذلك في ضوء قيم وتقاليد فلسفة التنوير والمذهب المثالي بالإضافة إلى التأكيد الحديث على القيم الفردية للأخلاق البروتستانتية والفلسفة الذرائعية.

على الرغم من وجود بعض الاختلافات فيما بينها، فإنه سيكون من الواضح أن النظريات السلوكية الاجتماعية تمتلك مقومات محددة مشتركة مع النماذج السابقة: كنموذج للواقع الاجتماعي، يكون عاما، وتطوريا، ومثاليا، وفي نفس الوقت موجها نحو خلق التوازن في المجتمع. إلى حد ما هذا النموذج يمثل رؤية مجهرية للمدخل العضوي السابق الذي طور

وطبق في ظل ظروف اجتماعية مختلفة. مرة أخرى النظرية السلوكية الاجتماعية تمثل نموذجاً عاماً من الواقع الاجتماعي الذي طور من خلال بيئة اجتماعية خاصة.

السلوكيون الذين هم موضوع حديثنا الآن امتدت فترة حياتهم على مدى تسعين عاما ابتداءً من عام 1840 إلى عام 1931 وهم يختلفون في الخلفية الاجتماعية والفكرية. لكن على أية حال من الممكن النظر إليهم على إنهم مجموعة من المفكرين تفاعلوا مع مشاكل محددة من خلال تقاليد مشتركة من الفكر للأسباب التالية: باستثناء زيمل كانت لهم جميعاً خلفية بروتستانتية وقد تلقوا تعليما موسعا في التاريخ والفلسفة وعلم اللاهوت وقد كانت سيرهم المهنية أكاديمية بالدرجة الأولى وقد عايشوا التأثير الديناميكي للتصنيع والتحضر، ومعظمهم كانت تنشئته الاجتماعية Socialized في ضوء فلسفة التنوير المثالية، والتطورية الداروينية، والذرائعية الحديثة.

السلوكية الاجتماعية يمكن أن ينظر إليها على أنها تفاعل جماعة من المفكرين الاجتماعيين غالبيتهم من البروتستانت مع المشاكل الحديثة للتغير الاجتماعي في ظل تقاليد فلسفة التنوير المثالية والذرائعية المعاصرة. لهذا فإن شكلا جديدا من النظرية العضوية المجهرية التي تهتم بالوحدات الاجتماعية الصغرى Microscopic Organism قد ظهر كاستجابة للحاجات العامة عند المستوى المجهريMicroscopic Level أي مستوى الوحدات الصغرى.

مثل النماذج الأخرى، السلوكية الاجتماعية بعيدة من أن تكون متماثلة. فهي تحتوي على عدد من النماذج الفرعية: كنموذج التفاعل الاجتماعي، والجدلية الطبيعية مثل النمط العام Systemic والنمط الطبيعي Naturalistic. الأول واضح في أعمال ماكس فيبر وجورج ميد، التي ترى الفرد كنتاج اجتماعي وتركز على العمليات العلم اجتماعية (السوسيولوجية)، والثاني بالمقارنة يرى أن الغرائز الطبيعية أو الحاجات هي أساس العمليات الاجتماعية المجهرية التي ينظر إليها على أنها أساس المجتمع. مرة أخرى قدمت لنا اختلافات فرعية علم اجتماعية (سوسيولوجية) وطبيعية لنفس النموذج السابق الذي يظهر أنه يقدم

آخر وجهات النظر الواقعية التي تعتبر أكثر ذرائعية، بينما أفكار زيمل وسمنر ينطلقان من التطورية التقليدية لكل من داروين وسبنسر. وبرغم ذلك فإن كلا النمطين يقدمان مدخلا مجهريا تطوريا استقرائيا، وعاماً Systemic إلى الواقع الاجتماعي، فبينما يختلفان في الأساس فإن نموذجهما الاجتماعيين متشابهان. (1) كما لاحظنا توجد اختلافات من حيث واقعية البعض وتطورية البعض الآخر لكن كلا النموذجين في النهاية يمثلان السلوكية الاجتماعية بكل أبعادها النفسية والاجتماعية سواء أكانت ذرائعية أو تطورية.

بالنسبة للسلوكية الاجتماعية التقليدية فإنها تشتمل على التفسيرات الطبيعية والاجتماعية حيث نجد على سبيل المثال أن ماكس فيبر وجورج ميد يدرسان الفرد باعتباره نتاجا اجتماعياً، مع تركيز اهتمامهما على معنى السلوك الاجتماعي وعمليات التفاعل الاجتماعي. في حين أننا نجد من جهة أخرى أن جورج زيمل ووليم سمنر يتخذان من الغرائز والرغبات أساساً لتحليل البناء الاجتماعي وتطوره. وبالمقارنة فإن النظرية النفسية الاجتماعية المعاصرة تركز على البيئة الاجتماعية وعلاقة الأفراد بها من خلال التنشئة، ومن خلال تبادل ولعب الأدوار، وتعريفهم الشخصي للحقيقة الواقعية. وهنا يجب أن نناقش التفاعلية الرمزية، ونظرية الدور، ونظرية التبادل Exchange Theory، وكذلك "الدراسات التي تهتم بتحليل الأنشطة اليومية مثل مناهج أعضاء الجماعة في جعل بعض الأنشطة مرئية وعقلانية وقابلة للإعلان لكل الأغراض العملية، وهي الدراسات المعروفة باسم المنهجية الإثنية [العرقية] Ethnomethodology" (2) وأشهر من كتب في هذا المجال حسب علمنا هو هارولد غارفينكل Harold Garfinkel الذي له كتاب بعنوان: دراسات في الإثنية [العرقية] Studies In Ethnomethodology صدر عام1967وهو الذي أخذنا منه هذا الاقتباس. وهي دراسات تعتبر مهمة جداً، وكانت الأوضاع المجتمعية Societal Condition السائدة في هذه الفترة تتمثل في: التصنيع والتحضر والسيطرة السياسية. أما الأوضاع الفكرية Intellectual Condition فكانت تتمثل في: لمثالية والتطور الاجتماعي ومذهب التزمت، التطهيرية، البيوريتانية Puritanism الذرائعية وأخيراً الأوضاع المعروفة بالسلوكية الاجتماعية

Social Behaviorism. أما سير حياة هؤلاء المفكرين فتتمثل في أن معظمهم كانت نشأته الدينية نشأة بروتستانتية ومعظم المفكرين الذين كتبوا في هذا المجال كانوا من أصحاب المهن الأكاديمية.

طبقاً لهذا المدخل يعتبر الفرد عاقلا وهو يمثل نتاج مجموعة من العلاقات المحددة. والمجتمع يجب أن ينظر إليه على أساس أنه عبارة عن مجموعة من العلاقات والقيم بالإضافة إلى التنشئة الاجتماعية Socialization والعمليات التفاعلية. طبقاً لذلك فإن الفرد هو المجتمع بشكل موسع ويعكس توجهات القيم السائدة التي تنشأ داخل المحيط الاجتماعي. مثل هذه الرؤية المعيارية والعامة للواقع الاجتماعي توجد بشكل واضح في أعمال كل من فيبر وميد.

أولاً: ماكس فيبر. 1864-1920م

ولد ماكس فيبرMax Weber يوم 21 أبريل 1864 وهو أكبر سبعة أبناء للسيد فيبر وزوجته هلين اللذين ينحدر كلاهما من أسر بروتستانتية عاشت لاجئة من الاضطهاد الكاثوليكي في البداية لكنهم تمكنوا فيما بعد من أن يكونوا تجارا ناجحين. فقد كان جد فيبر لأبيه تاجرا ناجحا للأقمشة الكتانية في مدينة بيليفيلدBielefeld حيث استقرت عائلته التي كانت قد طردت من مدينة سالزبورج Salzburg الكاثوليكية وذلك بسبب اعتناقها للمذهب البروتستانتي. وقد عمل والد فيبر فترة من الوقت في حكومة مدينة برلين وبعد ذلك عين حاكما لمدينة إيرفورت Erfurt التي ولد فيها ماكس فيبر، ثم عاد بعد ذلك إلى برلين ليباشر العمل السياسي من جديد في العاصمة.

نشأ فيبر الصغير في أسرة برجوازية مثقفة فقد كان من بين زوار أسرته إلى جانب السياسيين العديد من الأكاديميين فقد قابل فيبر خلال مرحلة عمرية مبكرة العديد من المؤرخين الألمان الذين تركوا بصمات واضحة في حياته أمثال تريتشك Treitschke وسيبل Sybel وديلثي Dilthey. لكن هناك شيء نغص الجو العائلي الجميل الذي كانت تنعم به

أسرته، وهو أن زواج والديه على الرغم من كونه سعيداً في مراحله الأولى إلا أنه كان قد تعرض لبعض الهزات العنيفة التي لم يستطع الوالدان إخفاءها عن أبنائهما. فأمه بالتزامها الديني القوى وشعورها بتأصل الواجب والعقيدة الكالفينية(*) Calvinist كان بينها وبين زوجها القليل من التوافق فأخلاق الزوج كانت تتمشى مع مذهب المتعة الذي يقول بأن اللذة أو السعادة هي الخير الأوحد أو الرئيسي في الحياة، أكثر من تمشيها مع المذهب البروتستانتي.

كان فيبر ناضجا عقليا منذ الصغر ورغم هذا كان يبدو معتل الصحة خجولاً منطوياً على نفسه. وكان مدرسوه يشكون من عدم احترامه لهم وعدم انضباطيته لكنه مع ذلك كان قارئاً شرهاً. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره كان قد تمكن من كتابة مقالات أدبية مليئة بمراجع لكبار الكتاب الألمان بل إنه كانت لديه معرفة واسعة بأعمال كانت Kant وغيره من كبار الفلاسفة حتى قبل إن يدخل الجامعة. (3) كان والده يدير أمور أسرته بطريقة تسلطية، ولا بد أن يكون ذلك انعكاسا لمرونته في الأمور السياسية التي جعلت منه انضباطياً غير مرن في منزله. على الرغم من أن والدته كانت تحاول أن تكسبه إلى جانبها لتغرس فيه التقوى المسيحية التي كانت تقدرها حق قدرها، إلا أنه يبدو أن فيبر كان في شبابه أكثر قربا لوالده من والدته. هذه المماثلة لوالده من الممكن أن تفسر سبب انقلاب فيبر فجأة من شاب منطوياً على نفسه إلى شاب نشيط عندما ذهب إلى جامعة هيدلبرج عند بلوغه الثامنة عشر من عمره فبمجرد دخوله إلى الجامعة انتمى إلى نفس المجموعة الطلابية fraternity التي كان ينتمي إليها والده واختار نفس تخصص والده وهو القانون وبدأ في تناول الجعة مع رفاقه بنهم فانقلبت نحالة جسمه إلى بدانة وبدأ يفتخر بإظهار الندوب التي خلفتها المشاجرات المتكررة على جسمه.

(*) الكالفينية: مذهب أسسه كالفين عالم اللاهوت الفرنسي البروتستانتي (1509-1564) وهو المذهب القائل بأن قدر الإنسان مرسوم قبل والدته.

إن لهو فيبر والخلاف الأسري لم يبعده عن دراسته. فبعيدا عن دراسة القانون كان يحضر محاضرات في الاقتصاد وكان يدرس تاريخ العصور الوسطى والفلسفة. كما درس القانون الروماني والمؤسسات الرومانية بالإضافة إلى ذلك درس فيبر اللاهوت. لكن بعد ثلاثة فصول دراسية ترك فيبر هيدلبرج لأداء الخدمة العسكرية في ستراتسبرج وهناك وقع تحت تأثير زوج خالته المؤرخ هيرمان باومغارتين Hermann Baumgarten وخالته إدا Ida اللذين كان لهما أثر كبير في تشكل حياته العلمية والشخصية.

ما أن مر قليل من الوقت على انتقال فيبر إلى ستراتسبرج حتى أصبحت خالته وزوجها بمنزلة الوالدين عنده. فزوج خالته كان رفيقا لوالده في اللبرالية لكنه لم يكن يهادن الإمبراطورية البسماركية كما فعل والده بل كان مواليا للبرالية الصرفة التي اعتنقها في شبابه. فقد رفض زوج خالته جميع التنازلات التي دفعت مسيرة فيبر الأب السياسية إلى الأمام. أما خالته فقد كانت تشبه أختها في كثير من الأحيان فهي تشاطرها تقواها الدينية لكنها كانت تختلف عنها في كونها قوية الشخصية بل إنها كانت ذات شخصية مسيطرة في كثير من الأحيان بدلاً من كونها انطوائية كما كانت أختها.

وعلى عكس معاملة والده الذي كان يعامله في صباه معاملة قاسية فإن زوج خالته كان ينظر إليه كمفكر ند. فمن أيام انتقاله إلى ستراتسبرج إلى أن توفي باومغارتين في 1893 فإن كتاباته تشهد بكل وضوح على أن زوج خالته كان هو معلمه ومحل ثقته في المسائل الفكرية والسياسية. أما تأثير خالته عليه فقد كان قويا كذلك. على العكس من أمه التي لم تستطع تحريك الاهتمام بالدين عنده فإن خالته جعلته ينغمس في القراءات الدينية. كان فيبر معجباً بشخصية خالته القوية ومواقفها الدينية التي لا تتنازل عنها والتي كانت تدير أسرتها طبقاً لها وشعورها العميق بالمسؤولية الاجتماعية الذي دفعها إلى أن تخصص الكثير من وقتها للأعمال الخيرية. وعليه أصبح يقدر قيم وتوجهات أمه عندما أصبحت توضع في المحك العملي من قبل خالته. ومن الممكن أنه اكتسب الإحساس بالرهبة للفضائل البروتستانتية الذي رافقه طوال حياته وذلك خلال فترة إقامته في ستراتسبرج على الرغم

من عدم استطاعته المشاركة في الاعتقاد بالدين المسيحي الذي بنيت عليه. (4) وهو ما يؤكد تأثير خالته القوية الشخصية عليه وجعله ينغمس في القراءات الدينية وهو أمر لم تستطع والدته رغم تدينها أن تفعله وكذلك الحال مع زوج خالته المثقف الذي كان يعتبر فيبر مفكراً وناداً له على الرغم من صغر سن الأخير.

كان حبه الأول لإيمي Emmy ابنة خالته التي استمرت خطبته لها ست سنوات كانت علاقتهم خلالها يسودها الكثير من التوتر. فصحة إيمي كانت معتلة جسميا وذهنيا. وهو الأمر الذي دعا فيبر إلى أن يقرر أخيراً بعد معاناة شديدة وشعور بالذنب أن يفسخ خطبته منها تلك الخطبة التي كانت إيمي خلالها نزيلة في مصحة في معظم الوقت.

في خريف عام 1884 أنهى فيبر خدمته العسكرية ثم عاد إلى منزل الأسرة وذلك لكي يكمل دراسته في جامعة برلين. وقد سرت أسرته كثيراً بعودته لأنهم رأوا في ذلك تحرره من تأثير باومغارتين. واستمر فيبر مدة ثماني سنوات مع أسرته تخللها فصل دراسي واحد في جامعة غوتيننغ Goettingen وفترة قصيرة من التدريبات العسكرية المتقدمة حيث كان في بادئ الأمر طالبا ثم محاميا في محاكم برلين وأخيراً محاضرا Dozent (مؤقت) في جامعة برلين. خلال هذه السنوات كان يعتمد اقتصاديا على والده الذي بدأ ينمو لديه شعور بالكراهية له. بينما ازداد في الوقت ذاته تفهما لشخصية والدته وقيمها الدينية والأخلاقية وكان خلال هذه الفترة ممتعضا من سلوك والده المستأسد على والدته.

كان فيبر أثناء وجوده كطالب في جامعة برلين شديد الإعجاب بالأستاذ المشرف على أطروحته للدكتوراه جاكوب غولدشمدت Jakob Goldschmidt والمؤرخ مومسن Mommsen الذي درس على يده القانون الروماني والذي كانت علاقة فيبر معه قوية، قال له عند مناقشته لرسالة الدكتوراه في عام 1889 والتي كان عنوانها تاريخ المجتمعات التجارية في العصور الوسطى History of Commercial Societies in the Middle Ages عندما تدركني المنية لا يوجد من هو أحسن منك لأقول له: بني إن الرمح قد أثقل كاهلي، احمله عني. (5) وهذا يؤكد المكانة العلمية المرموقة التي كان أساتذته يتوقعون أن يحظى بها في

المستقبل لما ظهر عليه من نبوغ أثناء فترة دراسته الجامعية على يد أساتذة ألمان عظام في مختلف فروع العلوم الإنسانية.

استمر فيبر غزير الإنتاج أثناء فترة وجوده في برلين فتاريخ الزراعة الرومانية كان العمل الذي قدمه في عام 1891 كبحث لدراسته لما بعد الدكتوراهPostdoctoral Thesis وهي درجة علمية كانت مطلوبة في ذلك الوقت لضمان التدريس بالجامعة، أتبعه بعدة دراسات عن حالة العمال الزراعيين في شرق الألب East- Elbian أحد هذه الأعمال بلغ حوالي900 صفحة كتب خلال سنة واحدة تقريباً. خلال هذه الفترة كان فيبر قد حل محل أستاذه غولد شمدت محاضراً في جامعة برلين. كما احتفظ في الوقت ذاته بعمله في المحاماة. وقد قسم فيبر وقته بدقة متناهية خلال هذه الفترة واضعا لنفسه برنامج عمل صارماً جداً.

بزواجه في سنة 1893 من مريان شنتجر Marianne Schnitgerشعر فيبر بالراحة والاستقرار، ويظهر أن الزوجين كانا يتمتعان بصحبة فكرية وأخلاقية ممتازة ورغم ذلك فإنه يظهر أن هذا الزواج لم يكتمل. فالنضوج الجنسي (العاطفي) لم يكتمل عند فيبر إلا في أواخر الأربعينيات من عمره وذلك قبل بداية الحرب العالمية الأولى بقليل من خلال علاقة جنسية تمت خارج الحياة الزوجية.

خلال حديثه الافتتاحي في اللقاء الذي عرف باسم الحالة الوطنية والاقتصاد الوطني الذي عقد عام 1895ألقى فيبر خطابا جمع فيه بين الروح الوطنية والروعة العلمية وهو الخطاب الذي جذب إليه أنظار رجال السياسة والعلم وهو أمر لم يستطع تحقيقه من قبل عن طريق دراساته العلمية المتخصصة. مما كان له الأثر في تعيينه في جامعة هيدلبرج في عام 1896 ليحل محل أستاذه السابق كنيز Knies كأستاذ للاقتصاد. وفي هيدلبرج لم تتح له فقط فرصة الاتصال بأساتذته السابقين لكنه وجد أصدقاء وزملاء وأصبح منزله مكانا لتجمع النخبة الممتازة من مفكري هيدلبرج. وعلى الرغم من صغر سنه نسبياً في ذلك الوقت إلا أنه كان الشخصية الرئيسية في هذه الشبكة الممتدة من الزملاء والعلماء المتشابهين فكرياً.

إضافة إلى اهتماماته الفكرية فقد كان فيبر يتابع اهتماماته السياسية فقد كان يلعب

دوراً متزايدا في الدوائر السياسية المسيحية الاجتماعية Christian Social political circles كما نشر العديد من المقالات عن أحداث الساعة في ذلك الوقت. وقد كان فيبر مداوما على مشاركة نشطة ومبدعة في كلا العالمين السياسي والفكري. ويبدو أنه كان يعد نفسه ليصبح شخصا مهما في الحياة الفكرية الألمانية. (6) ومع أن الجميع صاروا ينظرون إليه باعتباره مفكراً فذاً إلا فيبر كان إلى جانب اهتماماته العلمية متابعا للأمور السياسية في بلاده ومؤثراً فيها في الوقت ذاته بمقالاته الواعية بهموم بلاده.

أسهم فيبر بمقالات في مجالات متعددة نشرت في صحف مختلفة، كما عمل بنشاط في مجال السياسة. ويلاحظ أن آراءه السياسية كانت لبرالية الطابع، بحيث يمكن القول إنها كانت تعكس وجهة النظر السائدة في أسرته. فكان من المدافعين عن السلام القائم على المفاوضات. وبانتهاء الحرب أصبح فيبر أحد أعضاء اللجنة المشكلة لإعداد مذكرة عن مجرمي الحرب، والتي قدمت إلى مؤتمر السلام في باريس، ثم أصبح بعد ذلك عضوا في اللجنة التي قدمت مشروع دستور فيمار Veimer. وباختصار يمكن القول إن حياة فيبر كانت تنقسم قسمة عادلة بين العلم والسياسة. (7) لكن من المؤسف حقاً أنه فجأة يبدو أن هذا العمل الذي كان يبشر بالخير قد وصل إلى نهاية مؤلمة. ففي يوليو عام 1897 زاره والداه في هيدلبرج. ويبدو أن والده كان قد أصر على أن ترافقه زوجته التي كانت تفضل أن تقضي أسابيع مع ولدها بدونه. في تلك المناسبة اصطدم فيبر مع والده بعنف حيث اتهم أباه بأنه كان يعامل والدته بطريقة استبدادية وحشية وأنهى ذلك الهجوم بأن طلب من أبيه أن يغادر منزله. وقد توفي والده بعد شهر واحد من تلك المشادة. وخلال وقت قصير من وفاة والده عانى فيبر من انهيار عصبي كامل لم يشف منه إلا بعد خمس سنوات.

لعل الصعوبات التي لم يحلها فيبر والمتعلقة بتحديد هويته، وكذلك معاناته من الصراع الداخلي بخصوص القيم المتباينة لكل من والده ووالدته وخالته وزوجها من الممكن أن تكون قد تسببت في الانهيار العصبي الذي حل به. وكان هناك مصدر آخر للتوتر والشعور بالذنب من الممكن أن يكون صادراً عن فسخ خطبته بابنة خالته التي كانت تعاني من

اختلال عقلي وزواجه أخيراً من قريبة له أخرى كانت على علاقة عاطفية مع صديق حميم له فاختطفها فيبر منه وتزوج منها. (8) هذه كانت نبذة مختصرة عن حياة ماكس فيبر نهدف من وراء عرضها إلى التعرف على شخصية فيبر وعلى الظروف التي أحاطت بتكوينها والظروف التي أحاطت بحياته ونشأته والتي كان لها تأثير بالغ في حياته بشكل عام بدون شك وفي توجهاته النظرية فيما بعد بشكل خاص وبعد هذا العرض ننتقل إلى الحديث عن إسهاماته العلمية بشيء من التفصيل.

عند الحديث عن أهدافه العلمية التي كان يسعى إلى تحقيقها نجد أن فيبر عَرَّفَ علم الاجتماع بأنه "العلم الذي يحاول أن يفهم الفعل الاجتماعي فهماً تأويلياً أو تفسيرياً من أجل الوصول إلى تفسيرات سببية ومعرفة تأثيراته" يفهم ضمنيا من هذا التعريف عدداً من العناصر المهمة: محاولة التأويل أو الفهم، والتركيز على الفعل الاجتماعي السلوكي الذي ينسب إليه المعنى غير الموضوعي (مثل التأكيد على القيم الاجتماعية كعناصر أساسية) ومحاولة تطوير تأويلات سببية لهذه الظواهر. كان فيبر أسيراً للفهم العلمي للسلوك الاجتماعي باعتباره الاهتمام الأساسي لعلم الاجتماع. عليه فإنه ركز على الفهم الموضوعي للقيم الاجتماعية في المحيط التاريخي في محاولة لتحديد تأثيرها الاجتماعي على المجتمع. (9) وكلها أمور ما زالت محل اهتمام الكثير من علماء الاجتماع حتى الوقت الحالي فمن منهم من لا يسعى إلى الوصول إلى التأويلات السببية للظواهر وغيرها من الأمور العلمية كان فيبر يسعى إلى تحقيقها.

إن من يدرس علم الاجتماع عند فيبر يستطيع أن يقف على تيارات عديدة تجمعت وانصهرت فأثمرت نسقا فكرياً متكاملا، فلقد أدخل فيبر العنصر السيكولوجي، إذ يعتقد أن علم الاجتماع كعلم يتعين أن يبحث عن تفسير سببي للفعل الإنساني قادراً على فهم غايته ومقاصده، والتفسير السببي يحقق لعلم الاجتماع صفة "العلم" التي كافح من أجلها الرواد الأوائل مثل أوجست كونت وإميل دور كايم، إلا أن دراسة السلوك الإنساني عند فيبر يتعين أن تبرز بعدا آخر هو بعد "الفهم" الذي يقوم على التعاطف مع الآخرين، وسبر

أغوارهم للتأكد من حقيقة هذا السلوك بدلاً من الاكتفاء بدراسة مظاهره الخارجية. (10) وهو ما يسعى إلى تحقيقه الكثير من علماء الاجتماع في الماضي والحاضر وذلك لإيجاد تفسير سببي للفعل الإنساني وهو ما يحقق لعلم الاجتماع صفة العلم.

البيروقراطية عند فيبر:

كثير من الناس ينظرون إلى البيروقراطية نظرة لا تحمل معناها الحقيقي وهي نظرة تربط بينها وبين الروتين السائد في كثير من البلاد العربية لكن الحقيقة أن البيروقراطية هي غير ذلك تماماً فالبيروقراطية تستهدف إلغاء الشخصنة حيث إنها تعمل على إلغاء الطابع الشخصي لتوزيع الأعمال الإدارية وأساليب أدائها. ومن جهة أخرى فإن البيروقراطية هي مجموعة النظم واللوائح التي تحدد السلوك التنظيمي للإدارة وتهدف إلى أن يكون هذا السلوك أفضل سلوك يحتمل أن يمكن التنظيم من تحقيق أهدافه. وهي تنظيمات تمثل ضمانة للتنظيم من أن يقع في الفساد والتسيب والانحراف، حيث تكون العلاقة بين الرئيس والمرؤوسين علاقة غير شخصية فإذا كانت العلاقة شخصية تجعل عملية تقييم المرؤوسين صعبة.

وتتركز تحليلات فيبر للبيروقراطية على تصوره لطبيعة علاقات الفرد في المجتمع كما اهتم بنموذج لعلاقة القوة وهو ما أطلق عليه مصطلح السلطة وهو علاقة القوة بين الحاكم والمحكوم والأفراد حيث إن ممارسة السلطة على عددٍ من الأفراد تقتضي وجود هيئة إدارية قادرة على تنفيذ الأوامر وتحقيق الصلة الدائمة بين الرؤساء والمرؤوسين. وهكذا حاول فيبر أن يضع نماذج للسلطة وفقاً لمعيارين هما: الاعتقاد في شرعية السلطة ووجود الجهاز الإداري الملائم.

كما اهتم فيبر باستخدام مصطلح التحول "التحول نحو البيروقراطية" استخداما واسعاً حيث إن هذا التحول مرتبط بظهور أنماط للسلوك والتفكير تشيع في كافة مجالات الحياة. إن هذا التطور مرهون بظهور أنماط للسلوك والتفكير تشيع في كافة مجالات

الحياة الاجتماعية نتيجة لانتشار النزعة العقلية، تلك التي تشير إلى الإحاطة النظرية بأبعاد الواقع من خلال مفاهيم محددة والتوجه المنظم نحو تحقيق هدف أو غاية معينة بعد دراسة كافة الوسائل الممكنة والمفاضلة بينها. ومن نتائج هذا التصور للعقلانية ازدهار العلم وازدياد الاعتماد عليه كنسق فكري يوجه السلوك والعمل بدلاً من الاعتماد على التفسيرات والقيم والأفكار الغيبية والميتافيزيقية. فالفكرة المحورية وراء تحليله التاريخي تتمثل في الصراع بين الإلهام الذي يشير إلى ابتكار أو تجديد نتيجة قوى تلقائية تظهر في المجتمع وتتحكم في مساره وبين الروتين أو النظام الدقيق القائم على أسس معروفة وخطة محددة من قبل. فليس من شك أن القيادة الملهمة قوة ثورية في العملية التاريخية. (11) كما يمكن أن يعد التحول نحو البيروقراطية أمراً مرهوناً بأنماط السلوك والتفكير في كافة مجالات الحياة الاجتماعية واستخدام العقلانية يساعد على ازدهار العلم وازدياد الاعتماد عليه في توجيه السلوك الإنساني، الاعتماد على العلم بدلاً من الاعتماد على القيم والأفكار الغيبية.

أما أهم أعمال فيبر فتضم دراسات مثل الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، السلطة الروحية، البيروقراطية، العقلانية، بالإضافة إلى الأخلاق التطهيرية أو التزمتية، التصوف وروح الزهد. لهذا فإن علم الاجتماع بالنسبة لفيبر هو دراسة القيم الحاسمة التي تُعَرِف السلوك الاجتماعي في مراحل معينة من التطور التاريخي للمجتمع. يظهر أن مثل هذا المدخل يختلف كليا عن المدخل العياني أو مدخل دراسة الوحدات الكبرى Macroscopic والتأكيد البنائي من قبل المنظرين الذين طوروا النماذج العضوية ونماذج الصراع. ويمكن تلخيص أهم افتراضات فيبر العلمية كما يلي:

1- يعد الفعل الاجتماعي من أهم الإسهامات التي قدمها فيبر في سبيل بناء النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع. فطبقا لوجهة نظر فيبر يعتبر الفعل الاجتماعي ذا معنى بالنسبة للفاعل عندما يفترض له معنى ذاتيا زيادة على أخذه في الحسبان لسلوك الآخرين وبذلك يكون المعنى موجها إليهم. (12) ويختلف الفعل عن السلوك، إذا حاولنا مقارنتهما معاً. إذ يعتبر

السلوك هو ذلك الجزء من الفعل الذي يلاحظه الباحث حينما يستنتج دافعه. أما الفعل فهو الدافع والسلوك معاً في علاقة الوسائل بالغاية. ذلك لأن أي سلوك يعتبر بلا معنى بدون دوافعه. والدافع أيضاً لا يمكن تحديده بدون سلوكه. (13) ومن الواضح اختلاف الفعل عن السلوك عند مقارنتهما لأن الفعل الاجتماعي ذو معنى بالنسبة للفاعل كما هو معروف.

2- إذا كانت العلوم الطبيعية تهتم بمعالجة الوقائع فإن العلوم الثقافية تعالج المعاني، وإذا كان الفكر في العلوم الطبيعية يتخذ صورة التفسير فإنه في العلوم الثقافية يتخذ صورة الفهم. وبما أن الأول يهتم بالعلاقات السببية والقوانين فإن الثاني يحاول أن يربط المعاني ببعضها ويدرك موضوعه بشكل مباشر عن طريق الحدس. (14) ومن هنا فإن هناك عدة أنواع واضحة للمعنى: المعنى المقصود بالضبط للفعل الفردي المحدد (معنى ذاتي)، متوسط المعنى المقصود فعلا (الجماعة أو المستوى المعياري)، وأخيراً المعنى المناسب لإعادة الصياغة العلمية للنموذج النقي (مجرد، نموذج نظري) كل النماذج الثلاثة كانت وثيقة الصلة بالنموذج متعدد المستويات من الشرح السببي.

3- ينظر فيبر إلى الفعل الاجتماعي على أساس أنه يختلف في مستواه العقلاني. فقد رسم فيبر الخطوط العريضة لأربعة نماذج أساسية من الفعل الاجتماعي تتباين من الأقل عقلانية إلى الأكثر عقلانية وهذا التصنيف يشكل جوهر تفكير فيبر الفلسفي وهو كما يلي:

أ- الفعل الاجتماعي ذو التوجه التقليدي (السلوك المعتاد أو المألوف الذي تحدده التقاليد). حيث أكد عند مناقشته للنظام المشروع على أن مشروعية أي نظام يمكن أن ينسبها فاعلها بالتوجه نحو التقاليد. ومن هنا يساعد التقليد على الموافقة على الجانب المعياري للنسق الاجتماعي صراحة وبصورة محددة. ومن ثم فالفعل التقليدي أو الفعل ذو التوجه التقليدي هو الفعل الذي تقره العادات والمعتقدات بحيث يصبح معتاداً ويشكل طبيعة ثانية للإنسان.

ب- الفعل الاجتماعي ذو التوجه الوجداني (السلوك العاطفي) ويكون من خلال حالات معينة للشعور أو الوعي. ويطلق فيبر هذه التسمية على الفعل الذي يتأسس بناء على الحالة العقلية أو الانتقالية للفاعل. فصفعة الأم لطفلها لسوء سلوكه، تعني أن فعلا قد وقع أو تحقق ليس بالنظر إلى الهدف أو إلى نسق القيم، ولكن بواسطة رد الفعل العاطفي للفاعل الذي وضع في إطار ظروف محددة.

ج- التوجه العقلاني نحو القيم المجردة أو المطلقة Wertrational (الفعل الاجتماعي المحدد بمجموعة من الأخلاق والقيم). وهو الفعل الذي يتم من خلال الإيمان الشعوري بالقيم المجردة أو المطلقة في حد ذاتها. سواء فسر كفعل أخلاقي أو ديني حيث يتميز بالاعتقاد في مسار محدد للسلوك في ذاته دون اعتبار لنتائجه. والفعل الاجتماعي بالنظر إلى القيمة يماثل فعل القائد البحري الشجاع الذي يغرق نفسه مع سفينته. ويكتسب الفعل عقلانيته ليس من خلال محاولته تحقيق هدف خارجي محدد. ولكن لأن التخاذل عن تحقيقه ينظر إليه كنوع من العار، ومن ثم نجد الفاعل يتصرف عقلانياً حتى يظل أمينا على فكرة أو قيمة الشرف لديه. (15) يجب أن يكون الفعل الاجتماعي نابعاً من القيم المجردة في حد ذاتها وإلا يكون عديم الفائدة.

الفعل الاجتماعي ذو التوجه العقلاني نحو نسق الغايات الفردية (عندما تكون الغاية والوسائل والنتائج الثانوية قد أخذت جميعاً في الحسبان وتم وزنها بعقلانية) أو الفعل العقلي Zweckrational الذي توجهه غايات محددة ووسائل واضحة، إذ الفاعل يضع في اعتباره الغاية والوسيلة ثم يقوم بتقويمها تقويما عقليا من خلال توقع الفاعل لسلوك موضوعات البيئة الخارجية، بحيث تلعب هذه التوقعات المتعلقة بسلوك موضوعات البيئة الخارجية، أو سلوك الأشخاص الآخرين دورها كشروط أو وسائل لغايات عقلانية، تقدر وتنجز بشكل عقلاني. إن هذا النمط من السلوك يشبه ما أطلق عليه باريتو مصطلح السلوك المنطقي فالمهندس الذي يصمم مشروعا معماريا والمضارب الذي يحسب ما سيعود

عليه من كسب في مضارباته، والقائد الذي يختار أفضل الخطط التي تحقق له النصر، كلها أمثلة للفعل العقلي. (16) الفعل العقلاني إذا هو الفعل المبني على حسابات دقيقة وتخطيط سليم ونظرة واقعية لغايات عقلانية يخطط لها وتنفذ بشكل عقلاني بعيدا عن الأهواء والغايات الشخصية والتقدير العشوائي للأمور.

مثل هذا النموذج طبقاً لما يراه فيبر ليس جامعا مانعا كما أنه غير قابل للتنفيذ لكنه يمثل متصلا لنماذج من التوجهات الاجتماعية يبدأ بالثقافات ذات الروح الفردية المنخفضة والتحكم التقليدي العالي وتنتهي بتلك الثقافات التي تكون فيها الروح الفردية عالية والتقليدية منخفضة.

4- قدم فيبر مزيدا من الإيضاح لهذا النموذج عن طريق تحديد أنواع من الشرعية، والعلاقات، والروابط، والجماعات المتحدة، والضبط المتأصل داخل كل توجه من التوجهات التقليدية، والعاطفية، كل ذلك من خلال توجيه الجماعة العقلاني (المقنن بالقيم المطلقة) للتوجه العقلاني للفرد (المحدد بالغايات الفردية) كالآتي: من داخل التقاليد، والشرعية المبنية على المواقف الدينية، وعلاقات التضامن المشتركة، والتضامن الإجباري أو الإلزامي، والجماعات المتحدة سياسيا، والتحكم المبنى على الضبط، والتعاطف، من جهة، ومن جهة أخرى فإنه مبني على الولاء العاطفي المشترك وفيه يكون الاتحاد الطوعي، والجماعات المتحدة تكون ثورية، والتحكم مبني على القوة. والتوجه العقلاني المحدد عن طريق القيم المطلقة يصبح شرعيا بلغة هذه القيم، والعلاقات فيها اتحادية، والاتحاد فيها إجباري، والجماعات المتحدة كهنوتيا (دينياً)، والتحكم يكون مبنياً على الضبط، وأخيراً التوجيه العقلاني المبني على الغايات الفردية يكون مؤسساً على الاهتمام الشخصي. والعلاقات الاتحادية، والاتحاد الإجباري، والجماعات المتحدة سياسيا، يتحكم فيها عن طريق القوة. وهكذا يرى فيبر أن أنماط مختلفة من الأفعال الاجتماعية في المجتمع تكون مبنية على نماذج مختلفة من القيم أو المستويات العقلانية. كالدرجة التي عندها يحدد السلوك من قبل اهتمامات الشخص أو الجماعة.

5- أن تطور العديد من الإشكال العقلانية للفعل الاجتماعي بالنسبة لفيبر تنتج عن عملية المنافسة، التي تؤدي إلى "اختيار هؤلاء الذين لديهم خصائص شخصية راقية". هذه المنافسة تتناوب بين نماذجه المسالمة ونماذجه التي تستخدم العنف وكذلك بين القيم التقليدية والقيم الروحية وهي تتأثر بواسطة نوع من بناء الفرصة المتأصل في اهتمام المجتمع.

6- نظر فيبر إلى العقلانية على أنها تؤدي إلى نوع من النموذج أو البناء البيروقراطي الذي يكون فيه الفعل الاجتماعي محدد عن طريق نظام محكم من الأدوار، والمعايير، والعقوبات. عند هذه المرحلة من تطوره يكون المجتمع متحكماً فيه بشكل كبير أو منظم، ويكون غير شخصي (بيروقراطي) وذلك كاستجابة للحاجة إلى اقتصاد فعال في ظل التصنيع. (17) والمثال الجيد لمثل هذا النوع من المجتمعات التي تستخدم البيروقراطية بشكل سليم هو دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا وأستراليا أما دول العالم الثالث فهي لم تصل بعد إلى مرحلة البيروقراطية الصحيحة.

وأخيراً نود إيجاز الحديث عن الفروض التي قدمها فيبر فنقول: لقد كان اهتمامه الأساسي منصبا على فهم معنى الفعل الاجتماعي فلقد حاول أن يرسم الخطوط العريضة للعلاقة بين نماذج الفعل الاجتماعي وأنواع البناءات الاجتماعية المؤسسة عليها عندما يتحول المجتمع عموما من العقلانية التقليدية إلى العقلانية الحديثة تحت تأثير التصنيع وتأثير الأخلاق البروتستانتية. يتفاعل المجتمع مع عملية الاختيار الاجتماعي من خلال المنافسة فينظر له على أساس أنه أصبح أكثر عقلانية أو بيروقراطية عندما تعمل المستويات العالية من التصنيع على زيادة الحاجة إلى الفاعلية. عموما كان فيبر مهتما بالعلاقة بين القيم الفردية والبناء الاجتماعي.

عند الحديث عن المنهج العلمي لماكس فيبر فإنه يمكن القول كما تحدثنا فيما سبق إنه حدد عدة نماذج من المعنى الاجتماعي Social meaning وكان مهتما بتطوير مدخل متعدد المستويات. وهذا تطلب استخدام تقنيتين منهجيتين أساسيتين هما: الفهم التأويلي أو

التفسيري Interpretive understanding والتجربة التخيلية Imaginary experiment الأول يقدم محاولة لشرح معنى السلوك عند مستوى الفرد والجماعة بالإضافة إلى تجريد النماذج الرئيسية أو النماذج المثالية للمعنى الاجتماعي. أما المدخل الأخير فهو يكمل الأول بإدخال الحدس بأنواع محتملة من المعنى الاجتماعي. في كلتا الحالتين التأكيد يوضع على المحاولة لإظهار نوع الدافع المحدد الذي يقف وراء تدخل الفعل الاجتماعي. في أعماله الخاصة استخدم فيبر هذه المناهج لربط الأخلاق البروتستانتية مع الرأسمالية، الأخلاق التطهيرية Puritan Ethic والزهد، والزهد الديني مع استخدام البيروقراطية. من الواضح أن اهتمامه الأساسي كان موجهاً للربط بين الدوافع والفعل الاجتماعي، والقيم والسلوك الاجتماعي.

طور فيبر نموذجاً لدراسة الفعل الاجتماعي الذي يعتقد أنه يتطلب وجود أداة منهجية أو منهجا خاصا بدراسته وأسمى هذه الأداة النموذج المثالي Ideal Type وهذا المصطلح لم يظهر إلا في كتابه الاقتصاد والمجتمع الذي يعد من أهم مؤلفاته في ميدان النظرية الاجتماعية، وهو العمل الذي لم يتمه في حياته بل تم تجميع محتوياته بعد أن تركها فيبر في شكلها المبدئي، ويعتبر النموذج المثالي من أكثر مفاهيم فيبر محورية، حيث يمثل تآلف اتجاهات متعددة في الفكر الفيبري، والنموذج المثالي حسب وجهة نظر فيبر ليس وصفا للواقع ولكنه يهدف إلى توفير وسائل واضحة لوصف هذا الواقع والتعبير عنه. والنموذج المثالي بالنسبة لفيبر "بناء من العناصر التي جردت عن الواقع والتي وضعت مع بعضها البعض، لكي تشكل نموذجاً تصوريا موحدا وهو ما يتضمن المبالغة لبعض جوانب الحقيقة. وفي محاولة لتحديد هوية النموذج المثالي بشكل أكثر وضوحا يؤكد فيبر أن النموذج المثالي: ليس فرضا نظرياً بمعنى أن يكون قضية تتعلق بالحقيقة الواقعية، بحيث يمكن اختبار صدقها الواقعي. فالنموذج المثالي عادة ما يتسم بالتجريد. وهو ليس وصفا للواقع. كما أنه ليس صياغة للسمات الواقعية المشتركة بين فئات من الموضوعات الواقعية". (18) وقد رفض فيبر الفكرة القائلة بالمماثلة بين مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. فالثانية

تركز حسب وجهة نظره على العناصر الذاتية التي لا تتكرر بسبب تفردها. وهذا يعني بالطبع أن فيبر يرى أن الذاتية لا تعني بالضرورة أن يكون علم الاجتماع علما ذا طابع شخصي.

النماذج الرئيسية المتأصلة في أعمال فيبر هي نموذجان:نمط الفعل الاجتماعي والنمط البيروقراطي الأخير يمثل خصائص أساسية مصاحبة للنمط الأكثر عقلانية. سنتناول الاثنين بالتبادل.

نموذج فيبر للفعل الاجتماعي تم تلخيصه في الشكل التالي: الفعل الاجتماعي هو الذي يحتوي على الخصائص الرئيسية التي سبق مناقشتها بالإضافة إلى ذلك فإن هناك عناصر أساسية تحدد الدرجة التي يكون فيها السلوك ذا معنى . وهي الدرجة التي يكون فيها السلوك ذا معنى بالنسبة للفرد (كفردية اتخاذه للقرار) أخذا في الاعتبار سلوك الآخرين . قد قدمت كجزء من النموذج. الخصائص الرئيسية لكل نموذج من الفعل الاجتماعي واضحة هنا، حيث تبدأ بالتقليدية التقليدية لتصل أخيراً إلى العقلانية والفردية ثم إلى الأكثر عقلانية. كما يوجد كذلك التفاعل بين القيم التقليدية والقيم الروحية الذي يقود إلى العقلانية المتزايدة وإلى عملية الاختيار التنافسي. قدم لنا هنا إذن نموذجاً أساسياً للقيم، العمليات الاجتماعية والأنساق الاجتماعية المترابطة طورت ووضحت بالكامل من قبل فيبر في بحثه التاريخي. مثل هذه المساهمة أساسية في وصفها لنماذج المجتمعات، وعناصرها الأساسية وتطورها، إنها لم تتجاوز في العمق والمجال، علم الاجتماع التقليدي وكذلك علم الاجتماع الحديث.

وقد رأى فيبر أن التطور الاجتماعي يتجه نحو زيادة البيروقراطية أو العقلانية. هذا يوصلنا إلى نموذجه الرئيسي الثاني وهو النموذج البيروقراطي الذي يتألف من ثلاثة عناصر وهي:

1- الحالات الرئيسية السابقة لهذه العملية.
2- خصائص طريقة إدخال عملية البيروقراطية نفسها.
3- عواقبها الاجتماعية. (19) هذا النموذج طوره من خلال عدد من أعماله الرئيسية. يمكن

ملاحظة أن الأوضاع السابقة تتكون من تطوير الاقتصاد النقدي، والضرائب، والطلب والحاجات الاقتصادية المحددة، مساهمة بعض القيم الدينية المحددة وغياب النموذج القوي، والقيم التقليدية.

إن عملية إدخال البيروقراطية في حد ذاتها تتكون من سلم لبناء الأدوار والقيم غير الشخصية والمحددة بدقة، فيكون هناك نسق أرشيفي filing system للإعداد للدور، وقدرات عالية من لاعبي الأدوار. النتائج الرئيسية لهذه العملية تشمل تسوية الاختلافات الاجتماعية، زيادة الفوارق بين الطبقات، الصراع بين البيروقراطية والديموقراطية وزيادة عقلنة المؤسسات التعليمية والدينية والسياسية في المجتمع. وهكذا فبينما البيروقراطية تجعل التنظيمات أكثر كفاءة من جهة فإنها تؤدي كذلك إلى مستوى عال من الضبط والعلاقات غير الشخصية.

ثانياً: جورج هربرت ميد 1863-1931م

ولد جورج هربرت ميدGeorge Herbert Meadفي ساوث هادليSouth Hadley بولاية ماساتشوستس Massachusetts بأمريكا يوم 27 فبراير 1863. كان والده هيرام ميد قسيسا ينحدر من سلسلة طويلة من نسب إلى مزارعين وقساوسة تطهيريين كانوا متواجدين في مجموعة ولايات نيو إنجلند New England بأمريكا، وكانت أمه مثل زوجها تنحدر كذلك من عائلة ذات خلفية يقدر أهلها الإنجازات الفكرية حق قدرها.

عندما كان عمر ميد سبع سنوات استدعي والده إلى معهد أوبرلين Oberlin College لتدريس فنون الوعظ الديني في حلقة نقاش دينية كان المعهد قد افتتح التدريس بها حديثا. وقد ترعرع ميد في أوبرلين ودرس في معهدها. على الرغم من أنه كان قد ثار ضد الجو الديني، فقد كان متأثراً جداً بمزيج من الأخلاق التطهيرية في نيو إنجلند والأفكار التقدمية في الغرب الأوسط الأمريكي التي كانت مسيطرة على المعهد.

ونود الإشارة هنا إلى أن معهد أوبرلين كان من أوائل المعاهد التي قبلت السود للدراسة

فيها كما انه في سنة 1841 كان معهد أوبرلين أول معهد يعطي درجة البكالوريوس لامرأة وهو أمر غير معتاد في ذلك الوقت. أما في السنوات التي سبقت الحرب الأهلية فقد كانت مدينة أوبرلين من أهم المدن التي كان يهرب عن طريقها العبيد من الجنوب الأمريكي إلى الشمال وإلى كندا فيما عرف بخط سكة الحديد تحت الأرض Underground Railroad وذلك قبل إلغاء الرق في الولايات المتحدة بعدة سنوات وهو ما أعطى هذه المدينة ومعهدها أهمية خاصة في محاربة التفرقة العنصرية والجنسية في ذلك الوقت.

كان المنهج في معهد أوبرلين منصبا على تنمية الشعور الديني مثله في ذلك مثل غيره من المعاهد التي كانت ترعاها الجماعات الدينية المسيحية البروتستانتية التي كانت قد انتشرت في الغرب الأوسط الأمريكي خلال القرن التاسع عشر. كما حدث في معهد كارلتون عندما وقف فبلن ضد الأفكار الدينية الضيقة لمعلمه كذلك فعل ميد الذي ثار ضد زيادة حشر العقيدة الدينية الضيقة في الأمور الفكرية وهو الابن الذي ينحدر من أسرة عرف عنها لأجيال تمسكها بالعقيدة الدينية التطهيرية لكنه فقد إيمانه بالكنيسة فيما بعد، إلا أن آثار الأخلاق المسيحية ظلت ترافقه طوال حياته وهي الأخلاق التي تشربها في منزل الأسرة وفي معهد أوبرلين.

توفي والد ميد في عام 1881وترك أسرته بدون مصدر للرزق مما اضطرها إلى بيع منزلها والانتقال إلى حجر مؤجرة في منزل آخر. وقد عمل ميد الصغير في مطعم المعهد الذي كان يدرس فيه مقابل طعامه. وقامت والدته بالتدريس بنفس المعهد لتستطيع مواجهة تكاليف الحياة واستمرت في مهنة التدريس إلى أن أصبحت رئيسة لمعهد مونت هولي أوك Mount Holyoke College وهو ما يؤكد على الاهتمام العلمي للأسرة التي ولد ونشأ فيها ميد.

تخرج ميد في معهد أوبرلين في عام 1883. واشتغل بالتدريس لمدة نصف سنة في مدرسة ترك معظم مدرسيها التدريس بها بسبب وجود شلة من التلاميذ المشاغبين الذين بثوا الرعب في نفوس المدرسين والطلاب معاً. إلا أن ميد تمكن من إخراج جميع الطلاب

المشاغبين من المدرسة لكن تصرفه هذا كان السبب في طرده هو كذلك من المدرسة لأن المشرفين على تسيير شؤونها كانوا يرون أن عند كل طفل حقاً إلهياً في التعليم.

بعد أن تخلى عن حلمه المبكر في إنشاء جريدة أدبية في نيويورك، عاش ميد لمدة ثلاث سنوات في شمال الغرب الأمريكي، يتناوب فيها بين القيام بالتدريس الخصوصي والقيام بمسح الأراضي بهدف إعدادها لمد خطوط سكة الحديد عليها. وفي أشهر الشتاء عندما يكون شبه مستحيل عليه القيام بمسح الأراضي التي سوف تمدد عليها خطوط السكك الحديدية كان يعيل نفسه بإعطاء بعض الدروس الخصوصية للتلاميذ وكان في الوقت نفسه يقرأ بنهم خلال هذه الفترة. ويبدو أنه لم يكن أثناء هذه الفترة مستقراً، بل إنه لم يكن يعرف إلى أين سيذهب في الخطوة القادمة أو أي عمل سوف يمارس. وقد انتهت هذه الشكوك في خريف عام 1887عندما قرر أن يتبع خطى صديقه الحميم أيام الدراسة هنري كاسل Henry Castle إلى جامعة هارفارد وذلك بهدف التوسع في دراسة الفلسفة. (20) وكان هذا من أهم القرارات التي اتخذها ميد في حياته حيث فتحت أمامه أبواباً واسعة على المعرفة العلمية التي كان يسعى إلى تحصيلها وتخلص خلالها من أفكار معهد أوبرلين التقليدية القديمة.

كان ميد في جامعة هارفارد يعمل أساساً مع كل من: رويس Royce وجيمسJames وكلا هذين الأستاذين ترك علامة بارزة في حياته وشكل أساساً للمستقبل الذي كان يتوقعه. فقد تحرر ميد من فلسفة والده التطهيرية والولاء الذي كان يكنه معهد أوبرلين للمسيحية وذلك بقراءة أعمال داروين وغيره من "المفكرين الأوائل"، كما اعتنق ميد الفلسفة الذرائعية على يد جيمس، الذي كان على اتصال حميم به، فـ ميد لم يقم فقط بمعظم أعماله العلمية معه، بل كان مدرسا خاصا لأطفاله كذلك.

بعد سنة من انتسابه إلى هارفارد قرر ميد أن يذهب إلى ألمانيا كما كان متبعا عند معظم أبناء جيله وذلك بهدف الدراسة الموسعة للفلسفة. فقد ذهب أولاً إلى لايبزق Leipzig للدراسة على يد فلهلم فانتWilhelm Wunt، الذي أثر مفهومه "الإيماءة" Gesture بشكل

كبير على أعمال ميد فيما بعد. كما قابل كذلك في لايبزق ستانلي هول G. Stanley Hall عالم وظائف الأعضاء والنفس الأمريكي البارز الذي يبدو أن أفكاره قد حفزت اهتمام ميد في هذا الموضوع. وأخيراً ذهب ميد في عام 1889، إلى برلين للدراسة المتقدمة في علم النفس والفلسفة.

في الأول من أكتوبر عام 1891 تزوج ميد من هيلن كاسل أخت صديقه هنري كاسل وقرر الزوجان الذهاب إلى آن آربر حيث عين ميد مدرسا بجامعة متشجن في قسم الفلسفة وعلم النفس. حيث كان يدرس بالجامعة في ذلك الوقت كل من تشارلز كولي، جون ديوي، وجيمس توفتس Tufts والذين أصبحوا جميعهم فيما بعد من خيرة رفاقه في درب المعرفة. تابع ميد تحقيقاته في علم نفس وظائف الأعضاء أو علم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology الذي قدم لأول مرة من قبل ستانلي هول وبدأ ميد في تطوير نظرية سيكولوجية للانفعالات كانت موازية لنظرية ديوي الغائية Teleological التي كان يعمل عليها في ذلك الوقت.

ولد هنري ابن ميد الوحيد في آن آربر في سنة 1892. وبعد سنة من ذلك قبل ميد دعوة جون ديوي له ليكون معه في جامعة شيكاغو عندما كان الأخير أستاذاً بارزاً في قسم الفلسفة فيها. وقد بقي ميد في جامعة شيكاغو حتى وفاته يوم الأحد26 أبريل 1931. (21)

شيكاغو التي كانت في عام 1833 عبارة عن حصن خشبي Fort Log أصبحت مدينة رئيسية بعد ستين عاماً فقط من ذلك الوقت. كما أصبحت مركزاً صناعياً واقتصادياً مهماً وقد ازدهرت فيها على وجه الخصوص صناعة تعليب اللحوم وصناعة عربات النوم لركاب السكك الحديدية وغيرها من الصناعات المهمة في أمريكا كما كانت مقرا لأشهر معارك العمال التي أشعلوها ضد أصحاب العمل في أمريكا. وارتفعت بها معدلات الجريمة نتيجة لمعدلات الهجرة العالية إليها وانتشار أحياء أو مناطق الفقراء Slum districts فيها.

جامعة شيكاغو التي فتحت أبوابها عام 1892، قصد بها من البداية أن تكون إحدى معالم شيكاغو المثيرة للإعجاب. وقد حاول رئيسها في ذلك الوقت وليام هاربر أن يغزو

جامعات الشرق أمريكي بحثا عن أساتذة أكفاء واعدا إياهم بمرتبات تعادل ضعف مرتباتهم في جامعاتهم متيحا لهم فرصة الانضمام إلى جامعة ستكون عما قريب واحدة من أكبر الجامعات في العالم. وقد كان ناجحا في مسعاه. ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى أصبحت جامعة شيكاغو بين أوائل الجامعات في أمريكا. وكان من بين أعضاء هيئة التدريس الرئيسيين فيها ثمانية أساتذة تركوا مناصبهم كرؤساء جامعات لينضموا إليها كأعضاء هيئة تدريس فقط.

كان اهتمام ديوي منصبا على التربية حيث كان ينشر مقالات عن التربية وعن السياسات التعليمية في مجلة، مدرس المدرسة الابتدائية The Elementary School Teacher وهي المجلة التي كان ديوي أحد المحررين الرئيسيين فيها، وكانت المجلة التربوية الرئيسية للجامعة. لكن اهتمام صديقه ميد لم يكن مقتصرا على التربية، فقد كان مهتما بالمشاكل التي تعانيها مدينة شيكاغو، فكان عضواً نشيطاً في نادي مدينة شيكاغو الذي كان يضم كبار رجال الأعمال والمهنيين وقد شغل منصب رئيس هذا النادي فترة من الزمن. (22) إلا أن كل هذه النشاطات لم تصرف ميد عن واجباته كأستاذ جامعي، فقد كان رجل يمتلك قدرات استثنائية، فكان يعطي محاضراته بحماس يضاهي حماسه في جهوده الإصلاحية، حيث كان يعد محاضراته بعناية خاصة، ولهذا كانت تجذب إليها عدداً كبيراً من الطلبة. وقد كان إلقاؤه واضحا ومنظما. وعلى الرغم من أنه كان يجد صعوبة في كتابة أفكاره، إلا أنه لا يجد أي صعوبة عندما يتعلق الأمر بالإلقاء الشفوي. وقد كانت محاضراته عن علم النفس الاجتماعي على وجه الخصوص تجذب إليها أعداداً كبيرة من الطلبة من أقسام أخرى خاصة من قسمي علم الاجتماع وعلم النفس.

خلال أيامه الأولى في شيكاغو كان ميد مختفياً في ظل ديوي الذي كان نشطاً وديناميكياً فحتى بعد أن رحل ديوي إلى جامعة كولومبيا لأنه شعر أن تجاربه التربوية لم تحظ بالتأييد الكامل في شيكاغو، لم يستطع ميد أن يملأ الفراغ الذي تركه صديقه ديوي في الجامعة. ومن أهم الأسباب التي كانت وراء ذلك قلة منشورات ميد.

كان ميد يجد صعوبة بالغة في كتابة أفكاره. فقد كان يقضى ساعات مؤلمة جالساً إلى مكتبه دون أن يستطيع تدوين أي شيء، وكان في بعض الأحيان ينفجر باكيا وينهمر الدمع من عينيه بغزارة عندما ييأس من الحصول على تعبير مناسب لتيار أفكاره المتسارع. فقد قال عنه ديوي في هذا الخصوص "لقد كان دائما غير راضٍ عما أنجز فقد كان يتجاوز خبراته السابقة بسرعة وكنتيجة لذلك كان كارها لتثبيت أفكاره في كلمات مكتوبة، لهذا ظلت أفكاره لسنوات عديدة محفوظة عند طلابه وأصحابه الذين كانوا مدركين لغنى وقوة فكره الفلسفي الهائل".

كان الوسط المفضل عند ميد هو الكلمات المنطوقة وليست المكتوبة. كأنه كان يكتب في سيرة حياته عندما كتب "نحن نقوم بالتفكير على شكل محادثة ونعتمد على الكلمات الخالية لمعانينا" كتب أحد طلابه "كانت المحادثة هي الوسط المفضل لديه". أما "الكتابة فقد كانت عنده الخيار الثاني الرديء" في كثير من الأحيان كان ميد شبه عاجز عن أن يوصل فكرته كتابة فالقارئ بدون شك لا يستطيع الحصول منه على خبرته الحقيقية، الخبرة التي يستطيع أن يوصلها بوضوح فقط من خلال انسياب التبادل اللفظي والإيماءات المهمة.

بعيدا عن الحقيقة الموضوعية لسجله الضحل بالنسبة لكتاباته العلمية المنشورة، فإن ميد نفسه لم يكن يشعر ذاتيا بالرغبة في الوصول إلى دور جماهيري مثل دور ديوي. كان ميد رجلاً متواضعاً جداً، متزناً، منسجماً مع غيره في الشعور والعمل، ولم تكن تراوده كثيراً فكرة الحصول على تقدير واسع وكان يرى نفسه دائما على أنه عامل بسيط في حقل كبير. ويتذكر هربرت بلومر Herbert Blumer أحد تلاميذ ميد السابقين عندما قدم في العشرينيات برتراند راسل ليلقي محاضرة في جامعة شيكاغو وكلف ميد بتقديمه وكان عمر ميد وقتها حوالي ستين عاما، كان يبدو عصبياً وكأنه مدرس صغير بهم بمقابلة واحد من أعظم المفكرين في حقله.

إن تواضع ميد وحياءه يجب أن لا يفسر على أنه ضعف في شخصيته. لقد كان رجلاً

ذا مبادئ ويستطيع أن يتصرف بحسم عندما يتطلب الموقف ذلك. فعندما حاول رئيس الجامعة أن يجبر قسم الفلسفة على قبول صديق له ويظهر أن احتجاج ميد لم يكن ذا جدوى في رفضه فقد اضطر إلى تقديم استقالته وأعد نفسه للرحيل عن شيكاغو والانضمام إلى صديقه ديوي في كولومبيا، ولم يمنعه من تنفيذ قراره إلا موته المفاجئ.

في أواخر أيام حياته كتب ميد جملة من الممكن اعتبارها كانت تصور حياته تصويرا صادقا وهي: "إن تأكيد الباعث على الفخر باستقلال الشخصية ما هو إلا تأكيد على القدرة الفريدة لملء دور اجتماعي معين" بأسلوبه اللطيف والمتواضع، فإن ميد لم تكن لديه الرغبة في أن تسلط عليه الأضواء. لقد رأى نفسه على أنه جندي عادي في معركة الإصلاح الاجتماعي والفكري ولم يكن تواقا لقيادة الجند. حبه الشديد الراسخ للبحث العلمي كان متحكماً فيه دائما برغبته في أن يساهم بحصته في تحسين أوضاع الإنسان أينما كان. "نحن الذين حددنا ما كانت عليه الدنيا". وقد أخبر ابن ميد جون ديوي بأن التعبير الذي كان دائما مقترناً بوالده عندما تكون هناك مشكلة اجتماعية مطروحة للنقاش هو: "يجب أن يكون ممكنا أن تفعل كذا وكذا".

لقد مات ميد وهو يعتقد أنه سوف يعرف عند الأجيال القادمة، إذا حدث ذلك، ككاتب لبعض المقالات الفنية. ويظهر أنه لم تكن لديه فكرة بالحقيقة التي مفادها أن تأثير أعماله سوف ينمو من حقبة إلى أخرى لدرجة أنه الآن من الممكن أن يعتبر واحداً من النخبة القليلة من المفكرين الأمريكيين الذين ساعدوا على تشكيل شخصية العلم الاجتماعي الحديث. (23)

من السهل إثبات أن ميد كان مدينا للتقاليد الداروينية بالكثير. فهو مدين لدارون ليس فقط بتحريره من أغلال اللاهوتية التي اكتسبها في شبابه، لكنها كانت دافعه القوي إلى تطوير فلسفته الذرائعية Pragmatic Philosophy. في الواقع كانت نظرية دارون في التطور البيولوجي هي القاعدة لذرائعية ميد ومن تبعه من المفكرين. هذه النظرية نظرت إلى الكائن الحي على أنه داخل في صراع مستمر للتحكم في البيئة، أي أنها كانت مبنية على فهم طبيعي للعقل، الذي

يكون بشكل أساسي في اختلاف مع وجهات النظر التقليدية حول طبيعة الذكاء.

كان ميد متمشيا مع عصره فقام بتطبيق التوجهات السلوكية في دراسة عمليات التفاعل. كان ميد قد درّس في جامعة شيكاغو منذ عام 1893 حتى وفاته. وكان ديناميكيا وشخصية جذابة وكان يفضل أن يطور أفكاره بالتعبير الشفوي في قاعة الدرس بدلاً من التعبير عنها عن طريق الكلمات المكتوبة أو المنشورة. لهذا نجد أن معظم أفكاره كانت قد نشرت بعد وفاته في أربعة أجزاء جمعت من قبل طلابه المخلصين مما كان يكتبونه بشكل مختصر من محاضراته ومن أجزاء من مخطوطاته ومن كتاباته غير المكتملة التي عثر عليها بعد وفاته.

من منظور ميد علم النفس الاجتماعي يهتم بدراسة العلاقات بين أعضاء الجماعة وأنماط السلوك الفردي. واعتبر ميد المجتمع على أنه المتغير المتقدم أو السابق "لعلم النفس الاجتماعي فالكل (المجتمع) يسبق الجزء (الفرد) وعليه فإن الجزء ليس هو الذي يسبق الكل، والجزء يجب أن يفسر بلغة الكل، وليس الكل هو الذي يجب أن يفسر بلغة الجزء أو الأجزاء. وتمشيا مع هذا المدخل السلوكي كانت وحدة التحليل عند ميد الفعل الاجتماعي Social act. يقول ميد إن علم النفس الاجتماعي Social psychology، علم سلوكي بمعنى أنه يبدأ بدراسة وتحليل نشاط ملحوظ بشكل علمي. لكنه أسرع إلى التأكيد على أنه يجب على علم النفس الاجتماعي السلوكي أن لا يتجاهل "الخبرات الباطنية للأفراد".

عرف ميد الفعل الاجتماعي بأنه تبادل transaction يتم بين اثنين أو ثلاثة أشخاص حائزين على تقسيم ثابت للعمل. فاللغة الإسهام البشري المميز تتطور عندما يبدأ الأفراد في التفاعل مع بعضهم بشكل تعاوني عقلاني. بدأت اللغة كما يقول ميد بتعبير انفعالي يسمى الإيماءات. فالإيماءات تشير إلى أي جزء من الفعل الاجتماعي الذي يرمز أو يشير إلى أجزاء من الفعل الاجتماعي التي تظهر فيما بعد. بتعبير ميد الإيماءات إما أن تكون بداية الفعل الاجتماعي مثل الفعل ورد الفعل الذي ينطلق بسبب تأثير تحفيز أشخاص آخرين مثل شد قبضة اليد أو صك الأسنان منتحلا موقف الدفاع أو غيره (24).

نود أن نبدأ الحديث عن جورج هربرت ميد بما قاله عنه صديقه جون ديوي Dewey "إنه العقل الفلسفي الأصيل للفلسفة الأمريكية في الأجيال الأخيرة" قد يكون هذا القول فيه بعض المبالغة لكن يظهر إن هناك شبه اتفاق بين طلاب الفلسفة على أن ميد يأتي في مقدمة شراح الفلسفة البرجماتية Pragmatism أو فلسفة الذرائع في أمريكا.

كان ميد رجلا متواضعا جداً فما نشر من أعماله الفكرية كان قليلاً نسبياً فقد أبدى جون ديويDewey مرة ملاحظة مفادها " لقد كان ميد مفكراً أصيلاً إلا أنه لم يكن لديه الإحساس بأنه كذلك " قد يكون مرد ذلك إلى أنه لم يلق خلال حياته التقدير الذي لقيه أستاذه وليم جيمس أو صديقه جون ديوي. إلا أن ما نشر من أعماله ومحاضراته بعد وفاته والاهتمام الذي كان منصبا على أعماله بين بكل وضوح أن ميد كانت له مكانة الصدارة في الفكر الفلسفي، رابطا المواضيع التي تحدث عنها جيمس James وبيرس Pierce بالسبق الفلسفي لجون ديوي Dewey، ووايتهد Whitehead، وبيرجسون Bergson وسانتايانا Santayana.

هذا التقدير كان مبنياً في الأساس على العمل الذي نشر بعد وفاته وهو: الذات والعقل والمجتمع Self-Mind and Society، وعلى أوراقه المبكرة عن علم النفس الاجتماعي التي يمكن أن يوجد معظمها الآن في أعماله المختارة. على كل حال ما سنركز عليه الاهتمام الآن هو أعمال ميد المتعلقة بمساهمته في علم النفس الاجتماعي. أما اهتماماته الفلسفية الواسعة . مثل طبيعة الوقت في كتابه فلسفة الحاضر، وشرحه للبرجماتية في كتابه فلسفة الفعل Philosophy of Act، وتاريخ حركات الفكر في القرن التاسع عشر . فسوف نتعامل معها إذا دعت الحاجة إلى ذلك بشكل سريع جداً (25) وذلك بهدف إعطاء القارئ فكرة عامة عنها فقط.

علم النفس الاجتماعي بالنسبة لميد هو المجال الذي يدرس أنشطة وسلوك الفرد من خلال العملية الاجتماعية. فسلوك الفرد يمكن أن يفهم فقط بلغة سلوك المجموع أو كل الجماعة الاجتماعية التي هو عضو فيها، نظراً لأن أفعاله الفردية تشمل بشكل كبير أفعالاً اجتماعية تمتد إلى ما وراء الفرد ذاته وتُدْخِل أعضاء آخرين من تلك الجماعة. بينما كان

علم النفس الاجتماعي السابق لميد يتعامل مع التجارب الاجتماعية من وجهة نظر الفرد النفسية، فإن ميد اقترح أن تجارب الأفراد يجب أن يتعامل معها من وجهة نظر المجتمع، أو على الأقل من وجهة نظر الاتصال Communication (تبادل الأفكار أو الآراء أو المعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات) باعتباره شيئاً أساسياً للنظام الاجتماعي.

كان ميد يجادل بأنه لا توجد ذات Self منفصلة عن المجتمع، ولا يوجد شعور بالذات ولا اتصال بدون المجتمع. وبالمقابل فإن المجتمع يجب أن يُفهم كبناء يظهر من خلال عملية متطورة باستمرار من الأفعال الاجتماعية التواصلية وخلال التعامل بين الأشخاص الموجهين بالتبادل نحو بعضهم. (26)

يرى ميد أن الإيماءة gesture هي مفتاح الآلية التي من خلالها تتأثر الأفعال. لكنه فصل بشكل قاطع بين الإيماءات غير المهمة non-significant gestures التي توجد عند المستوى الحيواني وبين الإيماءات المهمة significant gestures التي تخص معظم الاتصالات الإنسانية. فعلى المستوى الحيواني الإيماءة تتطلب مثيراً وتحدث استجابة للمثير. فإن اقتراب الكلب (أ) هارا يعتبر مثيرا للكلب (ب) ليستجيب إما بالهجوم أو الانسحاب حسب الظروف. وبالمقارنة، عند مستوى الاتصال الإنساني، الإيماءات المهمة تأتي على شكل حركات. وذلك يعتمد على استجابة الفرد نفسه للاستجابة التي يستدعيها الفرد الآخر، متقمصا دور الآخرين، النزوع إلى التصرف مثلما يتصرف الطرف الآخر. الإيماءات المهمة مبنية على الرموز اللغوية التي تحمل المحتوى الذي هو تقريباً نفسه بالنسبة لأفراد مختلفين ومن ثم يعني نفس الشيء لهم جميعاً. الحيوانات لا تضع نفسها في مكان الآخرين، وتتنبأ مثلاً: في الواقع هو سوف يتصرف بتلك الطريقة وأنا سوف أتصرف بهذه الطريقة. أي أنه لا يمكن القول إنها تفكر. الفكر الإنساني يتقدم عندما تكون هناك رموز، فالإشارات الصوتية عموما، تستحث الشخص ذاته على الاستجابة التي يستدعيها ويعتقد أنها تناسب الشخص الآخر، هذا النوع من وجهة النظر لتلك الاستجابة هي التي يستطيع عن طريقها أن يوجه تصرفاته نحو الآخرين. في التفاعل غير الرمزي الكائنات البشرية مثل الحيوانات تستجيب بشكل

مباشر كل منها للآخر. في التفاعل الرمزي عندما يستخدم البشر الإيماءات المهمة فإنهم يفسرون مواقف كل شخص ويتصرفون طبقاً للموقف، على أساس المعنى المتولد عن ذلك التفسير. كما أوضح بلومر Blumer التفاعل الرمزي يتطلب شرح Interpretation أو تحقيق ascertaining معنى أفعال أو ملاحظات الشخص الآخر أو تحديد definition أو إيصال الإشارات أو الملاحظات إلى شخص آخر بهدف تعريفه بالكيفية التي يجب أن يتصرف بها. (27)

العقل والذات والمجتمع Self-Mind and Society

برزت أسماء كثيرة مثل وليم جيمس، وتشارلز كولي، وجيمس بارك بلدوين، وجون ديوي باعتبارها أسماء مؤثرة في تطور النزعة التفاعلية. بيد أنه ومهما كانت المساهمات الفردية لكل من هؤلاء المفكرين إلا أن جورج هربرت ميد وحده هو الذي جمع المفهومات المشتركة بينهم في منظور نظري واحد متكامل. يربط بين ظهور العقل الإنساني والذات الاجتماعية وبناء المجتمع وبين عملية التفاعل الاجتماعي. ويبدو أن ميد بدأ منظوره بين المفهومات الثلاثة بافتراضين أساسيين: الفرض الأول: أجبر الضعف البيولوجي للكائنات البشرية على التفاعل سويا في سياق الجماعة ليحققوا البقاء على قيد الحياة. والفرض الثاني: هو أن يحافظ البشر على استمرار تلك الأفعال التي تسهل التفاهم والتعاون ومن ثم بقاءهم. وبناء على هذين الفرضين استطاع ميد إعادة تنظيم مفهومات العلماء الآخرين بحيث تدل على الكيفية التي منها ينبثق العقل والذات الاجتماعية والمجتمع، وكيف يدعم كل منه الآخر أثناء التفاعل الاجتماعي.

العقل (Mind)

يرى ميد أن السمة المميزة للعقل الإنساني هي قدرته على:

1- استخدام الرموز ليميز الموضوعات في البيئة.
2- التدريب على تكرار مجموعة أساليب فعل بديلة في الخيال تجاه هذه الموضوعات.

3- رفض أساليب العمل غير الملائمة. ومن ثم اختيار الفعل الواضح الصحيح.

وقد أطلق ميد على عملية اللغة أو الرموز عملية الممارسة الإبداعية في الخيال. ومن ثم يكشف طرح مفهومه للعقل باعتباره عملية لا باعتباره بناء. وعلاوة على ذلك يرى ميد أن وجود واستمرار المجتمع أو العمل الجمعي أو التعاون يعتمد على قدرة الكائنات الإنسانية على ممارسة تخيل أساليب الفعل تجاه بعضهم البعض، ومن ثم انتقاء أنماط السلوك التي تسهل التعاون والتكيف. (28)

أصل الذات The Genesis of the self

من أهم إنجازات ميد الجديرة بالاهتمام تفسيره لأصل الشعور والذات من خلال تطور القدرات التدريجي أثناء الطفولة في تقمص دور الآخرين وتصوره لأدائه من وجهة نظر الآخرين. فمن وجهة النظر هذه، الاتصال الإنساني يكون ممكناً فقط عندما "الرمز (يثير) في ذات الشخص ما يثيره في ذات الشخص الآخر" فالأطفال الصغار جداً لا يمتلكون القدرة بعد على استخدام الإيماءات المهمة، لذلك عندما يلعبون فإن سلوكهم يكون في كثير من صوره مشابها لسلوك مجموعة من الجراء عندما تلعب مع بعضها. وعندما ينمو الأطفال فإنهم بالتدريج يتعلمون كيف يتقمصون أدوار الآخرين من خلال اللعب. فالطفل يلعب دور الأم، دور المعلم، دور الشرطي، أي أنه يتقمص أدواراً مختلفة. الطفل الذي ينمو وهو يتقمص هذه الأدوار يغرس في نفسه القدرة على وضع نفسه موضع الآخرين المهمين بالنسبة له. وعندما ينضج لن يكون فقط قادرا على أن يحتل هذه الأدوار بتمثيلها ولكن سوف يتصورها بافتراضها في مخيلته. العلامة البارزة في التطور الاجتماعي عند الطفل تبدأ عندما يحاول أن يرى صورة لشخص يواجهه فإنه سوف يدير الصورة لتواجه هذا الشخص عكس ما كان يفعل قبل ذلك حيث كان يحمل الصورة في مواجهة نفسه معتقدا أن شريكه يمكن أن يرى ما يراه هو أيضاً.

إن لعب الطفل عند المستوى الأدنى من تمثيل الدور، يعتبر المرحلة الأولى في التحول التدريجي من محادثة الإيماءات البسيطة . الطفل يهرب عندما يواجه خطرا . إلى القدرة

الناضجة على استخدام الرموز المهمة في التفاعل مع أناس كثيرين. على الرغم من أنه تعلم كيف يضع نفسه، بشكل تصوري، في مكان شريكه في اللعب، إلا أن الطفل مازال لا يستطيع أن يربط في ذهنه الأدوار التي يلعبها أشخاص عديدون كل منهم مع الآخر خارج ذاته. لذلك فإنه يستطيع أن يفهم علاقة الأم أو الأب بالنسبة له لكنه لا يستطيع أن يفهم إن أمه ليست هي أم أبيه كذلك. هذا التقدم المفاجئ في التصورية يأتي مع قدرته على لعب ألعاب معقدة ومنظمة، بحيث يكون في ذهنه أدوار غيره من اللاعبين ويستطيع في نفس الوقت تخمين الاستجابة المحتملة لكل منهم للآخر. هذه الألعاب يجب أن نفرق بينها وبين الألعاب البسيطة مثل الاختفاء والبحث (حلت، أو اللبيدة، أو وابيص)، التي تتطلب فقط نموذجين من شركاء الدور، التي لا يغير فيها الممثلون لعبة كل واحد منهم ومن ثم فإنه غير مطلوب منهم توقع استجابة الشريك الآخر. ففي لعبة الاختفاء والبحث، كل واحد باستثناء الشخص المختفي، يعتبر صياداً. فالطفل لا يحتاج إلى أكثر من الشخص الذي يحاول الاصطياد والشخص المصطاد. لكن في اللعبة التي تتطلب عدداً من الأشخاص يلعبون أدواراً مختلفة كلعبة البيسبول Baseball فمثلا الطفل الذي يلعب دوراً معيناً يجب أن يكون مستعداً لأن يأخذ دور أي فرد آخر. (29)

الاختلاف الجوهري بين اللعب Play والألعاب (المباريات) Games يكمن في عدد المشاركين ووجود أو غياب الأدوار. اللعب من الممكن أن يباشر من قبل طفل واحد ولا توجد فيه أدوار. الألعاب لها أدوار لكنها تختلف في عدد اللاعبين. فهناك ألعاب لشخصين تتطلب أخذ دور بسيط فقط لكن هناك ألعاباً تمارس من قبل أشخاص عديدين تتطلب أخذ أدوار "الآخر العام" Generalized other أي أن كل لاعب عنده فكرة معينة عن سلوك كل لاعب نحو الآخر ونحوه وبمساعدة الأدوار الممنوحة التي تسير اللعبة، فإن الطفل ينمى القدرة على أخذ مكان الآخرين ويحدد استجاباتهم. هذه الأدوار هي مجموعة الاستجابات التي يستدعيها موقف معين. المرحلة الأخيرة في عملية نضج الطفل، عند ميد تظهر عندما يأخذ الفرد دور الآخر العام. أي موقف كل الجماعة.

الفرد الناضج بالكامل طبقاً لميد لا يأخذ في حسبانه مواقف الأشخاص الآخرين، "الآخرين المهمين" Significant Others ، نحوه ونحو كل منهم فحسب، بل يجب كذلك أن يأخذ اهتماماتهم نحو الأوجه المختلفة أو أوجه الأنشطة الاجتماعية المشتركة... التي هم كلهم فاعلون فيها كأعضاء في مجتمع منظم أو جماعة اجتماعية. وكما أشار ناتنسون Natanson (الأدوار والألعاب) تضع علامة التحول من أخذ الأدوار البسيطة إلى التواجد في أدوار لنظام خاص مقنن أو مُعيّر. خلال الأدوار يقدم الطفل إلى القسر الاجتماعي والتراكيب الاجتماعية الضاغطة أكثر فأكثر نحو الوصول إلى تفهم حقيقة البالغين. وهكذا فإنه يأخذ مواقف الجماعات الاجتماعية المنظمة التي ينتمي إليها نحو النشاط الاجتماعي التعاوني المنظم أو مجموعة من تلك النشاطات التي قد تفاعلت فيها تلك الجماعة في حد ذاتها، حينها يطور الذات الكاملة. من هنا تنهض الذات الناضجة "الآخر العام" عندما تكون قد أضفيت عليه صفة الذاتية بحيث تمارس الجماعة الضبط على تصرف أعضائها. (30) فالأسرة والأقران والأقارب والجيران في المجتمعات الريفية والبدوية بل وفي المجتمعات البسيطة بشكل عام هي التي تشكل وتنظم سلوك أفرادها وتعلمهم الأدوار المختلفة وكيفية لعب تلك الأدوار بالشكل الذي يرضى عنه المجتمع ويتقبله أما في المجتمعات العصرية الحديثة فإن هناك عدة مؤسسات مثل المدارس والمؤسسات العدلية والمؤسسات الدينية تشارك وتساعد الجماعات الأولية السالفة الذكر على تعليم أفرادها الأدوار المختلفة وكيفية لعبها بالشكل السليم الذي يناسب الحياة العصرية المعقدة.

حسب وجهة نظر الميديين (أنصار ميد) ظهور القدرات على أخذ الدور Role-taking، والذات التي تظهر تدريجيا من خلال توسيع مجال تفاعل البشر يجب أن لا تفهم أبدا على أنها جسم فحسب. إنه على الأصح ظهور كيان اجتماعي في عملية تطور اجتماعية لشكل بسيط من محادثات الإيماءات في عملية تحديد الهوية مع "الآخر العام" "الذات الواعية" وقد علق ديوي على مفهوم ميد هذا قائلا "لقد كان بالنسبة له دنيا من العالم الطبيعي أخذت لأول مرة إلى دنيا العلاقات الاجتماعية ثم تحللت لتشكل ذاتاً جديدة وهي الذات

التي تذهب بعد ذلك إلى الأمام لتخلق من جديد عالم من الطبيعة والمؤسسات الاجتماعية".

إن ماهية أو جوهر الذات طبقاً لميد هو قدرتها على الانعكاس. الذات الفردية تعتبر فردية فقط بسبب علاقتها مع الآخرين. من خلال قدرة الفرد على أن يضع في خياله مواقف الآخرين، فإن ذاته تصبح هدفا لانعكاساته. الذات كموضوع وهدف تكون هي جوهر كونه اجتماعياً. الفردية الغامضة لكل ذات تكون نتيجة لغموض مزيج لا يمكن أن يكون متساوياً بالنسبة لكل إثنين من البشر، من مواقف الآخرين التي تشكل الآخر العام. ولذلك فإنه على الرغم من أن النزعة الفردية كانت قد تجذرت في الحياة الاجتماعية، فإن كل شخص يقدم مساهمات فردية للعملية الاجتماعية. (31)

أنا الفرد وأنا الجماعة أو الفرد والمجتمع " The " I " and The " Me

حاول ميد أن يوضح وجهة نظره حول أساس الاجتماعي للذات واعتقاده بأن "الذات لا تتكون ببساطة في التنظيم المجرد للمواقف الاجتماعية"، بتقديمه لتفريق بين أنا الفرد وأنا الجماعة اللذين بالضرورة يعتبر كُلٍ منهما له علاقة بالخبرة الاجتماعية. لكن أنا الفرد تكون عبارة عن استجابة الكائن البشري لمواقف الآخرين أما أنا الجماعة فهي مجموعة المواقف المنظمة التي يخمنها الشخص. مواقف الآخرين هي التي تكون الذات المنظمة، ومن ثم الشخص يتفاعل نحو ذلك على أساس كونه أنا فرد. أما على أساس كونه أنا الجماعة الشخص يكون مدركا لنفسه كشيء فقط. وهو يتفاعل أو يستجيب لنفسه طبقاً لمواقف الآخرين نحوه. ويقيم ذاته نتيجة لتخمينه لكيفية تقييم الآخرين لها. الأنا الاجتماعية هي الذات كما تفهم وتدرك طبقاً لوجهات نظر الآخرين المهمين Significant othersوالمجتمع بشكل أكبر. الأنا الاجتماعية إذن تعكس القوانين والأعراف ومجموعة المبادئ أو القواعد المنظمة أو الدساتير وتوقعات المجتمع. أما أنا الفرد بالمقابل فهي "الإجابة التي يعطيها الفرد للموقف الذي يأخذه الآخرون نحوه عندما يتخذ موقفاً نحوهم... إنه يعطي إحساساً بحرية المبادرة". ما يظهر في الشعور يكون دائما هو الذات كشيء أو كأنا الجماعة، لكن أنا الجماعة لا يمكن تصورها بدون أنا الفرد كموضوع فريد وهو الذي بموجبه أنا الجماعة

يمكن أن تكون شيئاً. أنا الفرد وأنا الجماعة غير متشابهتين، فبالنسبة لأنا الفرد تمثل الشيء الذي لا يمكن أن يكون قابلاً للحساب بالكامل... فهي دائما شيء مختلف عن ما تستلزمه الحالة ذاتها.

ذكر ميد في أحد كتاباته "نحن أشخاص ولدنا نحمل جنسية معينة، نقيم في رقعة جغرافية معينة، بكذا وكذا علاقات عائلية، وكذا وكذا علاقات سياسية. وكل هذا يمثل حالة معينة تؤلف الأنا الجماعية لكن هذا يتطلب بالضرورة التفاعل المستمر للكائن البشري مع الأنا الجماعية". إن الناس يولدون في بناء اجتماعي معين لم يخلقوه، ويعيشون في نظام مؤسسي واجتماعي لم يصنعوه، وهم مجبرون على التقيد بلغات، ودساتير، وعادات، وقوانين، كل هذه تدخل في الأنا الجماعية كعناصر مكونة لها، علاوة على ذلك "أنا الفرد" دائما تتفاعل فقط مع الحالات المتشكلة مسبقا في نمط فريد، تماماً مثل عناصر الوجود الأولية في فلسفة ليبنتز (فلسفة الليبنزيين Leibnizian) في مراياه الكونية ذلك الكون الذي يرى من وجهات نظر مختلفة، وبالتالي تعكس مظاهر أو منظورات مختلفة لذلك العالم. لذلك فإن الفكر بالنسبة لميد هو "استيراد الفرد للعملية الاجتماعية"، لكنه في نفس الوقت يرى أن "الفرد... باستمرار يكّون رد فعل ضد... المجتمع". (32)

الذات بشكل عام كما تبدو من خلال الخبرة الاجتماعية مؤلفة من الانعكاسات المستقرة في الآخر العام في الذات الجماعية والعفوية غير المحسوبة في أنا الفرد. وهذا هو الذي جعل الذات ككل، هي ذات مفتوحة an open self. إذا لم يكن لديها هذان الوجهان فسوف لن تكون هناك مسؤولية واعية، ولكن يكون هناك أيشيء جديد في الخبرة. لقد قيم ميد الاستقلال الشخصي، لكنه رأه ينبثق من استرجاع المعلومات Feedback بدلاً من محاولات العزل عن الآخرين. إن خصومة الفاعلين من البشر Human Actors محتومة في العالم الاجتماعي Social worldلكن الذات الناضجة تحاول تغيير هذا العالم حتى وهي تستجيب له.

لقد كان ميد غامضا إلى حد ما في تعريفاته للأفعال الاجتماعية. ففي بعض الأحيان

يجعل هذه الأفعال تظهر وكأنها متورطة (مقحمة) بالضرورة في عملية تعاونية مع الفاعلين. وفي مكان آخر كان يتحدث عن الأفعال الاجتماعية عندما يشير إلى التفاعل التنافسي أو الصراعي. وفي مكان ثالث قال بالتحديد "أنا أتمنى... أن نقصر الفعل الاجتماعي على طائفة الأفعال التي تتطلب تعاوناً أكثر من شخص واحد" أي تعاون مجموعة من الأشخاص، لكن في أماكن أخرى كان يتحدث مثلاً عن القتال بين الحيوانات وكأنه أفعال اجتماعية. يظهر إن ما كان في ذهنه لم يكن هو أن الفعل الاجتماعي مقتصر على التعاون فقط ولكن الفعل الاجتماعي يكون دائما مبنياً على "شيء من الاهتمام المشترك لكل الأفراد المتورطين (المقحمين) فيه". في هذه المعادلة الصراع والتنافس وكذلك السلوك التعاوني، يمكن أن ترى كلها بالتساوي كفعل اجتماعي طالما كانت متورطة (مقحمة)جميعاً في توجه متبادل من الفاعلين كل منهم نحو الآخر. فقط بهذه الطريقة كانت تفسيرات ميد لطبيعة الأفعال الاجتماعية ممكناً أن توضح بإصراره المستمر على الوظائف الحاسمة للصراع الاجتماعي. بالنسبة لميد كما هي بالنسبة لزيمل، الصراع والتعاون يكونان ملازمين كل منهما للآخر ولا يمكن أن يوجد مجتمع بدون الاثنين معاً.

المجتمع الإنساني المتطور والمنظم جداً هو وحده الذي يكون فيه الأعضاء الأفراد على علاقة متبادلة في تعددية مختلفة التعقيد والطرق المعقدة التي بواسطتها يتقاسمون جميعاً عدداً من الاهتمامات المشتركة... ومن جهة أخرى فإنه سيكون فوق ذلك كله، قليلا أو كثيراً صراع ذو صلة باهتمامات أخرى كثيرة يملكونها فقط بشكل فردي، أو بطريقة أخرى يتقاسمونها كل منهم مع الآخر في جماعات صغيرة محدودة. (33)

عند الحديث عن أهداف ميد العلمية نجد أن هدف ميد الأساسي هو دراسة نشاط وسلوك الفرد الكامن في العملية الاجتماعية. وعليه فقد كان تركيزه في محاولته لفهم مثل تلك الظاهرة كوظيفة للمحيط الاجتماعي، على السلوك الاجتماعي المجهري (بالمقارنة مع المعنى). طبقاً لذلك فإن ميد ركز على الأهمية السوسيولوجية للتفاعل الاجتماعي، الفكر، اللغة، الإحساس بالذات. لهذا فإنه من الممكن أن ينظر له عند هذا الحد على أنه أحد

علماء النفس الاجتماعي المبكرين. أما أهم الافتراضات التي توصل إليها ميد فيمكن إيجازها فيما يلي:

1- بطريقة مشابهة لفيبر، رأى ميد الفرد على أساس أنه عاقل وأنه نتاج للعلاقات الاجتماعية.

2- لقد فهم ميد الحقيقة على أنها فردية واجتماعية. مثل هذا المدخل المتعدد المستويات يمكن أن يعتبر في الأهمية مقابلاً للنماذج السابقة التي كانت في الأساس عيانية وعامة.

3- نظر ميد إلى المجتمع على أنه ديناميكي ومتطور وبالمقابل يقدم نماذج جديدة متغيرة من التنشئة الاجتماعيةSocialization للأفراد. مثل هذا المدخل الديناميكي المعياري للمجتمع يوجد له توازٍ مع مدخل فيبر في تركيزه على المعنى والعقلانية.

4- لقد وصف ميد الذات الاجتماعية بأنها تتطور من خلال سلسلة محددة من التفاعل الاجتماعي الذي يتقدم الاتصال غير الشفوي واللغة، ومن خلال اللغة، يتم تعلم المواقف والمشاعر، وبذلك يخلق الفكر والذات، والذات الاجتماعية تتطور من خلال عدد من المراحل تبدأ من التنشئة الاجتماعية Socialization الأولى إلى التنشئة الاجتماعية الثانوية مستجيبة أولاً إلى الآخر المهم (الذات الفردية والشخصية) وأخيراً إلى الآخر العام (ذات الجماعة). وهناك عدد من الخبرات التي تعتبر حاسمة لأحداث ذلك التطور مثل لعب الدور الأولي الذي يعتبر مناسبا لعملية التنشئة الاجتماعية الأولى، وألعاب الجماعة التي تعتبر حاسمة لافتراض الآخر العام.

5- النتاج النهائي لهذه العمليات هو تشكيل الذات الاجتماعية، التي تتكون من عنصرين أساسيين هما: أنا الفرد التي هي استجابة الفرد لمواقف الآخرين وأنا الجماعة التي هي المواقف الاجتماعية المتعلمة والمخمنة من خلال التنشئة الاجتماعية. عند هذا الحد وضع ميد الخطوط العريضة لعملية التطور التي من خلالها تتشكل شخصية الفرد الاجتماعية.

6- أخيراً إنه من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن ميد لم يأخذ مدخلا محددا بالنسبة للذات الاجتماعية لكن بدلاً من ذلك فإنه افترض أنه بالرغم من التنشئة الاجتماعية، فإن عمليات الذات مظهر أخلاقي وعفوي وهي التي تساهم في التغير الاجتماعي وخلق النماذج الجديدة من التنشئة الاجتماعية. لذلك تساهم الذاتية الإنسانية في الديناميكية والتغير الاجتماعي المستمر.

يمكن القول إن ميد نظر إلى المجتمع على أنه يمثل نسقاً ديناميكياً من التنشئة الاجتماعية التي من داخلها تتشكل الذات الاجتماعية من خلال التفاعل، اللغة، والتنشئة الاجتماعية تتطور من خلال عدد من المراحل المتميزة. في هذه الحالة يمكن القول إن نموذجه العلمي كان عاما ومجهريا في نفس الوقت، ومحددا عن طريق منظور تطوري. وهكذا فإن الحقيقة الاجتماعية تخلق باستمرار، كاستجابة للإبداع الفردي والعفوية، في تطور الأشكال الجديدة من التنشئة الاجتماعية والذوات الاجتماعية.

كما هو الحال بالنسبة لفيبر، فقد كان منهج ميد تفسيرياً واستبطانياً، ذلك أنه يؤيد دراسة السلوك كأحسن مؤشر للمجتمع محاولا أن يدخل داخل الفرد، وعليه فإن فهم العمليات الاجتماعية العامة يكون هو النتيجة. مثل هذا المنهج الاستقرائي، التفسيري يعتبر نموذجياً بالنسبة للسلوكيين الاجتماعيين عموما.

إن نموذج ميد العلمي أو نمط المجتمع عنده فهو واضح في وصفه للعملية التي وفقا لها تتطور الذات الاجتماعية. وهي التي يمكن إيجازها من خلال العبارات التي سبق مناقشتها كما يلي:

1- التفاعل الاجتماعي يتقدم على العقل، واللغة، والإحساس بالذات.

2- من خلال اللغة يتعلم الفرد المواقف والأحاسيس.

3- عندما يستجيب الفرد للآخر المهم ثم للآخر العام من خلال الاتصال الشفوي وغير الشفوي، فإن الذات الاجتماعية تتشكل، مكونة من أنا الفرد وأنا الجماعة.

4- هذه الذات الاجتماعية تملك مظاهر خلاقة وعفوية تسهم في خلق أنماط جديدة من التنشئة الاجتماعية، وبالتالي تغير اجتماعي عام. هذا النموذج يمكن تلخيصه في الشكل التالي الذي يبين وجهة نظر ميد الاستقرائية المجهرية للمجتمع. (34)

الخلاصة أنه كأحد العلماء السلوكيين نظر ميد إلى المجتمع كنسق ديناميكي متطور من التنشئة الاجتماعية يمثل عفوية وإبداعية الأفراد الأساسية. من داخل هذا النسق فإن الذات الاجتماعية (الشخصية الاجتماعية) تتطور خلال التفاعل والاتصال مُساهمة في التغير الاجتماعي المتقدم باستمرار من خلال تقديم عناصر جديدة إلى عملية التنشئة الاجتماعية. مثل هذا النموذج يكون مهماً في استقرائيته وتطوريته وعناصره المجهرية والعيانية فهو إذن يمثل محاولة لفحص المجتمع بلغة الخصائص البشرية.

تثير نظرية ميد الاجتماعية عدداً من القضايا المميزة وهي كما يلي:

1- التوحيد في التحليل The analytical synthesisبين الفرد والمجتمع غير واضح فمثلا الخصائص العامة لكليهما قد حددت بشكل عام فقط وترك القارئ ليخمن ما هي خصائص المجتمع، بعيدا عن ماهية مظاهره المعيارية.

2 - خصائص تطور المجتمع كانت عامة جداً وغير واضحة.

3 - المظاهر الإبداعية والعفوية للذات الاجتماعية حددت باستخدام تعابير عامة فقط.

4- المشاكل المنهجية للمدخل التفسيري /الاستبطاني مستمرة لتذكر أي باحث أول أن يجيز مصداقيتها. (35)

وختاماً يمكن أن نقول إن أفكار ميد تطورت وبدأت تظهر إلى الوجود من بداية القرن العشرين وبالتحديد منذ سنة 1900 وما بعدها في جامعة شيكاغو وذلك من خلال المادة الدراسية ذات التأثير الكبير والمعروفة جداً للمهتمين بفكره الرصين وهي المادة التي كان يقوم بتدريسها وهي علم النفس الاجتماعي حيث كان الطلاب المهتمون بعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة يتقاطرون على محاضراته سنة بعد أخرى وخلال عدد قليل من

السنوات ومن خلال كتبه واحدا بعد الآخر ولدت سمعة كون أفكاره كانت مؤثرة على العدد الهائل من طلابه وعند الكثيرين ممن كانوا يحضرون محاضراته وقد كانت وجهات نظر إنسانية إضافة إلى كونها علمية في الوقت ذاته وقد كونت مادة علم النفس الاجتماعي الأساس الذي بني عليه فكر ميد وخلقت منه في الوقت ذاته عالماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وهذه الكتب الثلاث هي التي تؤكد على الحقول التي كتب فيها ميد وهي: علم النفس الاجتماعي، والفلسفة الاجتماعية، وتاريخ الفكر إضافة إلى أنه نشر العديد من الأوراق العلمية التي تعالج الكثير من المواضيع في حقل اهتمامه العلمي.

ثالثاً: جورج زيمل George Simmel 1858.1918م

ولد جورج زيمل في الأول من مارس من عام 1858 في قلب مدينة برلين وكان منزله عند ملتقى شارع لايبزقر Leipzigerstrasse مع شارع فردريك Friedrichstrasse. وقد يكون هذا المكان مناسبا من الناحية الرمزية لشخص عاش معظم حياته عند ملتقى العديد من الحركات الثقافية والسياسية. وقد كان زيمل رجلاً حضرياً حديثاً دون أن تكون له جذور في الثقافة الريفية التقليدية. فعند قراءة تونيز لكتاب زيمل الأول كتب لأحد أصدقائه "إن هذا الكتاب لاذع لكن له طعم المدينة".

لقد كان زيمل أصغر إخوته السبعة وكان والده تاجرا يهوديا ميسور الحال اعتنق المسيحية، ومات وابنه مازال صغير السن. وقد عين أحد أصدقاء العائلة وصياً على الأطفال ويظهر أن زيمل كانت علاقته بأمه المستبدة عن بعد، ويبدو كذلك أنه لم يعرف البيئة الأسرية المستقرة وكان لديه إحساس بالهامشية وعدم الاطمئنان، وهو الإحساس الذي أحاط به منذ طفولته.

بعد تخرجه من المدرسة الثانوية في عام 1876، درس زيمل التاريخ والفلسفة في جامعة برلين على يد أهم الشخصيات الأكاديمية في عصره من أمثال المؤرخين مومسن Mommsen، وتريتشكيTreitschke، وسيبل Sybel، ودرويسن Droysen، والفلاسفة من أمثال هارمس

Harms، وزيلر Zeller وغيرهم من المؤرخين، والأنثروبولوجيين، وعلماء النفس. في الوقت الذي تحصل فيه على الدكتوراه في الفلسفة في عام 1881 التي كانت أطروحته لها بعنوان: طبيعة المادة طبقاً لأحادية المادة عند كانط The nature of Matter According to Kant's Physical Monadology، كان زيمل قد تمكن من عدة حقول معرفية تبدأ من التاريخ وتنتهي بعلم النفس والعلوم الاجتماعية (36). لقد كان جورج زيمل فيلسوفاً بالدرجة الأولى، ولم تشكل اهتماماته بعلم الاجتماع إلا جزءاً من إجمالي الأعمال التي قدمها خلال حياته، فقد كان عنده اهتمام كبير بالتاريخ، والآداب، والفنون الرفيعة، وقد لا نستغرب إذا علمنا إن أعماله قد وصفت بأنها "فلسفة الثقافة المعاصرة" (37).

إن أحسن طريقة لفهم مدخل زيمل إلى علم الاجتماع هي اعتباره محاولة وعي ذاتي Self-conscious لرفض النظريات العضوية لكل من كونت وسبنسر، وكذلك رفض الوصف التاريخي للأحداث الفريدة التي كانت تحظى باهتمام كبير في بلده ألمانيا، فقد طور بدلاً من ذلك تصوراً مفاده أن المجتمع يتكون من نسيج من التفاعلات المنمطة، وأن مهمة علم الاجتماع هي دراسة هذه الأشكال من التفاعلات كما تحدث ويعود حدوثها في المستقبل خلال فترات تاريخية مختلفة وخلال ثقافات مختلفة. (38) وقد ميز من خلال كتاباته عن التفاعل الرمزي بين نوعين من التفاعل الاجتماعي وهما: التفاعل الذي يتم بين الأجناس البشرية والتفاعل الذي يتم بين الأجناس غير البشرية فقد وجد أن التفاعل الاجتماعي بين الأفراد يخضع "إلى المكانات والأدوار والمواقف الاجتماعية والالتزامات المتبادلة المتعلقة بأدوار الأفراد الاجتماعية وعدم خضوع تفاعل الأجناس غير البشرية لهذه المؤثرات الاجتماعية. ويرى زيمل أيضاً أن أساس العلاقة الاجتماعية يبدأ بين فردين فقط، حيث يساهم هذان الفردان في إنشاء علاقة اجتماعية من خلال تفاعلهما الذي يتمركز حول مواضيع تشير إلى تفاعلهما أو إلى خصوصيات سرية متعلقة بأحدهما أو كليهما مما يجعل رباطهما متيناً. أما إذا دخل عضو ثالثاً لها فإنه سوف يلعب دور المحكم أو المستشار أو الوسيط، أو قد يؤدي إلى نشوء الاختلافات والصراعات بين العضوين

الآخرين. فالعائلة المكونة من زوج وزوجة وطفل تكون ذات ترابط أسري متين بسبب وجود الطفل الذي يزيد من ارتباط الأب مع الأم ويزيد من تقارب وجهات نظريهما ويرفع من معدل انسجامهما "(39) أي أن وجود الشخص الثالث يقوي العلاقة بين الجماعة المكونة من عضوين ويخلق أنماطاً جديدة من التفاعل بينهما ويقوي الروابط الموجودة بسنهما ويعمل على تلطيف جو الخصومات التي قد تنشأ بينهما ويكون بمثابة الحكم أو الوسيط بين العضوين الآخرين إذا ما كان هذا العضو محايدا أو كان له ارتباط متكافئ ومستوي مع الطرفين، أما إذا كان العضو الثالث غير محايد أو تربطه مصلحة بأحد الطرفين المتصارعين فإن ذلك قد يؤدي إلى تمزق الجماعة وقد يسحق الطرف الثالث خلال هذا الصراع (40). ومن الواضح أن هناك تشابهاً بين هذه الأفكار وبين ما طرحه ميد عندما قام بدراسة الذات والأنا والنفس والعقل، وهي الدراسة التي يعتبرها الكثير من دارسي علم النفس الاجتماعي الأساس الذي انطلقت منه دراسات علم النفس الاجتماعي التي تركز على دراسة التفاعل الاجتماعي.

ويرى زيمل "أن الفرد يدخل المجتمع ليتمتع بكل فرديته وانتمائه للمجتمع، ولكنه لا يستطيع تقدير فرديته إلا من حيث كونه عضوا في جماعة، أو في فريق، وذلك يعني أنه يمكن أن نعرف المجتمع بأنه (تفاعل بين الفرد والمجموع) ولكن لعلاقة الفرد بالمجموع أشكالا مختلفة. وبعبارة أخرى فإن الذي يجعل قيام المجتمع ممكناً هو أن لكل فرد وظيفة أو دور يسهم به في ذلك المجتمع". (41)

لكن أدوار ومصالح الأفراد قد تتباين ومن هذا التباين في المصالح والأدوار ينشأ الصراع، ويرى زيمل أن الصراع حالة موروثة في كيان الفرد البشري يلجأ إليها الإنسان من أجل تطوير هذا الكيان، وحيث إن وجود الفرد في جماعة بشرية قد تكون محدودة العدد أو قد تكبر بحيث يحتم عليه المجتمع أن يمتثل لقيم هذه الجماعة أو المجتمع وتقاليدها وثقافتها بل إن الجماعة أو المجتمع قد يلزمه بذلك إلزاما وإذا ما حاول التمرد على القواعد التي وضعتها الجماعة أو المجتمع له ولغيره من الأعضاء حينها قد يحدث الصراع بين الدور

أو الأدوار التي حددتها له الجماعة أو المجتمع، فالفرد وحده لا يمكنه أن يدخل في عملية الصراع على الرغم من وجود الصراع في كيانه البيولوجي، لأن التعبير عن الصراع يحدث بشكل تبادلي وتفاعلي، والفرد وحده لا يستطيع أن يتفاعل ويتبادل الصراع أو الود بدون وجود الطرف الثاني وهو الفرد أو الجماعة أو المجتمع. (42)

كان زيمل مشدوداً إلى البيئة الفكرية والعلمية لبرلين في داخل الجامعة وخارجها، ولم يتبع أسلوب أعضاء هيئة التدريس الجامعي في ألمانيا الذين كانوا يتنقلون من جامعة إلى أخرى خلال دراستهم وبعدها، لكنه بدلاً من ذلك قرر البقاء في جامعة برلين، حيث أصبح في عام 1885 أستاذا غير معين يعتمد على ما يدفعه الطلاب من رسوم، وظل زيمل لمدة خمس عشرة سنة أستاذاً غير معين، إلى أن ترك ذلك المنصب في عام 1900. كانت المحاضرات التي يلقيها تتنوع ما بين المنطق وتاريخ الفلسفة والأخلاق وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع. فقد ألقى محاضرات عن كل من: كانط وداروين بين الكثير من العلماء المعروفين في عصره. وكان خلال السنة الأكاديمية الواحدة يبحث الاتجاهات الجديدة في علم الاجتماع والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة). لهذا أصبح زيمل محاضراً له شعبية كبيرة وأصبحت محاضراته من الأحداث الفكرية التي تجذب إليها جمهوراً كبيراً من المستمعين من داخل الجامعة وخارجها فكان يأتي إلى محاضراته إلى جانب الطلاب الصفوة المثقفة في برلين. لكن على الرغم من كل ذلك يمكن أن نقول إنه كان سيئ الحظ في مستقبله الأكاديمي إلى حد ما، بل يمكن أن نقول إن حياته الأكاديمية انقلبت إلى مأساة.

وفي سنة 1901 عندما أصبح عمره 43 سنة قررت السلطات الأكاديمية أخيراً تعيينه أستاذاً فوق العادة Extraordinary Professor وهو منصب شرفي لم يمكنه من أن تكون له مكانة في الشؤون الأكاديمية للجامعة أو حتى يزيل عنه وصمة العار التي ظلت تلاحقه باعتباره شخصاً من خارج الجامعة. أصبح زيمل في هذا الوقت رجل عظيم الشأن حيث عمت شهرته معظم أنحاء أوروبا ووصلت إلى الولايات المتحدة. كان زيمل قد ألف ستة

كتب وأكثر من سبعين مقالة ترجم معظمها إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والبولندية والروسية. ورغم ذلك فإنه كان كلما يحاول الحصول على ترقية أكاديمية كان طلبه يرفض. وكان كلما يخلو منصب أكاديمي في إحدى الجامعات الألمانية يتقدم إليه بطلب مدعوما بتوصيات من كبار الأساتذة من أمثال ماكس فيبر وغيره إلا أن طلباته كانت لا تقابل بالنجاح. وفي سنة 1914 وبعد أن عمل أكثر من أربع عشرة سنة كأستاذ فوق العادة استدعي كأستاذ كرسي في جامعة ستراسبرج Strasburg وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته في عام 1918.

إن التعصب ضد السامية الذي كان يسيطر على الحياة الأكاديمية في ألمانيا كان له دور فعال فيما تعرض له زيمل من معاملة قاسية من قبل المسيطرين على تسيير الأمور الأكاديمية، إلا أنه لم يكن السبب الوحيد. إن عمق معرفة واهتمامات زيمل ورفضه الالتزام بالحدود الموضوعة بين التخصصات العلمية شوش على الروح العلمية للمجتمع الأكاديمي في ذلك الوقت. كما أن أصالته وفكره اللامع وقدرته على الحركة من حقل علمي إلى آخر دون بذل جهد يذكر ضايقت الكثيرين من زملائه ومرؤوسيه الذين كانوا يعتقدون أن التخصص في حقل واحد هو الشيء المناسب للحقل الأكاديمي. فكانوا يتساءلون كيف يستطيع الشخص أن يتعامل مع رجل يستطيع في أحد الفصول أن يعطي درساً عن كانط بينما في الفصل الآخر ينشر مقالاً عن علم اجتماع العطور Sociology of Smell أو علم اجتماع الغذاء Sociology of Meal أو عن علم اجتماع الدلال والموضة Sociology of Coquetry and Fashions. (43)

على الرغم من الصد الذي كان يلقاه زيمل من زملائه، فإنه من الخطأ الاعتقاد أن ينظر له على أنه كان متألماً ينظر إلى نفسه على أنه من خارج المجموعة الأكاديمية. فقد لعب دوراً نشطاً جداً في الحياة الفكرية والثقافية للعاصمة الألمانية حيث كان يتردد على الصالونات العلمية والعديد من الحلقات الثقافية. وكان يحضر العديد من حلقات نقاش في الفلسفية وعلم الاجتماع وكان من المؤسسين لجمعية علم الاجتماع الألمانية مع كل من

فيبر وتونيز. وقد كان له العديد من الأصدقاء في علم الأدب والفن. فقد كان له أصدقاء من الشعراء والصحفيين وكانت مناقشاته معهم تتميز بالأخذ والعطاء فقد وقف زيمل في المكان الذي يلتقي فيه العديد من الحلقات الثقافية مقدما نفسه لجمهور عريض من المستمعين متخلصا من قيود المنصب الرسمي.

عاش زيمل حياة هادئة متخلصا من القيود المادية حيث ترك له من كان وصياً على رعايته بعد وفاة والده مصدر رزق محترم جعله يحيا مع زوجته غرترد Gertrud التي تزوجها في عام 1890 حياة برجوازية لم يستطع الوصول إليها الكثير من زملائه الأساتذة في ألمانيا ما قبل الحرب. كانت زوجة زيمل فيلسوفة بطريقتها الخاصة حيث نشرت بعض المواضيع المتعلقة بفلسفة الدين والحياة الجنسية وجعلت من بيته ملتقى لمحبي الثقافة والمخالطة التي تناولها زيمل في كتاباته. على الرغم من الصد الذي واجهه زيمل في حياته الأكاديمية إلا أنه كان له أصدقاء كثيرون من الوسط الأكاديمي كان في مقدمتهم ماكس فيبر.

من خلال الروح الشكلية الصورية أو بتأثير أفكار كانط التي تهتم بالناحية الشكلية الصورية، كان زيمل مهتما بأنماط وأشكال وصور التفاعل الاجتماعي والترابط في المجتمع، وهو ما يعني أنه كان مهتما بتجريد الأشكال الأساسية الكبرى للسلوك الاجتماعي في المجتمع، مثل هذا المدخل كان مدخلا جزئيا يهتم بدراسة الجماعات الصغيرة، لكن هذا المنهج يتضمن من ناحية أخرى الرفض للأشكال الأولى من وجهات النظر العضوية في تفسير الحقيقة الاجتماعية. وهكذا فإنه بالنسبة لزيمل المجتمع لا يوجد كنسق منفصل، لكنه بدلاً من ذلك يعتبر متأصلاً وكامناً في شكل العلاقات الاجتماعية المتبادلة، وهي لا تمثل لا أكثر ولا أقل من الأفراد محور الاهتمام المتفاعلين مع بعضهم، إن هذا النوع من أشكال العلاقات الاجتماعية هي الموضوع الذي كان زيمل يسعى إلى دراسته دائما، ويؤكد زيمل على أنه "من العسير فهم المجتمع على أنه وحدة سوسيولوجية مستقلة عن عقول الأفراد، فهذه نظرة وهمية تصورية تجعل من التصورات ظواهر واقعية، كما أنه من

الخطأ كذلك أن نعتقد أن للأفراد وحدهم وجوداً واقعياً، فالأفراد في ذاتهم ليسوا ذرات اجتماعية، أي المادة التي يتكون منها المجتمع. وليس حقيقياً أيضاً أن نربط الواقع بأبسط الوحدات التي يتكون منها الكل. فنحن لا نكشف مواقع فقط في المادة، بل نعثر عليه في نطاق ما يكسب المادة صورتها أو شكلها. فالمجتمع اذن يتعدى نطاق الأفراد الذين يكونونه. (44) يمكن إيجاز أهم الافتراضات التي توصل إليها زيمل في النقاط التالية:

1- كما تحدثنا سابقا فإن زيمل لم ينظر إلى المجتمع باعتباره كائناً عضوياً ولكن "كصفة أو كنعت يدل على مجموعة من الأشخاص المتفاعلين" طبقاً لذلك فإن موضوع علم الاجتماع أصبح يعني عنده دراسة أنماط التفاعل وأشكال الروابط، حيث إنه افترض أن تلك الظواهر لها وجود حقيقي أو واقعي، وأن أنماط التفاعل وأشكال الروابط توجد كعملية Process.

2- المجتمع موجود باعتباره وظيفة لعملية التنشئة الاجتماعية Socialization بدلاً من كونه حقيقة مستقلة بذاتها.

3- طبقاً لذلك فإنه اعتبر أن الفرد من نتاج المجتمع أو محصلة المجتمع، ولكنه افترض مثلما فعل ميد أن الفرد وحدة فريدة أو مميزة. عليه فإن كلاً من الفرد والمجتمع أصبحا الموضوع المهم بالنسبة لعلم الاجتماع.

4- رأى زيمل أن بعض الخصائص المحدودة للجماعة هي التي تحدد بنية التفاعل والروابط، والتي منها على وجه الخصوص حجم الجماعة، وطبقا لذلك فإنه افترض أن حجم الجماعة يحدد شكل الترابط، أي أن الحجم يحدد ويعرف ويعين الشكل، عليه فإن الفرد الوحيد أو البدوي المترحل يمثل نوعاً عالياً من الحرية أو يمثل الحرية في أسمى معانيها، بينما هناك اعتمادية بالنسبة للاثنين إذا وجدا مع بعضهما، وتظهر السلطة في الجماعة المكونة من ثلاثة أشخاص، وبينما تحكم الأعراف الجماعات الصغيرة فإن القوانين هي التي تحكم الجماعات الكبيرة التي "تتكون من خمسة أشخاص أو أكثر". ومن أجل فهم نمط كل الجماعة فإن إهتماماً خاصاً يجب أن يوجه إلى علاقة القائد بالأتباع.

5- إن العمل في أي جماعة، طبقاً لوجهة نظر زيمل، يعبر عن الغريزة الإنسانية " لإنكار الآخرين"Negation of Others أي غريزة التنافس. إن هذا البناء أو التركيب العقلي يعبر عن العنصر الأساسي في نظرية زيمل.

6- مثل هذه الغريزة تؤدي إلى صراع دائم مستمر، وهذا الصراع هو "جوهر الحياة الاجتماعية" والتطور الاجتماعي الدائم، وترتب على ذلك أن العلاقة بين الفرد والمجتمع تتحول إلى علاقة جدلية "ديالكتيكية"، فبينما تؤدي الصناعة إلى مزيد من الحرية الفردية فإن الحرية الفردية تؤدي في نفس الوقت إلى الاغتراب. وتتضمن وجهة نظر زيمل عن آثار التقدم عن مظهر واحد من مظاهر الازدواجية، أي أنه رأى أن الصراع يؤدي إلى التطور الاجتماعي، لكنه في الوقت نفسه يؤدي إلى زيادة المشاكل التي تحمل الطابع الفردي.

ويمكن أن نقول بإيجاز إن زيمل رأى أن المجتمع يتكون من أفراد يكونون روابط، ويتفاعلون سويا بواسطة أو تحت تأثير غريزة إنكار الغير، والصراع، وحجم الجماعة، والتطور الاجتماعي عادة ما يكون بتأثير التصنيع، وتزداد الحرية الفردية وتتزامن مع الاغتراب. مثل هذا النموذج التصوري Paradigm ربما يشبه نموذج ميد وان اختلف كل منهما في طبيعة أساس الغرائز التي يقوم عليها المجتمع.

كان زيمل مهتما بتطوير علم الاجتماع الصوري الذي يهتم بدراسة أشكال التفاعل المتكررة بشكل دائم والمحدودة. وبتعبير آخر يمكن أن نقول إنه حسب وجهة نظر زيمل كان مهتما بأنماط محدودة للتفاعل تعبر عن الأسس التي تمثل القاعدة التي تقوم عليها أنواع أو أنماط محددة من الأبنية الاجتماعية. وهكذا فإنه قدم واستخدم مدخلا تجريديا، وتحليليا، وتاريخيا، ومقارنا لدراسة هذه الظواهر، وذلك في محاولة منه لتطبيق أسس نظريته تطبيقا تاريخيا. وقد شجع زيمل كذلك على دراسة النماذج أو الأنماط الاجتماعية أي شجع على دراسة " الخصائص النمطية للبناء الاجتماعي". وهكذا فإنه بدأ في تحليل أنماط مثل الغريب، والوسيط، والشخص الفقير والشخص المتوسط الحال

والمرتد والمنحرف والكهل بتفصيل دقيق أو تحليلا تفصيليا، وتعبر هذه الأنماط عن الخصائص النموذجية لمجموعة خاصة من الروابط.

عند الحديث عن نمط المجتمع عند زيمل نجده قد طور مجموعة من الخصائص النموذجية لجماعات متباينة ذات أحجام مختلفة توصل عن طريقها إلى صياغة نمط معين للمجتمع. محور الاهتمام الرئيسي في هذا النمط هو العلاقة بين الشكل (حجم الجماعة) ونمط العلاقة أو نمط الارتباط، وبتعبير زيمل مستوى الحرية ونمط السلطة، ويبدأ النموذج بالبدوي المترحل الذي يمثل أعلى مستويات الحرية، وبالثنائية أو اجتماع شخصين تبدأ الاعتمادية العالية أو المتبادلة، والامتصاص أي امتصاص كل منهما للآخر، أما المجموعة المكونة من ثلاثة أشخاص فإنها تتطلب بناء السلطة، والجماعات الصغيرة المكونة من أربعة أشخاص ينتج عنها أو تؤدي إلى ظهور الأعراف، بينما الجماعات الكبيرة المكونة من خمسة أشخاص تستلزم تطوير الأعراف إلى قوانين رسمية. ما يمكن استخلاصه من هذا النموذج هو الافتراض القائل: إنه كلما أصبح المجتمع كبيراً، وصناعيا بشكل أكثر، ازدادت الكفاءة الإنتاجية، ازدادت مشكلة حرية الفرد واغترابه والتي تتزايد بشكل كبير مسببة معضلة جديدة. (45) كان زيمل إنساناً فريداً في تركيبه النفسي وكانت محاولته في علم الاجتماع محاولة وعي ذاتي ترفض النظريات العضوية لكل من كونت وسبنسر وكذلك كان رافضاً للوصف التاريخي للأحداث الفريدة التي كانت محط أنظار الكثير من العلماء في ألمانيا وطورا بدلاً من ذلك سبلاً أخرى وهو في النهاية يرى أن أساس العلاقة الاجتماعية يبدأ بين فردين فقط إلى غير ذلك من الأفكار والمبادئ التي طرحناها في هذا المؤلف.

رابعاً: وليام جرهام سمنر William Graham Sumner 1840.1910م

ولد وليام سمنر في مدينة باترسون بولاية نيوجرسي Paterson, New Jersey الأمريكية يوم الجمعة 30 أكتوبر 1840، وكان والده ميكانيكياً هاجر إلى الولايات المتحدة من مدينة لنكشاير Lancashire الإنجليزية. تعلم الفرنسية والعبرية وعلم اللاهوت في جامعة ييل

Yaleوتخرج في عام 1863 في نفس الجامعة، وفي السنة التالية تحصل على منحة للدراسة في الخارج لمدة عام من شقيق أحد أصدقائه إلا أنه قبل إن يغادر البلاد طلب للتجنيد في جيش الاتحاد إلا أنه تمكن بمساعدة شقيق صديقه مرة أخرى من شراء استثناء من الجيش مكنه من الخروج من البلاد والدراسة في جنيف Geneva، وجوتنجنGottingen، وأكسفورد Oxford.

وفي سنة 1867 عين في منصب كنسي في الكنيسة البروتستانتية، وبعد خمس سنوات من تعيينه في المنصب الكنسي أي في عام 1872 عين أستاذا للعلوم السياسية والاجتماعية في جامعة ييل وبعد ثلاث سنوات درَّس أول موضوع Course في علم الاجتماع يقدم في الولايات المتحدة. وظل في هذا المنصب في جامعة ييل حتى تقاعده في عام 1909. وكتب مبررا الأسباب التي جعلته يترك العمل الكنسي ويركز على المجال الذي يعتقد أنه سوف يفيد فيه أكثر قائلاً: إن الحقل الذي أشعر بوجودي فيه هو العمل الجامعي الذي سوف يوفر لي الفرصة للدخول في العمل الذي أجد نفسي فيه وفي نفس الوقت أقوم بالتدريس والوعظ الديني ونناضل من أجل الحق وإظهار الحقيقة. وقد ترك سمنر المنصب الكهنوتي لأنه اقتنع بأنه يستطيع أن يوظف قدراته بشكل أفضل في مكان آخر.

لكن على الرغم من تدريبه الكنسي المبكر وعمله في مجال الوعظ الديني في بداية حياته، إلا أن سمنر كان قد تأثر بأفكار كل من سبنسر وداروين كما كان له اهتمام كبير بالأنثروبولوجيا وعلم الآثار. وقد أقحم نفسه ودخل بكل ثقله في القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تشغل الناس في الوقت الذي عاش فيه، كما أخذ على عاتقه مبدأ الالتزام بتطوير بيئته الاجتماعية.

لم يبنِ سمنر فكره السوسيولوجي على أساس أن الجنس البشري اجتماعي بالطبيعة " حيث قال نحن لا نعتقد "أن الإنسان مزود بأي ميزة اجتماعية فطرية مغروسة في خلاياها الجينية لكن النزعة للاجتماع والمصاحبة أو العشرة مكتسبة بدلاً من كونها موروثة، وأن اجتماعية الإنسان أو نزوعه نحو المصادقة والمزاملة مع بني جنسه هي نتاج اجتماعي بدلاً

من كونها نتيجة للتطور العضوي للإنسان، المعاشرة والمخالطة الاجتماعية بالنسبة إليه هي إحدى المصطلحات التي تشير إلى الطبيعة لأن منشاءها غير معروف. وعلى الرغم من أن الإنسان ليس اجتماعياً بطبعه فإن المنظمات الاجتماعية طبيعية فقد كونت في الأساس بشكل عفوي وآلي حيث يقول: المجتمع صناعي تكوينه بناء صارم عن عمد مثل الجيوش أو فرق الأوركسترا، المجتمع مبني تاريخيا على عملية التجربة والخطأ فالمنظمة التي تنمو هي التي تعطي إشباعاً لرغبات المنتمين إليها بأقل قدر من الألم فمن وقت لآخر تتغير عناصر الوضع القائم وحينها على المؤسسة أن تتكيف مع الوضع الجديد وهي تقوم بذلك لسبب واضح بدون تفكير أو تحليل.

الإنسان بالنسبة لسمنر مخلوق مستقل بنفسه أو مكتفٍ بذاته وتتأثر أفعاله بشكل كبير بقوى غير عقلانية وكما بين إستار Starr فإن سمنر عَرَفَ أو أيقن أن المخلوقات البشرية بشكل عام غير محكومة في أفعالها بالمنطق. (46)

نظر سمنر إلى المجتمع بوصفه نسقاً من القوى التي تخضع لقوانين يتمثل عمل العالم في فحصها ودراستها. وعلى الناس أن يستجيبوا للقوانين الاجتماعية كما يستجيبوا للقوانين الفيزيائية، وعليهم أن يتعلموها ويطيعوها.

وقانون التطور هو القانون الأساسي عنده. وهو عملية تلقائية تسير في اتجاه واحد، ولا يمكن ردها أو إعاقتها، ويستحيل تغييرها بواسطة الجهود الإنسانية. ويندفع التطور قدما بواسطة الصراع من أجل البقاء، وهو نضال مرير وتنافس حاد بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، ولذلك ينبغي أن لا يلام أي شخص يضع العقبات والعراقيل أمام شخص آخر، فتلك سنة الحياة فالبقاء للدؤوب والمعتدل، أو البقاء للأصلح. ذلك قانون المدنية أو الحضارة، حيث يتمثل البديل الوحيد لغير الصالح، وذلك هو قانون اللا مدنية واللا حضارة، وغير ذلك لا توجد ممكنات.

والطرق الشعبية محاولة تتبنى أسلوب الداروينية الاجتماعية لتفسير الأصل التطوري للعادات الاجتماعية، وطبيعتها، ووظيفتها، واستمرارها. وطالما أن العمل الأول في الحياة هو

الحياة ذاتها، فإن الناس يبدؤون بالأفعال وليس بضروب التفكير، ولم يكن سمنر واضحا تماماً فيما يتصل بالقوة التي تخلق الطرق الشعبية، وحاول أن يقدم ثلاثة أشكال مختلفة من التفسير:

1- المصلحة (متأثرا بسمول)
2- اللذة والألم (مذهب اللذة)
3- دوافع الجوع والجنس والزهو والخوف (وهو هنا يسبق توماس في إشارته للرغبات الأربع).

يمكن للجهود القصدية للإنسان أن تعدل من الطرق الشعبية، لكن ذلك يتم في أضيق حدود. وقد تفقد هذه الطرق سطوتها في وقت من الأوقات وتتدهور وتموت أو تتغير، ولم يدرس سمنر على الإطلاق الظروف التي تؤدي إلى تحول هذه الطرق أو تلك التي تفقدها تأثيرها على الناس، ولذلك فإنه لم يقم بصياغة ما يمكن أن يقترب من مستوى القوانين الاجتماعية على الإطلاق.

حينما تكون الطرق الشعبية قوية، تضبط الفرد والأفعال الاجتماعية، وتغذي الأفكار الفلسفية حول العالم، وكذلك سياسة الحياة أو خطتها. وحينما تتطور وجهات النظر الأولية المتعلقة بالحقيقة والحق أو الصواب إلى مبادئ للرفاهية، فإن الطرق الشعبية المتضمنة تصبح سنناً أو أعرافاً. هذا ولم يكن سمنر واضحاً في استخدام اصطلاحاته إلى حدٍ ما، فهو في بعض الأحيان يجعل السنن والطرق الشعبية على طرفي النقيض، وفي أحيان أخرى يستخدم اصطلاح الطرق الشعبية لكي يشير إلى أساليب الفعل المقبولة بوجه عام بما في ذلك السنن.

قدم سمنر إلى علم الاجتماع التحليلي أيضاً تفرقة بين مفهومي "جماعتنا we group" و "جماعتهم They Group" كما أكد التضاد بين ذواتنا أو جماعتنا أو الجماعة التي ننتمي إليها وبين الجماعات الخارجية، فكل جماعة تغذي خيلاءها وزهوها، وتفاخر بسموها وتفوقها، وتمجد مقدساتها وتنظر باحتقار إلى الخارجيين. وتعتقد كل جماعة أن طرقها

الشعبية هي الطرق الوحيدة الصحيحة، وبينما يرتبط أعضاء الجماعة الواحدة بعلاقات سلام، وبنظام عام وقانون. فإن علاقاتهم بالجماعات الخارجية يكون ملؤها الكراهية والعداء. وقد تناول سمنر اصطلاح الاعتداد بالعرق ethnocentrism للإشارة إلى اتجاهات الاستعلاء والتفوق المتصلة بالطرق الشعبية لجماعة الشخص والمقارنة المحفوفة بالبغضاء بطرق الجماعات الأخرى الخارجية.

وأكد سمنر على أن هناك ارتباطاً بين الاعتداد بالجنس وبين تماسك الجماعة. "تحقيق ضرورات الحرب مع الخارج، والسلام في الداخل، والولاء للجماعة والتضحية من أجلها، والكراهية والاحتقار للخارجيين، والأخوة في الداخل والحث على القتال مع الخارجيين... كل ذلك ينمو معاً وهو نتاج مشترك للموقف نفسه"(47).

وقد كانت أهم أعماله تتمثل في مجموعة من الكتب منها: المأثورات أو الأساليب الشعبيةFolkways الذي صدر عام 1906، وعلم المجتمع The Science of Society الذي صدر عام1927، ولكننا سوف نركز على أعمال سمنر فيما يختص بأعماله المتعلقة بـ " البناء المعياري للمجتمع" أو ما عرف بالأساليب الشعبية والأساس الغريزي الذي تقوم عليه الأساليب الشعبية. وعليه فإنه بينما قد ينظر له على أنه من المنظرين الذين يهتمون بالصراع أو باعتباره واحداً من أنصار منظري مدرسة الصراع على المستوى العياني أو مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى Macroscopic Conflict Theorist إلا إننا نود الإشارة إلى أن اهتمامنا بسمنر سوف يتركز على العناصر السلوكية الاجتماعية في نظريته العامة التي يبدو إنها تمثل الأساس الذي ترتكز عليه جميع أعماله، أما بالنسبة للأهداف العلمية التي كان سمنر يسعى إلى تحقيقها فيمكن إيجازها فيما يلي:

مطبقا لوجهات نظر كل من سبنسر وداروين على المجتمع رأى سمنر أن علم الاجتماع يمثل دراسة قوانين المجتمع التطورية على مستوى الوحدات الاجتماعية الكبرى، وعند مستوى التفاعل ما بين الأفراد Interpersonal في نفس الوقت، وقد شعر حينها (مثلما فعل كونت) أن مهمة عالم الاجتماع الأساسية هي تتبع القوانين التطورية في الظاهرة

الاجتماعية من أجل تحديد الحد الأعلى من التطور الاجتماعي أو لكي نفسر التطور الاجتماعي تفسيراً منظما. فمن وجهة نظر السلوكيين الاجتماعيين على سبيل المثال فإن ذلك يتطلب تحليل العلاقة بين الدوافع الفردية وتطور ونمو الأنساق المعيارية. وفي ذات الوقت قدم سمنر مجموعة من الافتراضات العلمية التي يمكن إيجازها فيما يلي:

1- بتطبيقه لنظريات سبنسر وداروين على المجتمع، وضع سمنر الافتراض الأساسي الذي مفاده أن التطور قوة أساسية وهو في الوقت ذاته قانون له فاعليته. وطبقا لذلك فالمجتمع يتطور إلى مستويات عليا أو مستويات أرقي من التنظيم خلال عمليات متتالية من المنافسة والتعاون وبقاء الأصلح. والموروث في هذا التطور هو القانون الذي يقول إن السكان يظهر أنهم يزدادون إلى الحد الأقصى الذي يمكن لقدرة البيئة على إعالتهم، وقانون تناقص العائد أو الغلة. بضمه السكان إلى قانون تلاشى العائد أو تناقص الغلة فإن ذلك يمثل أفضل فهم لحالة المجتمع. وهو ما جعل سمنر يصف بعض المجتمعات بأنها سكانها أقل مما ينبغي under populated، وأخرى سكانها أكثر مما ينبغي overpopulated.

فالنوع الأول من المجتمعات يوصف بالفائض الاقتصادي، ووجود الديموقراطية، والمستوى العالي من الاعتماد على النفس، وانخفاض التباين الطبقي الاجتماعي، والنوع الثاني يستغل الحد الأعلى من الموارد المتاحة له، ومتحكم فيه من قبل الصفوة التي تملك القوة وبالتالي تملك السلطة، ومميز عن طريق مستويات عالية من التباين الطبقي الاجتماعي.

بهذا الأسلوب حاول سمنر أن يصف التأثيرات الفعالة لنمو السكان على الموارد الطبيعية. كما أنه استطاع كذلك من خلال هذا الإطار أن يفترض بشكل محدد وحتمي أن الفقر ما هو إلا نتيجة للجهل بقوانين التطور، بينما تتعامل الطبيعة مع الانحراف مثل الكحولية الناجمة عن تعاطي المشروبات الكحولية التي تذهب العقل، وذلك عن طريق نزع الأشياء غير الصالحة على البقاء. وتتسم أعمال سمنر بتحليلها للأشياء عند المستوى العياني أي عند مستوي الوحدات الاجتماعية الكبرى، فإن أعمال سمنر تمثل التطبيق البسيط

والمباشر لمبادئ التطور وقوانينه على المجتمع. أما تحليله الاجتماعي عند مستوي الأفراد فكان أكثر عمقا وأبعد أثرا.

2- افترض سمنر أن السلوك عند مستوى العلاقات الشخصية المتبادلة Interpersonal يحدد عن طريق العادات أو المأثورات أو الأساليب الشعبية Folk ways والأعراف Norms أي التقاليد والعادات في الحياة الاجتماعية. بهذه الطريقة يمكن القول بأن سمنر اتخذ مدخلا معياريا للظواهر المجهرية Microscopic أو التي تدرس الوحدات الصغرى.

3- علاوة على ذلك فإن المحرك الأساسي للمأثورات أو الأساليب الشعبية والأعراف هو مصالح الأشخاص ودوافعهم مثل: الجوع، والحب، والغرور، والخوف، وبالمقابل فإن أساس هذه المصالح هو وجود الدافع الإنساني الأساسي المتمثل في الامتيازات والمنافع.

4- من هذه المصالح والدوافع، فإن الأعراف والمأثورات أو الأساليب الشعبية تتطور بطريقة لا شعورية، وعفوية، وغير منسقة. بعد إذ إن القوى الاجتماعية تتأثر بالتغير، والمحاولة والخطأ، وعنصر اللذة والألم. وهذه العوامل تشير كذلك إلى انجذاب ناحية التماسك وتشير إلى قوة ضاغطة تعمل على تحقيق الاتساق، وهي محددة بأنها الصواب والحق، ومدعمة بالمحرمات أو ما يعرف بقواعد تحريم الجزاءات. كما يدعمها ويسندها الاعتداد بالعرق (السلالة) والشعور بالوطنية سواء داخل الجماعة أو خارجها.

5- تترسخ الأساليب الشعبية Folkways من خلال الطقوس المستمرة أو الثابتة لتتكون منها الأعراف. وهذه الأعراف تعتبر معايير تتعلق برفاهية المجتمع أو الجماعة، تكون مقننة ومجازة عن طريق قواعد المحرمات، وهي تمثل عامل شد نحو الثبات، كما تمثل القاعدة التي ينطلق منها الضبط الاجتماعي، وبناء الطبقات، واختلافات أو تباين الثقافة الفرعية، والنسق التنظيمي. لهذا فإن الأساليب الشعبية Folkways تصبح أكثر تنظيما وتكون في نفس الوقت قاعدة أخلاقية أو أساساً أخلاقياً للبناء الاجتماعي.

6- هذا البناء على كل حال مازال بعيداً جداً من أن يكون ثابتاً، فالأعراف من الممكن أن

تكون منحلة أو مهلهلة بمعنى أنها تكون غير فعالة أو جامدة، وبذلك فإنها تكون عرضة للتحوير من خلال عملية تعاقب الأجيال، . وقد تكون عرضة للمعارضة، ومن الممكن أن تكون أيضاً غير مناسبة أو غير ملائمة إذا ما تعرض المجتمع للتغير في وضعه المعيشي. عليه فإن هذه الظاهرة المعيارية تكون عرضة للتغير المستمر، وتتطور استجابة للأوضاع الاجتماعية المتغيرة.

باختصار، فإنه بينما طبق سمنر التطور الطبيعي عند المستوى العياني أي عند مستوى الوحدات الكبرى على التطور الاجتماعي بطريقة مبسطة، فإنه عند المستوى المجهري أو عند مستوى الوحدات الصغرى فهم الظاهرة الاجتماعية من حيث الظروف المعيارية، كما رأى أن الحقيقة الاجتماعية كمجموعة من الأساليب الشعبية Folkwaysوالأعراف المتطورة والمتغيرة، وهي التي تتطور باستمرار مستجيبة للدوافع والمصالح الطبيعية الإنسانية للبشر، وعرف سمنر التطور عند هذا المستوى بطريقة أو شروط معيارية. (48)

يرى سمنر أن منهج علم الاجتماع يتطلب استخدام تقنيات أو أساليب البحث مثل التصنيف، والمقارنة، والتسلسل أو تتبع التغيرات، والمقارنة بين الثقافات Cross-Cultural analysis والاستقراء التاريخي. وقد طبق سمنر هذه التقنيات أو أساليب البحث على الأساليب الشعبية Folkways والأعراف في محاولة منه لتحديد أسسها وأسباب نشأتها وتطورها وعلاقتها بظروف الحياة الاجتماعية، لقد كانت محاولة سمنر تسعى إلى تطبيق المنهج العلمي على الظواهر المعيارية.

العناصر الأساسية في نموذجه أو نمط المجتمع عنده المتعلق بالعادات أو المأثورات أو الأساليب الشعبية والأعراف، الذي تقوم عليه الأساليب الشعبية وكيفية تطورها والتي سبق وأن نوقشت أعلاه. على أية حال هذه العناصر وعلاقاتها المتداخلة يمكن تلخيصها على النحو التالي: حيث يهمنا أن نوضح عدداً من المظاهر: الأساس الطبيعي أو المأثورات أو الأساليب الشعبية تعرض هذه الأساليب لتطور ملائم خلال سعيها نحو التماسك أو الاتساق وتدعمها المعايير الاجتماعية التي تتطور وتأخذ شكل الأعراف تتخذ صورة تنظيمية مثل

البناء الاجتماعي، كما أنها تكتسب خصائص متحركة في مواجهة المعارضة والتغيرات الاجتماعية. وعلى هذا الأساس فإن سمنر طور نظرية ديناميكية، وتطورية، ومعيارية تستند على معايير المجتمع، نظرية مبنية على افتراضات طبيعية، تهتم بالدوافع، والمصالح الإنسانية. ويمكن تلخيص نموذج سمنر العلمي على النحو التالي:

ملخص واستنتاجات لوجهة نظر سمنر:

بناء على الافتراضات الطبيعية فقد طور سمنر نظرية استقرائية، وتطورية، ومعيارية للمجتمع، تمثل في مجالها الوحدات الصغرى وهي مجتمعية في المجال، والبناء والحركة. بينما كانت أفكاره فيما يتعلق بتطور المجتمع بسيطة إلى حد ما، فإن تحليله للمجتمع عند مستوى الوحدات الصغرى كان ديناميكياً وبعيد المدى، يحتوي على عدد من الأفكار الموازية لأعمال دوركايم المبكرة. كما أن نظرية سمنر تثير مجموعة من القضايا مثل:

1- تطبيقه لمبادئ التطور الطبيعي بشكل مبسط على المجتمع أثارت إشكالية صلة هذا التطبيق بالموضوع ومدى مناسبته.
2- العلاقة بين السكان والخصائص المجتمعية تعتبر مماثلة لمعضلة التبسيط فهي لم تستطع أن تحدد احتمالية التداخل التي قد تعقد القضايا.
3- وصفه للدوافع والحاجات الإنسانية تأثير قضية مهمة وهي تحديد القضية الطبيعية.
4- مسائل بعد الجماعة في المجتمع وتأثيرات الاختلال الوظيفي لسلطة الصفوة يبدو أنها تم التغاضي عنها أو لم يتم التشديد عليها.

عليه فإن سمنر أراد أن يطور نمطاً من النظرية الطبيعية، الحتمية، الوظيفية، ذات النزعة الاختزالية. على كل حال فإن نظرته التصورية للمجتمع على أنه ديناميكي ويتكون من مجموعة معقدة من الظواهر المعيارية أدت إلى مساهمة مهمة في علم الاجتماع المبكر، مازال يشار إليها حتى الآن عند محاولة فهم لماذا وكيف تتطور الأعراف؟. (49)

هوامش الفصل الخامس

1- Kinloch, Graham, Sociological Theory, Mcgraw-Hill Book company1977 p 26

2- Garfinkel, Harold, Studies In Ethnomethodology, Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey 1967. p vii.

3- Coser, *Lewis A. Masters of Sociological Thought,* Second Edition, Harcourt Brace Jovanovich, Inc. New York 1977,p3 .

4- Coser, *Lewis, Ibid, pp* 237- 236 .

5- Coser, *Lewis, Ibid, p* 237 .

6- Coser, *Lewis, Ibid, p* 238 .

7- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها ترجمة محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1978، ص 253.

8- Coser, *Lewis, Ibid, pp* 238- 239 .

9 - Kinloch, Ibid, pp 138-139 .

10- محمد علي محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص 194.

11- عدلي علي أبو طاحونة، النظريات الاجتماعية المعاصرة، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ص ص 142-143.

12 - Kinloch, Ibid, p139 .

13- علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1982، ص 625.

14- محمد علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص 198.

15- علي ليلة، مرجع سبق ذكره، ص 629.

16- محمد علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص 277.

17- Kinloch, Ibid, pp 139-140 .

18- علي ليلة، مرجع سبق ذكره، ص 601.

19- Kinloch, Graham, Ibid, pp 141-142 .

20-Coser, *Lewis, Ibid, pp* 341- 343..

21-Coser, *Lewis, Ibid, pp* 342-343..

22-Coser, *Lewis, Ibid, pp* 343- 344 .

23-Coser, *Lewis, Ibid, pp* 346- 346 .

24- Larson, Calvin J. Major Themes in Sociological Theory, David Mckay Company, Inc. New York, second Edition, 1977 pp 100-101.

25-Coser, *Lewis, Ibid, p* 333 .

26-Coser, *Lewis, Ibid, p* 334

27-Coser, *Lewis, Ibid, p* 335..

28- جوناثان تيرنر، بناء نظرية علم الاجتماع، ترجمة مخمد سعيد فرح، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000، ص ص 303-304.

29-Coser, *Lewis, Ibid, p* 33 .6

30-Coser, *Lewis, Ibid, p* 33 .7

31-Coser, *Lewis, Ibid, pp* 337-338 .

32- السيد علي شتا، النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة، 1995، ص 46.

33-Coser, *Lewis, Ibid, p* 333 .

34-Kinloch, Graham, Ibid, pp 146-148

35-Kinloch, Graham, Ibid, pp 148-149 .

36-Coser, *Lewis, Ibid, pp* 194-195 .

37- Ruitenbeek, Hendrik M. (Editor) Varieties of Classic Social Theory, E. P. Dutton& co., Inc. New York, 1963, pp 259-260 .

38- السيد علي شتا، النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة، 1995، ص 46.

39- معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر:دراسة تحليلية ونقدية، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، 1991، ص ص 198-199.

40- المرجع السابق نفسه، ص ص 198-200.

41- السيد علي شتا، النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة، 1995، ص 46.

42- معن خليل عمر، مرجع سبق ذكره، ص 140.

43-Coser, *Lewis, Ibid, p* 196

44- نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص 158.

45-Kinloch, Ibid, pp 153-154.

46- Larson, Calvin,Ibid, pp 82-83 .

47- نيقولا تيماشيف، مرجع سبق ذكره، ص 110-114.

48-Kinloch, Ibid, pp 161-157 .

49-Kinloch, Ibid, pp 161-157 .

الفصل السادس

النظرية البنائية الوظيفية
Structure Functionalism Theory

ويشتمل هذا الفصل على النقاط الآتية:

- **أولاً: تالكوت بارسونز**
- **ثانياً: أميتاي أتزيوني**

الفصل السادس

النظرية البنائية الوظيفية
Structure Functionalism Theory

تمهيد

نستطيع أن نتلمس مجموعة المقدمات المنطقية والمسلمات التي تنطلق منها البنائية الوظيفية Structure Functionalism في كتابات الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع. إذ يعود الكثير من هذه المقدمات إلى الأعمال الأولى في علم الاجتماع. فقد ظهرت فكرة تكامل الأجزاء في "الكل" وتساند عناصر المجتمع المختلفة في فكرة الاتساق العام عند كونت، وفي فكرة التكامل الناتج عن التباين عند سبنسر وفي الاتجاه العضوي عند كولي وفي تصور باريتو للمجتمع باعتباره نسقاً متوازناً، أما تأكيد فكرة الدور أو الإسهام الذي تقدمه البناءات الاجتماعية للكل، فيعود في الواقع إلى كل من دور كايم وتوماس(1) وغيرهم من علماء الاجتماع المحدثين الذي تناولوا في أعمالهم قضية البنائية الوظيفية بالشكل الذي سوف نتناولها به في هذا الفصل بإذن الله.

النظرية الوظيفية مثلها في ذلك مثل النظرية العضوية، تمثل التفاعل المذهبي للمفكرين ذوي التوجه المؤسسي، أي التوجه الذي يهتم بفهم المؤسسات التي تهتم باستقرار حاجات النسق السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المعاصر. فنحن نصف هذه الحاجات كما ظهرت على وجه الخصوص بعد الحرب العالمية الأولى وبعد الانهيار الاقتصادي الذي حدث في الثلاثينيات من القرن العشرين كما بدت من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والتقنية المعاصرة. ونصف كذلك التوجه الفلسفي لهؤلاء الصفوة من العلماء الذين قدموا تطبيقا للفكر الأوروبي الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر وبالذات فيما يخص

تأكيد هذا الفكر على القوانين الطبيعية، والتغير الاجتماعي الآخذ في التصاعد، والإصلاح الاجتماعي، والتماثل Analogy العضوي للمجتمع من خلال سياق الفلسفة الذرائعية، والنسق القيمي غير المثالي. ومن هنا كانت النظرية البنائية الوظيفية باعتبارها أساساً للنظرية المعاصرة تمثل تطبيق النموذج العضوي على حاجات النسق في المجتمع المعاصر بواسطة صفوة محددة من المفكرين. (2) وما هو مؤكد أن الاتجاه الوظيفي قد ظهر في البيولوجيا وعلم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية قبل إن يتبناه علماء الاجتماع المحدثون ويظهر في تحليل المجتمع باعتبار أن كل جزء من نسق أو عضو يمكن أن يطلق عليه كائن عضوي.

هذا المدخل ينظر إلى المجتمع على أنه نسق متداخل، ومتساند، ومتطور، وباعتباره كل متجه نحو التوازن، يمثل حاجات أو وظائف النسق الأساسية. بهذه الكيفية فإن البناء أو النسق الاجتماعي، يمثل وظيفة ما أو حاجات أساسية محددة للنسق. وعليه فقد أجريت محاولة لتطوير نظرية عامة للمجتمع مبنية على افتراض مؤداه أن المجتمع يوجد ويحوز على حقيقة وجوده المستقل كنسق اجتماعي، بواسطة خصائص مشابهة لأنساق أخرى في الكون (مثل الأنساق الطبيعية والفيزيقية). والتركيز الأساسي لعلم الاجتماع طبقاً لذلك، هو فحص واكتشاف الخصائص الأساسية للنسق الاجتماعي، وأساليب تطورها من أجل الحصول على الحد الأعلى من التغير الاجتماعي المنظم. لهذا فإن التوازي في الشكل بين هذه النظرية وبين النموذج العضوي في علم الاجتماع واضح في خصائصه الكلية، والتطورية، والطبيعية.

لم يكن كل الوظيفيين على أية حال يحملون وجهات نظر متساوية حول ماهية الشيء الذي يكون الوظائف الأساسية للمجتمع. فبينما يرى البعض أن للمجتمع خصائص يشترك فيها مع الأنساق العضوية، وبالتحديد فيما يتعلق بالتوازن أو الاتزان الحيوي، فإن البعض الآخر تبنى وجهة نظر أكثر علم اجتماعية (سوسيولوجية)، بحيث صاروا ينظرون إلى المجتمع كنسق معياري يوجد داخل عقول الأفراد بدلاً من وجوده خارجها. والعضوية

تنظر إلى المجتمع على أنه عياني Macroscopic، ومتطور، وعلى أنه نسق متزن حيويا ومبني على وظائف أساسية (3) لا بد أن يؤديها المجتمع لكي يحافظ على سر وجوده وبقائه وهو الرأي الذي نذهب إليه في نظرتنا إلى البنائية الوظيفية المعاصرة.

يذهب الوظيفيون إلى أن الطريقة التي يعمل بها المجتمع ويستمر في بقائه يمكن فهمها من خلال وظيفة النسق الاجتماعي أو عناصره إما أن تكون وظيفية functional أو لا تكون وظيفية dysfunctional لكن الغالبية العظمى من هذه العناصر هي عناصر وظيفية، بوصفها تلعب أدوارا إيجابية من أجل صيانة النسق والمحافظة على توازنه، أما العناصر اللاوظيفية فهي إما أن تتمثل في أدوار غير نافعة أو غير مقيدة أو أن تتمثل في نتائج سلبية وضارة. (4) فالكُلْيَة على سبيل المثال تؤدي وظيفة إيجابية بالنسبة للجسد وتعمل على تخليصه من السموم التي يمكن أن تتراكم فيه لكن أي قصور في وظيفية الكلى يعتبر لا وظيفي فالكلى في هذه الحال لا تسهم في بقاء الكائن الحي فقط بل إن أي قصور فيها قد يهدد وظائف الأعضاء الأخرى بما في ذلك القلب والجهاز التنفسي وقد يهدد حياة الكائن الحي بأكملها.

ويحاول الاتجاه الوظيفي أن يطبق هذا الفهم على المجتمع أو على النسق الاجتماعي فالمهتمون بالمشكلات الاجتماعية من أصحاب الرؤية الوظيفية يفهمون الجريمة بوصفها خللا وظيفيا في المجتمع خطيراً ومدمراً قد تعمل على تحطيم النسق بأكمله في أقصى حالاتها حدة. (5) ولهذا يحاولون التعرف على الكيفية التي يمكن بها إصلاح هذا الخلل الوظيفي حتى يمكنوا المجتمع من استعادة توازنه وهذه هي الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع.

ونحن نعتقد أن معنى الوظيفية يجب أن يتسع أكثر مما هو عليه الآن. فعلم الاجتماع الوظيفي سيظل واقفا على أرضية صلبة طالما كان متقيدا بالإجابة على التساؤلات التي تدور فقط حول الإسهامات التي تؤديها الأجزاء المختلفة من أجل تدعيم الكل وتأكيده (أو العكس)، وطالما ظل كذلك مهتماً فقط بدراسة طبيعة ومدى تكامل عناصر النسق.

الخلاصة إن النظرية البنائية الوظيفية تدرس الكيفية التي يؤدي بها المجتمع وظيفته، وكما هو واضح مما سبق فإن هذه النظرية تطورت متأثرة بالعلوم الطبيعية. وعليه فإن هذه النظرية تعتبر أن المجتمع يتكون من أجزاء، وكل جزء من هذه الأجزاء يجب أن يقوم بوظيفته حتى يبقى ويستمر. وسوف نكتفي بمنظرين اثنين من أهم منظري البنائية الوظيفية حسب اعتقادي وهما: بارسونز الذي يمثل النمط الطبيعي في النزعة البنائية الوظيفية، وأتزيوني الذي يمثل نمط التفسير المهتم بالنسق المعياري في النزعة البنائية الوظيفية.

أولاً: تالكوت بارسونز Talcott Parsons (1902-1979م):

ولد بارسونز في مدينة كولورادو سبرنغز Colorado Springs بولاية كولورادو الأمريكية. وكان والده يشغل وظيفة بإحدى الكنائس البروتستانتية، لهذا لعب دوراً نشيطاً في الحملة البروتستانتية للإصلاح الاجتماعي والتي عرفت بحركة الإنجيل الاجتماعية وكان والده قد قام بالتدريس في كلية كولورادو إلى أن وصل إلى رتبة عميدها ثم شغل بعد ذلك منصب عميدا لكلية ماريتا في ولاية أوهايو. (6) في هذا الجو الديني الإصلاحي والعلمي نشأ بارسونز الطفل متأثرا بالصراعات الثقافية التي كانت تجتاح الولايات المتحدة في تلك الفترة. وقد اعترف بارسونز نفسه بأن نزعة الإصلاح الاجتماعي عند والده رسمت له طريق حياته: فقد أعده الجو الأسربلكي ينجذب إلى أعمال الاقتصاديين من محللي النظم الذين حاولوا التحرر من الإطار الضيق لعلم الاقتصاد الكلاسيكي ليدرسوا الجوانب النظامية للظواهر الاقتصادية وعلاقتها بالبناء الاجتماعي الأوسع. (7) ومدى تأثير كل منهما على الآخر من وجهة نظر علماء الاقتصاد والاجتماع المحدثين، وإلى أي مدى تتأثر الجوانب النظامية للظواهر الاقتصادية بالوظائف المختلفة التي يؤديها النظام الاجتماعي لأي مجتمع.

تخصص بارسونز في بادئ الأمر في علم الأحياء بكلية أمهرست Amherst College وكان ينوي القيام بدراسات عليا في علم الأحياء لكنه قرر وهو في العام الثالث في كلية امهرست أن يهتم بالعلوم الاجتماعية. وقرر أخيراً أن يكمل دراسته العليا في علم الاجتماع.

ذهب إلى بريطانيا لدراسة الاقتصاد على نفقة أحد أعمامه في كلية الاقتصاد بلندن. وبعد أن أنهى عاماً في دراسة الاقتصاد في لندن تحصل على منحة للدراسة بجامعة هيدلبرج لعامين " 1925- 1926" ولم يكن في ذهنه هدف دراسي محدد اللهم إلا الاستفادة من الجو الثقافي في تلك الجامعة الألمانية العريقة التي حظيت بشهرة وتأثير بالغين في الدوائر الأكاديمية الأمريكية. وفي ألمانيا تأكد ارتباطه بالاشتغال بالعلوم الاجتماعية، تحت تأثير قوى لرجل كانت مكانته تزداد ارتفاعا في ألمانيا: هو ماكس فيبر الذي كان قد مر على وفاته خمس سنوات عند قدوم بارسونز إلى هيدلبرج، ولكن وجوده كان ما يزال محسوسا.

بعد حصوله على درجة الدكتوراه من جامعة هيدلبرج عاد إلى الولايات المتحدة ليعمل كمعيد في الاقتصاد في كلية أمهرست. وفي عام 1927 انتقل إلى جامعة هارفارد التي قضى بها بقية حياته الأكاديمية. ولم ينتقل إلى قسم علم الاجتماع الذي كان بيتريم سوروكن قد أنشأه حديثا إلا في عام 1931. وظل يحمل لقب معيد مما أبقاه في آخر السلم الأكاديمي في الجامعة. ولم يعين في وظيفة أستاذ مساعد إلا في عام 1936، وتحصل على لقب أستاذ مشارك في عام 1939 وذلك بعد عامين من نشر كتابه المهم "بناء الفعل الاجتماعي". وفي عام 1944 فكر بارسونز جديا في ترك جامعة هارفارد لكنه تراجع عن فكرة ترك الجامعة بعد أن عرض عليه رئاسة قسم علم الاجتماع بها. وأصبح بمنصبه الجديد في قلب حركة مهمة لإعادة تنظيم تدريس العلوم الاجتماعية.

أثناء وجوده في كلية الاقتصاد بلندن اتصل بارسونز بالمدرسة الأنثروبولوجية البنائية، كما تأثر بالأفكار الفيبرية في جامعة هيدلبرج التي تحصل منها على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع والاقتصاد. وكانت نظريته تمثل مركباً من البيولوجيا والأنثروبولوجيا والعوامل الفيبرية. وتمثلت أهم أعماله في: كتاب بناء الفعل الاجتماعي 1937، والنسق الاجتماعي 1951، ونحو نظرية عامة في الفعل 1951، ونسق المجتمعات الحديثة 1971 (8).

يرى عبد الرازق حلبي وآخرون أن بارسونز يعتبر بحق" أكثر الشخصيات أهمية وتأثيراً في تحول علم الاجتماع الأمريكي من النظرية النفسية الاجتماعية ذات الصبغة الفردية إلى

المنظور الشمولي المعادي للفردية والذي سيطر على علم الاجتماع الأمريكي في فترة ما بعد الحرب. فقد كان بارسونز أول عالم اجتماع أمريكي يطور نظرية متماسكة عن المجتمع باعتباره كلاً متكاملاً، وذلك في مقابل النمط السائد من الإمبيريقية السوسيولوجية المعادية للنظرية ومع ذلك لم تكن أعمال بارسونز في فترة الثلاثينيات، والتي جمعت في كتابه بناء الفعل الاجتماعي. The Structure Of Social Action 1937 والتي تتحدث بالتحديد عن اتجاه وظيفي واضح بل كانت بمثابة تطوير للنظرية الطوعية الإرادية حول الفعل الاجتماعي التي انفرد بها كل من فيبر ودور كايم لتصورهما أن التكامل الاجتماعي يتمحور حول المعايير العامة والمشتركة، وأن أعضاء المجتمع يجب أولاً أن يتقبلوا القيم كمسائل مشروعة". (9) وبعد نشر بارسونز لكتاب الفعل الاجتماعي بثماني سنوات أصبح واضحا عنده شكل التحليل الذي يسعى إليه حول وجهة نظره في بناء الأنساق الاجتماعية الذي كان يرى أنها لا يمكن أن تنبثق من إطار مرجع الموقف عند الفاعل فهذه القضية تتطلب تحليلا وظيفيا للعناصر المعقدة التي تترتب على مجموعة من الفاعلين.

يرى بارسونز أن أساليب التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي يقدمان حلا لمشكلة من أكثر مشكلات التكامل إلحاحاً. وهي مشكلة المطالب التي تواجه الأنساق الاجتماعية ومشكلة التكامل الكبرى التي تواجه الأنساق الاجتماعية تتعلق بكيفية مساهمة الأنماط الثقافية في بناء النظام الاجتماعي والمحافظة على التوازن. وتتضمن أساليب الضبط الاجتماعي تلك الطرق المتفق عليها اجتماعياً لاختزال وامتصاص التوتر والانحراف وثمة أساليب ضبط عديدة ومحددة وتشمل:

1- تكوين النظم التي تجعل توقعات الأدوار واضحة ومحددة ومحكمة بينما تعزل الأدوار المتناقضة في الزمان والمكان.

2- الإيماءات والعقوبات والجزاءات.

3- أنشطة الطقوس والتي يعبر الفاعلون من خلال السلوك والأفعال تعبيراً رمزياً من منابع التوتر التي قد تكشف عن تفكك وتمزق البناء الاجتماعي وهي في الوقت نفسه

تدعم الأنماط الثقافية المهيمنة.

4- أبنية القيم التي تحقق الأمان والاستقرار والتي تؤدي إلى عزل وتمييز نزعات الانحراف المنتشرة في أماكن معينة وأزمنة محددة من الأنماط التنظيمية السوية.

5- أبنية إعادة التكامل ويلقى على عاتقها عبء مسؤولية التعامل مع رغبات الانحراف وإعادة الأمور إلى الطريق المستقيم.

6- بناء وتكوين النظم التي لها القدرة على استخدام القوة والقهر داخل بعض قطاعات النسق. (10) والمعلوم أن التنشئة الاجتماعية تلعب الدور الحاسم في تكوين الضبط الاجتماعي الصحيح بنوعية الضبط الاجتماعي الداخلي والضبط الاجتماعي الخارجي الذي ينقسم بدوره إلى نوعين رسمي وغير رسمي.

الفعل الاجتماعي:

تعتبر فكرة الفعل الاجتماعي Social Action - التي قدمها بارسونز في إطار شامل- البداية لنظريته برمتها. وهي فكرة لا تظهر في تعريف محدد ودقيق إلى درجة تثير قنوط قراء بارسونز. مع أن بارسونز قد شرح مرارا وتكرارا وبطريقة واضحة ما يعنيه بهذه الفكرة. الفعل الاجتماعي- بالمعنى الذي استخدمه بارسونز هو كل ضروب السلوك البشري التي تدفعها وتوجهها المعاني التي يكونها الفاعل عن العالم الخارجي، وهي معاني يأخذها في اعتباره ويستجيب لها. وبناء على ذلك فإن الخاصية الجوهرية للفعل الاجتماعي هي حساسية الفاعل لمعاني الأفراد والأشياء من حوله، وإدراكه لهذه المعاني وردود فعله تجاه المؤثرات التي تنقلها. (11) وعليه فإن بارسونز يرى أن بناء الفعل الاجتماعي يحوي أكثر من السلوك المنظم معياريا فهو يضم على سبيل المثال اتخاذ القرارات الفردية سعيا إلى تحقيق الأهداف وكيفية إصدار الفاعل للقرار ومدى تأثر الموقف بالعوامل الوراثية والبيئة.

أكدت نظرية الفعل الاجتماعي عند بارسونز - تلك النظرية التي قللت من قدر ومكانة ماركس في تاريخ النظرية الاجتماعية - الحاجة إلى وجود قيم محورية في فترة ما من التاريخ

الأمريكي - هي فترة الكساد في الثلاثينيات - وذلك عندما بدت القيم الأمريكية وكأنها أكثر إجهاداً. لقد عارضت النزعة الطوعية لدى بارسونز النظريات الماركسية عن حتمية الصراع الطبقي والأيديولوجيات الطبقية والنضال الطبقي، واعتبرتها في مجموعها من قبيل النظريات الحتمية. ذلك لأن بارسونز كان يعتقد أن حل مشكلات التفكك وعدم التنظيم الاجتماعي إنما يكمن في تطوير المزيد من القيم الأخلاقية التي تدعم ترابط المجتمع كوحدة متماسكة، كما يكمن في تأكيد الجوانب الطوعية الإرادية في الفعل. لذلك كان بارسونز يؤكد دائما على ضرورة أن يعمل الأفراد وأن يوجدوا الظروف الضرورية واللازمة لبعث الحياة الاجتماعية من جديد. (12) لهذا فإن بعض المفاهيم المتعلقة بمصالح الذات في مقابل مصالح الجماعة قد تخلى عنها منهج الفعل عند بارسونز بينما حظيت مفاهيم أخرى مثل العمومية بأهمية أكبر.

يبدو أن التحول من تحليل الوحدة المميزة للأفعال إلى تحليل أنساق الأفعال عند بارسونز قد حدث في سياق جهود ترمي إلى إيضاح مفهومات مثل:

1- لا تصدر كل وحدة من وحدات الفعل من فراغ اجتماعي.
2- بل بالأحرى تحدث كل وحدة من وحدات الفعل في بيئة اجتماعية يشغل الفاعلون فيها مراكز محددة ويتفاعلون سويا ويؤدون سلوك الدور المنظم تنظيما معيارياً.
3- لا ينفصل الدور عن المركز ولكنهما يرتبطان سويا في أنماط أنساق مختلفة.
4- ينبغي أن ينظر إلى كل وحدة من وحدات الفعل من منظور أنساق تبادل التفاعل، وأن ينظر إلى الفعل باعتباره نمطاً يتكون من كيفية أداء الفاعلين لأدوارهم.
5- وأن ينظر إلى أنساق التفاعل التي تتكون من مجموعة من الفاعلين يشغلون مراكز معينة، ويتفاعلون سويا لأداء أدوار تحددها المعايير - ينظر إليها - باعتبارها نسقا اجتماعياً. (13)

النسق الاجتماعي:

يعد مفهوم النسق الاجتماعي من المفهومات المركزية والرئيسية في الاتجاه الوظيفي حيث يفهم هذا الاتجاه المجتمع بوصفه نسقا من أهم سماته التوازن والتحديد والترابط، فالنسق الاجتماعي نسق متوازن غير متصارع بمعنى أنه يتجه باستمرار نحو التوازن، وعليه فإن أي قوى تهدد استقرار النسق وتوازنه تصبح موضوعاً لفعل القصور الذاتي لأجزاء النسق الأخرى. إن هذا النموذج التوازني أو التعادلي عنصراً أساسياً من عناصر التوازن الوظيفي للمجتمع، ويمكن أن يوجد له نظير – حسب وجهة نظر الوظيفيين – حتى في العمليات الفزيائية البسيطة، فمثلا إذا دفعت طرف أرجوحة (من نوع علي وطي) إلى أسفل فإن الطرف الآخر سوف يرتفع إلى أعلى وسوف تستمر هذه العملية بأسلوب القصور الذاتي حتى تتوازن الأرجوحة من جديد بفعل هذا القصور.

السمة الثانية هي سمة التحديد بمعنى أنه يمكن تحديد العناصر الداخلة والمكونة للنسق وتمييزها عن تلك العناصر الخارجة عنها أو التي لا تشكل أجزاء من مكوناته فجانب المحافظة على توازن النسق ينبغي أن يكون إما المحافظة على تحديده أو حدوده ومكوناته أو تغييرها تدريجيا وببطء (وهو ما يعني نفي إمكانية التغيير الجذري للمجتمع لأنه يؤدي إلى عدم توازن النسق الاجتماعي) والسمة الثالثة - الترابط - أي أن جميع عناصر النسق الاجتماعي ترتبط ببعضها البعض بحيث أنه إذا طرأ تغيير على عنصر واحد من هذه العناصر فإن جميع العناصر الأخرى تتغير استجابة لذلك التغير، أي أن كل جزء يرتبط بالأجزاء الأخرى ويعتمد عليها (الاعتماد المتبادل بين أجزاء النسق الاجتماعي) وهكذا يعمل النسق الاجتماعي بهذه الكيفية.

يمكن القول إن تطور مفهوم المجتمع كنسق يرجع إلى "إنكار الوظيفية البارسونية". حيث رفض بارسونز النظريات الفردية الذرية التي سيطرت على علم الاجتماع الأمريكي المبكر، وذهب إلى أن نظرية عن المجتمع لا يمكن أن تبنى على الوقائع وحدها. ذلك لأن معطيات العلم الاجتماعي ذاتها يجب أن تبدأ من النظرية وأن تشتق من النظرية. فالواقعة

أو الحقيقة عنده هي دائما قضية أو مسألة خبرة صيغت في حدود إطار تصوري معين. إن أهم ما يميز المدخل الوظيفي عند بارسونز عن وظيفية ميرتون العامة هو تصور بارسونز لمفهوم النسق. ففي كتابه "النسق الاجتماعي" ربط بارسونز مفهوم النسق بنسقين متمايزين من وجهة النظر التحليلية هما الثقافة والشخصية. ذلك أن النسق الاجتماعي يتكون – في نظر بارسونز- من مجموعة من الفاعلين يتفاعلون في موقف سياسي وثقافي يتوسط مجموعة من الرموز المشتركة والمنظمة ثقافياً ويشير بارسونز إلى أن كل نسق اجتماعي يتركب من أربعة أنساق فرعية كبرى هي: نسق القرابة ونسق التدرج الطبقي ونسق القوة والنسق الديني ويختص نسق القرابة بصفة أساسية بعملية التنشئة الاجتماعية بينما يمثل نسق التدرج الطبقي وسائل توزيع المكافآت داخل البناء الاجتماعي المتمايز ويعمل هذان النسقان الفرعيان السابقان على تدعيم نمط اللامساواة في المجتمع وفي هذا الصدد يقول بارسونز: "نتيجة لذلك فإن ارتباط النسق الصناعي المتمايز مهنياً مع نسق القرابة سيؤدي إلى وجود نسق التدرج الطبقي الذي يحصل فيه أطفال الطبقات العليا على امتيازات خاصة بفضل مكانتهم القرابية الموروثة بحيث لا يشاركهم فيها اطفال آخرون دونهم في المكانة"(14) إلا أطفال الفقراء استطاعوا شق طريقهم في الحياة بنجاح في كثير من الأحيان بفضل التعليم الذي صار متاحا للجميع وبشكل كبير بعد الثورة الصناعية وعليه استطاع اطفال الفقراء بفضله الصعود إلى مركز مالية واجتماعية متميزة وهذا يمكن اعتباره من الآثار الحميدة للثورة الصناعية التي مكنت الاطفال الذين نشؤوا في بيئة فقيرة من تخطٍ حاجز الفقر بشكل سريع بعد النهضة الصناعية بعدما كان الصعود إلى الطبقات العليا بالنسبة لهم شبه مستحيل في مرحلة ما قبل الصناعية.

وقد حدد بارسونز موضوع علم الاجتماع بأنه الفعل الاجتماعي كما يتجسد في الأنساق الاجتماعية. ويعني هذا أنه مادام النسق الاجتماعي يهدف - داخل الإطار العام لنسق الفعل - إلى تحقيق وظيفة التكامل، فإن التكامل هو مجال الدراسة في علم الاجتماع. (15) على الرغم من الوظيفية العامة تحاول أن تقلل من محورية التكامل الوظيفي للأجزاء لتركز

على نتائج الاختلال الوظيفي بين القيم المختلفة.

يعتبر النسق الاجتماعي أولاً وقبل كل شيء شبكة من العلاقات بين الناس وبين الجماعات؛ إنه يجمع مجموعة من الفاعلين في رابطة واحدة. وبعبارة أخرى، فإن أفعال الفاعلين داخل النسق الاجتماعي ينظر إليها بالتحديد من خلال تفاعلها مع أفعال الآخرين. من هذا المنطلق فإن الموضوعات الفيزيقية والرمزية والثقافية لا تتصل بالنسق الاجتماعي: إنها تمثل عوامل خارجية تحدد التفاعل بين الفاعلين وتضع عليه شروطا معينة (16)

وفيما يتعلق بعلاقة النسق الاجتماعي بالنسق العضوي فإن النسق العضوي يعتبر نقطة التقاء بين القوى البيولوجية والفيزيقية اللازمة للفعل من ناحية ونسق الفعل ذاته من ناحية أخرى. أما نسق الشخصية فهو النسق الرئيسي في تكوين الدافعة اللازمة للنسق الثقافي. فما يحتاجه النسق الاجتماعي من نسق الشخصية في الواقع هو مجموعة من الاستعدادات والميول التي تقود الفاعلين نحو سلوك يلائم مصالح النسق - أي نحو القابلية الاجتماعية. والتضامن وإدماج المعايير، والقيم، والأيديولوجيات.

وأخيراً فإن النسق الثقافي يزود النسق الاجتماعي بما أسماه بارسونز باكتساب الشرعية. فمن خلال النسق الثقافي، يستمد النسق الاجتماعي القيم والمعايير التي تساعد على خلق التضامن، والولاء، والضبط وتؤكد على أن النسق الاجتماعي يتصف بقدر من الثبات النسبي عبر الزمان. (17) فالقيم والمعايير كانت تمثل القوانين غير المكتوبة التي يسير عليها النسق الاجتماعي منذ بدء الخليقة وحتى الآن وبشكل خاص قبل إن تطبق القوانين الوضعية من قبل الإنسان في مرحلة تعد متأخرة جداً في تاريخ حياته على سطح الأرض إذا اعتبرنا أن بداية القوانين الوضعية كانت على يد حأمورابي في حوالي سنة 1750 قبل الميلاد أي خلال فترة لا تزيد عن 3765 سنة من عمر الإنسان على وجه البسيطة الذي يرى البعض أنه يزيد عن مليوني سنة.

هناك وجهة نظر تقر بأن عالم الاجتماع يدخل إلى دراسة الحياة الاجتماعية وقد اعتمد على افتراضات تصورية ونظرية يضعها حول المجتمع والسلوك الاجتماعي وأن هناك

مجموعات من الكتابات التي عرفت باسم البنائية قد تأخذ بمنظور الإجماع لأنها تستند إلى الافتراضين التاليين:

1- يعد الإجماع على القيم الأساسية بمثابة السمة الأساسية التي تربط أجزاء المجتمع معاً وتحافظ على نظامه.

2- يمكن النظر إلى المجتمع على أنه نسق متكامل يتكون من أجزاء معتمدة فيما بينها.

عليه فإنه يمكن القول إن هذا المنظور يعد تفسيراً لعمليات معينة وترتيبات توجد في المجتمع في ضوء الوظائف التي تحققها فيما يتعلق بالمحافظة على المجتمع برمته. وبناء على وجهة النظر هذه فإن المجتمعات تعبر كائنات متكاملة لها بناء يلزم الأشخاص داخلها بالتوقعات الثقافية والمعايير والأدوار التي يحتاجها المجتمع من أجل استمراره. (18)

وتتمثل أهداف بارسونز العلمية في صياغة نظرية عامة للمجتمع حيث كان هدف بارسونز الأساسي من عملية التنظير هو تطوير وصياغة نظرية عامة للمجتمع، أي أنه كان يهدف إلى الوصول إلى نظرية يمكن تطبيقها على جميع المجتمعات باعتبارها جزءاً من كل الأنساق الحية. مثل هذه النظرية الوظيفية في التنظيم الاجتماعي مبنية على وجهة نظره في الكائن البشري باعتباره فاعلاً في اتخاذ القرار أو صنع القرار متقيدا بالمعايير وعوامل الموقف. هذه العوامل الأخيرة وهي عوامل الموقف وهي التي تحدد وتعرف حاجات النسق أو وظائفه لفهم السلوك البشري. زيادة على ذلك، فإنه طبقاً لوجهة نظره القائلة إن المجتمعات تتصف بخصائص عامة، فإنه من الممكن تطوير نظريات يمكن تطبيقها على كل المجتمعات تفسر تطورها ونموها. (19) أما افتراضاته العملية فقد كان النسق الاجتماعي الفريد والبناء الاجتماعي في مقدمتها حيث قدم بارسونز مجموعة من الافتراضات التي تخص المجتمع وهي كما يلي:

1- النسق الاجتماعي يفترض أن يكون فريدا قائما بذاته مثله في ذلك مثل المجتمع الذي يمتلك حقيقة وجوده المستقل كنسق للتفاعل عن وجود الأفراد ويستمر إلى ما بعد وجود الأفراد.

2- البناء الاجتماعي أو الأنساق الفرعية الاجتماعية في المجتمع تمثل عدداً من الوظائف الرئيسية الأساسية(البناء يمثل الوظيفة) أو عدداً من مشاكل النسق الأساسية، هذه الوظائف تتكون من التكامل Integration (النسق الاجتماعي مبني على المعايير التي تربط الفرد بالمجتمع من خلال التكامل المعياري)، والمحافظة على النمط Pattern maintenance (من خلال النسق الثقافي للقيم والتعميم القيمي)، وتحقيق الهدف goal attainment (نسق الشخصية- مبدأ التباين)، والتكيف adaptation (المخلوق السلوكي - أساس الدور والنسق الاقتصادي).

3- النسق الاجتماعي في المقابل يتكون من أربعة أنساق فرعية وهي: الجماعة الاجتماعية Societal Community (معايير التكامل)، ونسق المحافظة على النمط (قيم التكامل)، والنسق السياسي Polity (يستخدم للوصول إلى الهدف)، والنسق الاقتصادي (يستخدم لتحقيق التكيف). وبشكل عام التركيز الأساسي للنسق الاجتماعي طبقاً لبارسونز، يكون على تحقيق التكامل بين المعايير، بينما أساس المجتمع هو قدرته على الاكتفاء الذاتي بالتواصل مع بيئته.

4- هذه النظرة للمجتمع مبنية على الطبيعة الأساسية للأنساق الحية عند جميع مستويات التنظيم والنمو التطوري... بافتراض أن هناك استمرارية قوية بين مختلف فئات الأنساق الحية.... ومن ثم فإن فكرة المماثلة البيولوجية تعتبر مركزية في نموذج بارسونز للمجتمع.

5- علاوة على ذلك فإنه بالسير بالتوازي مع فكرة التناظر أو التماثل الوظيفي هذه (أعني وجهة النظر القائلة إن المجتمع يشبه الأنساق البيولوجية والطبيعية)، افترض بارسونز أن المركز أو المحور الأساسي للمجتمع هو النزعة نحو التوازن أو الاتزان بين جميع أعضاء الكائن الحي. وثمة عمليات أساسية لتحقيق التوازن، أي أن هناك عمليات تربط الأنساق الفرعية للفعل وهي: التساند والتداخل بين الأنساق الفرعية، وتوحد الشخص بالظاهرة الاجتماعية والثقافية، وتنظيم المكونات المعيارية باعتبارها أبنية أساسية،

وهكذا نظر بارسونز إلى النسق الاجتماعي على أساس أنه متكامل بشكل كبير ومتجه نحو التوازن.

6- هذا النسق على أية حال لا ينظر إليه على أنه نسق ساكن، لكنه بدلاً من ذلك يمتلك المقدرة على التطور التكيفي adaptive evolution أو التطور ليتكيف بشكل ينتج عنه زيادة تحقيق الهدف بالنسبة للمجتمع ككل مع زيادة التكامل الداخلي. تتكون العمليات المركزية التي تهدف إلى تحقيق التطور من التباين (زيادة تقسيم أو تخصص البناءات الوظيفية)، والتطوير التكيفي أو التوافق (تزداد حرية الوحدات الاجتماعية وتحرر من قيود الموارد المحدودة)، تضمين بناءات جديدة في النسق المعياري، وتعميم القيم (تطور الأنساق القيمية إلى مستويات أعلى من العمومية من أجل المحافظة على التكامل أثناء التطور).

7- وأخيراً الثقافة المسيحية أو القيم الغربية الذرائعية أو الغائية Instrumental لمذهب الفاعلية activism ينظر لها بارسونز على أنها المحرك الرئيسي لعملية تطور المجتمع وعملية التحديث، التي تنبثق من خلال عدد من المراحل التاريخية إلى الوقت الحاضر ليصل إلى أمريكا الحديثة. (20) أما منهج دراسة المجتمع عنده فهو يتمثل في افتراض بارسونز إن نموذجه للمجتمع كان في بعض مستوياته نسقاً استنباطياً افتراضياً مبنياً على نظرية الأنساق الحية عموما وعلى نظرية الضبط الذاتي (السيبرناطيقة) Cybernetic. علاوة على ذلك فإنه في بنائه لمثل ذلك النموذج، افترض أنه من المناسب أن يعامل أكثر الأنساق تعقيدا في حدود ارتباط العناصر الأولية على مستويات عديدة مختلفة ومن ثم ضم وجمع الحقائق الاجتماعية. متخذا بذلك مدخلا جمعيا للحقيقة الاجتماعية. أما المنهج الذي استخدمه بارسونز ليوثق به التطور التكيفي Adaptive evolution للمجتمع أو للبرهنة على وصول المجتمع إلى حالة التكيف أثناء تطوره فإنه يتكون من مزاوجة ما بين المنهج النظري وعرض الحقائق التجريبية التي اختيرت لإثبات صحة التفسير النظري. بجمع هذه النقاط مع بعض فإنه يكون من الممكن النظر إلى منهج

البارسونيين على أنه نماذج تاريخية من العلاقات الاجتماعية المبنية على التناظر البيولوجي الموضحة والمؤكدة أكثر بواسطة مزاوجة المنهج النظري بالحقائق التجريبية. إلى هذا الحد فإن بارسونز وصل إلى نموذج بنائي/ وظيفي للمجتمع من خلال استنباط تاريخي منطقي مبني على أساس قبول التعريف البيولوجي للحقيقة الاجتماعية.

أحد نماذج أو أنماط بارسونز الرئيسية متضمن في نظريته في التحديث التي تصف مراحل محددة من التطور الاجتماعي من المسيحية الأولى خلال مرحلة الصناعة إلى أمريكا الحديثة. موثقا التأثيرات الغائية للثقافة المسيحية. فمن خلال كل مرحلة ساعدت هذه التوجهات على دفع المجتمع البشري نحو التحديث. (البيروقراطية، والعقلانية، والتصنيع، والديموقراطية) كما يلي:

1- المسيحية الأولى.
2- مرحلة العصور الوسطى.
3- مرحلة النهضة الأوروبية والإصلاح.
4- حركات الإصلاح المضاد.
5- ظهور الدولة العلمانية.
6- الثورات الصناعية والديموقراطية.
7- نشأة أمريكا الحديثة.

ثانياً: أميتاي أتزيوني Amitai Etazioni - 1929م

ولد أتزيوني في عام 1929 تلقى تعليمه في الجامعة العبرية Hebrew university وفي جامعة بيركليBerkeley بالولايات المتحدة، وحصل على شهادة الدكتوراه في عام 1958. وكانت سيرته العملية قد تضمنت رئاسة قسم علم الاجتماع في جامعة كلومبيا Columbia University بولاية ميزوري، وعضوية مؤسسة دراسات الحرب والسلام فيها. أما أهم إسهاماته العلمية فكانت تضم مجموعة من الكتب يأتي في مقدمتها كتابه التحليلات

المقارنة للمنظمات المعقدة Comparative Analysis of Complex Organizations1961، والتوحيد السياسي Political Unification 1965، والمجتمع النشيط Active 1968 Society. أما اهتماماته الفكرية فكانت مركزة حول التنبؤ الاجتماعي، والمستقبلية futurism والنظرية الاجتماعية والتغير الاجتماعي.

توضح نظرية أتزيوني ثلاث آليات مستحدثة في وسائل السيطرة والضبط داخل التنظيم تعكس كل آلية المحيط الاجتماعي الذي نشأت فيه واعتمدت عليه وبالوقت نفسه تقدم استراتيجيته خاصة بالنزاع بدور بين المسؤول الإداري والعمال. وهذه الآليات الضبطية هي:

1- الضوابط الاقتصادية: التي تقوم على الأجور المالية والرواتب والمنح والسلف كوسائل للتأثير على العمال وتحفيزهم في عملهم.
2- الضوابط الإلزامية: التي تعتمد على الإكراه والإلزام الكلي والمطلق مستخدمة العداء الأعمى بين مديري الإدارات والعمال والموظفين.
3- الضوابط المعيارية: المبنية على المناورات التي يعتمدها المديرون الإداريون في تحقيق مآربهم وغاياتهم كاستخدام المواقع الإدارية والأفكار الأيديولوجية كأساليب في المناورات الإدارية. (21)

علاقة التغير بالمستقبل:

توزع المستقبليون Futurists وهم الذين يحاولون أن يصفوا الحالة التي سيكون عليها المستقبل بين المتشائمين جداً الذين يتنبؤون بالكوارث، والمتفائلين جداً، فالمتشائمون المتنبئون بالكوارث يرون أن انهيارا اقتصاديا عالميا أكثر فظاعة من ذلك الذي حدث في الثلاثينيات سوف يحدث لا محالة. ويقولون إن أحسن استثمار هو شراء قطعة من الأرض في بقعة نائية من البلاد، وبناء مأوى عليها يكون مختفيا عن أنظار الجماعات الجائعة والفقراء الذين سوف يجوبون الريف عندما ينهار الاقتصاد، كما أنه يجب عليهم

أن يخبئوا بالقرب من المأوى الذي اختاروه الكثير من الأطعمة المحفوظة، والبنادق، وغيرها من المعدات الأساسية التي تساعد على بقائهم بمفردهم في الغابات أو الفيافي والقفار.

أما المتفائلون فإنهم يتنبؤون بنهاية الفقر والكدح والعمل المرهق ويعتقدون أن الابتكارات الإنسانية سوف تحل مشاكلنا. فألفين تفلر Alvin Toffler في كتابه حضارة الموجة الثالثة، يعتقد أن الحاسوب سوف يجعل وجود المجتمع الأكثر فردية أمراً ممكناً. فالناس سوف يكونون قادرين على البقاء في منازلهم ويكسبون أقواتهم عن طريق وسائل الاتصال العصرية المتقدمة على الدوام، ويخلقون لأنفسهم وأطفالهم نمطاً فريداً خلاقاً من الحياة الفردية.

إلا أن علماء الاجتماع كانوا أكثر ترددا في إعلان تنبؤاتهم، والمنهج المنطقي لتحديد الوضع الذي سيكون عليه المستقبل هو تحليل الاحتمالات والمشاكل التي تعيق التقدم واستخدام التخطيط الاجتماعي للنضال من أجل الأهداف المستقبلية وتجنب الكوارث المستقبلية.

وقد اتبع أتزيوني Etzioni هذا النهج عندما حاول في عام 1980 أن يتنبأ بالأوضاع المستقبلية. فأوضح أن المجتمع يجب أن يحدد خيارات ويخطط للمستقبل الذي سوف يقدم لأعضائه نمطاً مريحاً من الحياة. فاقتصادنا في الوقت الحاضر مبني على استهلاك كميات كبيرة من السلع، وفي نفس الوقت فإننا نستنزف مواردنا الطبيعية والاقتصادية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية. بالإضافة إلى كون مصانعنا، ونظام مواصلاتنا، والطرق والجسور وخطوط السكك الحديدية تستهلك بشكل كبير. ونحن يجب أن نختار بين أن ننفق أموالنا على السلع الاستهلاكية أو ننفق مئات المليارات من الدولارات لتحديث مصانعنا وبناء نظام مواصلات فعال. إن إعادة البناء هذه سوف تمنع أخطار التلوث، وتحسن مستوى الحياة بالنسبة للجميع. لكنها يمكن أن تعني كذلك أنه يجب علينا أن نرشد استهلاكنا للسلع المختلفة.

واستخدم أتزيوني المدخل النموذجي Typical approach لعلماء الاجتماع في دراسته للتغير الاجتماعي وهو المدخل الذي يحاول أن يفهم النسق الاجتماعي، فنسقنا الاجتماعي مبني على الاقتصاد الموجه للربح، ونحن نصنع الأشياء التي يمكن أن تباع بربح. ونسقنا يعمل من أجل تدعيم دائرة من الإنتاج والاستهلاك، لكنه لا يدعم تحديث المصانع، أو الاستغلال المرشد لمواردنا إلا إذا كان مثل هذا التصرف يدر ربحا. وإذا فهمنا أن نسقنا لا يؤدي وظيفته إلا إذا تحقق الربح، فإنه من الممكن أن نتنبأ بماذا سيحدث إذا استمررنا في أداء وظائفنا بالكيفية نفسها التي كنا نؤدي بها وظائفنا في الماضي، وسوف نصل عاجلا أم آجلا إلى الوقت الذي نستنفد خلاله جميع مواردنا. وفوق ذلك فإن الاختراعات من الممكن تحقيقها، والمؤسسات من الممكن أن تتغير، والأهداف والقيم تعدل أو تتغير، والمجتمع من الممكن أن يغير نهجه ويتحرك إلى اتجاه جديد. ونحن لا نستطيع اليوم أن نفترض بتفاؤل أن التقدم سوف يتحقق لا محالة ولا حاجة بنا إلى التخطيط من أجل الوصول إلى أهدافنا. وكذلك لا يوجد لدينا سبب مقنع لنكون متشائمين جداً لدرجة أننا نسلم أنفسنا إلى اليأس ونسلم بأننا ضحايا للنسق الاجتماعي المنهار. زيادة على ذلك فنحن لا نستطيع أن نفترض أن المجتمع يسير في طريقه المحتوم من الفترات الحسنة إلى السيئة ثم يعود إلى الفترات الحسنة مرة أخرى؛ لكننا نستطيع في الوقت ذاته أن ندمر الحياة على الأرض. وإذا عرفنا كيف يؤدي المجتمع وظائفه، فإننا نستطيع أن نختار الطريق الأفضل، فنحسن مستوى مؤسساتنا الاجتماعية، ونصل إلى تطوير مستوى حياة يؤدي إلى تقليل الصراع، ونتجنب تدمير البيئة، وندعم الحياة البشرية بأعدادها المتزايدة بشكل مستمر والتي يبدو أنها أمر محتوم. وفي نفس الوقت من الممكن أن نخطط لاستغلال مواردنا بعقلانية. (22) واستغلال مواردنا بعقلانية قد يكون أمراً بعيد المنال في ظل نسق اجتماعي هدفه الأساسي تحقيق الربح فقط، كما أنه من الصعب كذلك الحفاظ على بيئة سليمة في ظل تعاليم النسق السالف الذكر التي تسعى بالدرجة الأولى إلى تحقيق الأرباح التي تعد الهدف الأسمى لها دون مراعاة لأي شيء غيره.

كان هدف نظرية أتزيوني الأساسي كما طبقت على المجتمع النشيط Active Society هو تطوير علم اجتماع الوحدات الكبيرة الحجم Macro sociology وذلك عن طريق دراسة الخصائص الظاهرة للوحدات الاجتماعية الكبيرة التي تمثل الجزء المهم في تفاوت المعلومات أو البيانات الاجتماعية وذلك بإعطاء أهمية كبرى لبلوغ أقصى حد من الأهداف الاجتماعية Social goals وهنا أيضاً نجد أن نظرية أتزيوني تؤكد على النسق الكلي وتركز على الوحدات الاجتماعية الكبيرة، وفي نفس الوقت هدفها الأساسي هو الضبط الاجتماعي والتطور الاجتماعي. أما أهم الافتراضات العلمية التي قدمها أتزيوني فيمكن تلخيصها في الآتي:

1- كان افتراض أتزيوني الأساسي يقول بأن عمليات الوحدات الكبيرة الحجم تمتلك خصائص منطقية ظاهرة، ونتائج تؤثر على المجتمع الكبير، وكان تركيزه الأساسي على الظواهر الكلية الكبيرة الحجم، باعتبارها ظواهر مستقلة يمكن تفسيرها.

2- هذه الظواهر يمكن أن تقسم إلى وحدات (أدوار) ووحدات فرعية (مثل الأسر) ووحدات كبيرة Supraunits مثل أحياء الجوار Neighborhoods. ويمكن تقسيم البناء إلى مجتمعات كبيرة وشاملة، ومجتمعات فرعية.

3- تنقسم العلاقات داخل النسق الاجتماعي إلى ثلاثة أنواع: المواقف (العلاقات المتبادلة بين الوحدات)، والأنساق (الاعتماد المتبادل أو التساند بين الوحدات)، الجماعات أو المجتمعات المحلية Communities (الوحدات المتكاملة).

4- تحتل الحكومة مركز الأهمية في النسق عند أتزيوني لأنها تمثل القوة العليا الضابطة للمجتمع التي تحكم التنظيم الذاتي (السبيرنطيقا) حيث تقدم للنسق وسيلة صنع القرار وآليات استرجاع المعلومات Feedback. وهو عندما نظر إلى المجتمع بهذه الطريقة، ادعى أنه كان يؤلف نظرية طوعية أو إرادية Voluntaristic Theory ونسق التوجيه المركزي ونموذج ضبط على شكل نظرية طوعية أو إرادية تهدف للضبط الذاتي ومراقبة إرادية لتوجيه المجتمع.

5- هناك عاملان أساسيان يعتبران مركزيان بالنسبة لهذا النموذج من المجتمعات وهما: (ا) الضبط أو القدرات الضبطية للنسق وقدراته على التنظيم الذاتي (مدخلاته المعرفية والبناء الخاص بصنع القرار فيه)، والسلطة Power التي هي مصادر القوة والتعبئة. (ب) قدرته على تكوين الإجماع أو قدرته على تكوين الرأي الجماعي وهي تكوين بناءات الإجماع الداخلي.

6- وأخيراً فإن استخدام بعدي الضبط، وتكوين الإجماع أو القدرة على تكوين الرأي الجماعي يؤديان إلى تكوين أنماط مختلفة من المجتمعات ويمارس المجتمع النشيط أعلى مستوي من الضبط وإجماع الآراء، فإن أتزيوني أنتج نموذجاً للمجتمعات التي فيها النمط النشيط أو الفعال عالٍ بالنسبة لكلتا الخاصيتين. (23)

وبشكل موجز يمكن أن نقول إن محاولة أتزيوني لتطوير نظرية الضبط (السبرانية)(*) الإرادية أو الطوعية Voluntaristic Cybernatoroal Theory لتحقيق التوجيه الاجتماعي عن طريق النظر إلى الحكومة على أساس أنها القوة العليا المتحكمة في نظم الضبط في المجتمع هذه القوة توجه نسقاً من الوحدات، بالإضافة إلى الوحدات الفرعية، والوحدات الكبيرة التي تعتمد كلها على الضبط وقدراتها على تكوين الإجماع أو تكوين توافق الرأي الجماعي. هذا المدخل يعتبر مدخلاً يهتم بالوحدات الكبيرة الحجم في المجتمع ونسقي وإرادي وسيبراني Cybernetic وبنائي وظيفي من حيث نظرته للبناء الاجتماعي على أساس أنه يملك إمكانيات ظاهرة للعيان ويعتمد على الضبط الخارجي وعوامل معيارية داخلية.

(*) السبرانية أو علم التنظيم الذاتي: هو العلم الذي يدرس عمليات التحكم والتوجيه والحركة في الكائنات الحية والآلات على السواء. وبهذا العلم استطاع الإنسان أن يربط بين النظم الحية والنظم التكنولوجية وأن آلات تقوم ببعض العمليات الذهنية والعقلية التي كان ينفرد بها الإنسان دون غيره من الكائنات الحية. وتقوم السبرانية على التحكم الذاتي، الرياضيات، المنطق، علم الحياة، نظرية الآلات إلخ.....

استخدم أتزيوني في الأساس منهجين رئيسيين هما: (1) تطبيق الأنماط السيبرانية والإرادية على تطور المجتمعات (2) صياغة مجردة لنمط تاريخي للمجتمعات يقوم بناء على هذين البعدين. والنتيجة كانت تكوين نظرية ديناميكية سيبرانية عن تطور المجتمعات تعتمد على الوظائف الداخلية والخارجية. مرة أخرى فإن مناهج البنائية الوظيفية عنده تتكون من تطبيق نماذج مقتبسة من خارج علم الاجتماع لدراسة تطور المجتمعات على مستوى الوحدات الكبيرة الحجم Macroscopic.

طور أتزيوني أربعة أنماط من المجتمعات على أساس وضعها على محورين هما الضبط، والقدرة على تكوين الإجماع أي تكوين الرأي الجماعي وهي كما يلي:(1) مجتمع نشط نسبياً (مرتفع بالنسبة للاثنين أي بالنسبة للضبط والإجماع) (2) المجتمع المندفع (منخفض بالنسبة للضبط ومرتفع بالنسبة للإجماع) (3) مجتمع تتحكم فيه الإدارة بشكل مفرط (مرتفع في الضبط، ومنخفض بالنسبة للإجماع) (4) المجتمع السلبي (منخفض بالنسبة للاثنين أي بالنسبة للضبط والإجماع).

ملخص استنتاجات أتزيوني:

في تطبيقه للافتراضات الإرادية والضبط للتطور الاجتماعي، فإن أتزيوني طور نظرية بنائية وظيفية مبنية على أساس معياري لتوجيه المجتمعات، ذات صلة بتحقيق أهداف المجتمع. مثل هذا المدخل يشبه مدخل بارسونز في تأكيده على الأنساق الكبرى والأنساق الفرعية وأساليب التنظيم الذاتي والتطور على المستوى الكبير والضبط الخارجي والتكامل المعياري الداخلي. كما أن نظرية أتزيوني أبرزت مجموعة من القضايا يمكن إيجازها على النحو التالي:

1- في تأكيدها على الحكومة والضبط واعتبارهما قضية مركزية فإنه تعرض لمخاطرة كونه يميل نحو الصفوة.

2- يبدو أن مدخله طبقاً لذلك لا يشدد على مشاكل القوة والسيطرة بل إنه يقلل من شأنهما.

3- تطبيق المدخل الإرادي - السيبراني كان غامضاً ينزع نحو التعميم بشكل كبير.

4- وأخيراً فإن تطوير الأنماط المجردة ونظريات التطور للمجتمعات الكبيرة أدى إلى مشاكل وثيقة الصلة بالسياسة العامة. على الرغم من تلك المشاكل إلا أن أتزيوني قدم مساهمة مهمة في تطوير علم اجتماع الوحدات الكبرىMacro Sociology. (24)

هوامش الفصل السادس

1- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون، الطبعة السادسة، دار المعارف ص 320.

2- Kinloch, Graham, sociological theory, Mcgraw-Hill Book company1977 p 91 .

3- Kinloch, Graham. Ibid pp 191-192 .

4- محمود عودة، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، (بدون تاريخ)، ص ص 93-94.

5- المرجع السابق نفسه، ص 94.

6- جي روشيه، علم الاجتماع الأمريكي، دراسة لأعمال تالكوت بارسونز، ترجمة وتعليق محمد الجوهري وأحمد زايد، دار المعارف، 1981، ص27.

7- المرجع السابق نفسه، ص 27.

8- Kinloch, Graham. Ibid pp 191-192

9- علي عبد الرازق جلبي وآخرون، نظرية علم الاجتماع: الاتجاهات الحديثة والمعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001، ص ص 35-36.

10- جونثان ترنر، بناء نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمد سعيد فرح، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000، ص 61.

11- جي روشيه، مرجع سبق ذكره، ص ص 63-64.

12- علي عبد الرازق جلبي وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص 36.

13- جوناثان تيرنر، ترجمة محمد سعيد فرح، مرجع سبق ذكره، ص ص 54- 55.

14- علي عبد الرازق جلبي وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ص 43-44.

15- جي روشيه، مرجع سبق ذكره، ص 99.

16- المرجع السابق نفسه، ص102

17- المرجع السابق نفسه، ص ص105-106.

18- علي عبد الرازق جلبي وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص 17.

19- Kinloch, Graham. Ibid. pp 191-193.

20- Ibid, . pp 193-194 .

21- معن خليل عمر، نحو نظرية عربية في علم الاجتماع، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية 1992، ص 156.

22- Ruitenbeek, Hendrik M. (Editor) Varieties of Classic Social Theory, E. P. Dutton& co., Inc. New York, 1963, pp 30-31 .

23- Kinloch, Graham. Ibid pp. 205-206 .

24- Kinloch, Graham. Ibid p 207 .

قائمة المراجع

وتشتمل المراجع على:

- أولاً: المراجع العربية
- ثانياً: المراجع الأجنبية

قائمة المراجع

أولا: المراجع العربية

1- ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة، 1984.

2- الحسن، إحسان محمد، الأسس العامة لمناهج البحث الاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

3- السيد محمد بدوي، مبادئ علم الاجتماع، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، 1970.

4- ا لموسوعة الفلسفية ترجمة سمير كرم.

5- إمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز: فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985.

6- بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بدون تاريخ، ص 174.

7- بوتومور، تمهيد في علم الاجتماع، ترجمة وتعليق محمد الجوهري وآخرون، الطبعة الثانية، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1973.

8- جوناثان تيرنر، بناء نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمد سعيد فرح، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000.

9- جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ترجمة راشد البراوي، دار المعارف بمصر، الكتاب الثالث.

10- جي روشيه، علم الاجتماع الأمريكي، دراسة لأعمال تالكوت بارسونز، ترجمة وتعليق محمد الجوهري وأحمد زايد، دار المعارف، 1981.

11- أحمد غريب محمد سيد، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995.

12- زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي نشأته وتطوره، دار المعارف، 1981.

13- سامي الدهان، جان جاك روسو، دار المعارف بمصر، سلسلة كتاب اقرأ 197، مايو 1959.

14- شتا، السيد علي، النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة، 1995.

15- عدلي علي أبو طاحونة، النظريات الاجتماعية المعاصرة، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، الإسكندرية.

16- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة الكتاب رقم 44 لسنة 1981.

17- عبد المجيد عبد الرحيم، تطور الفكر الاجتماعي، مكتبة الأنجلو المصرية.

18- علي عبد الرازق جلبي، علم اجتماع السكان، دار النهضة العربي، للطباعة والنشر، بيروت، 1984.

19- علي عبد الرازق جلبي وآخرون، نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001.

20- علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، دار المعارف، القاهرة، 1982.

21- عمر التومي الشيباني، تطور الأفكار والنظريات التربوية، 1977.

22- معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، الطبعة الثانية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1991.

23- محمد الجوهري علم الاجتماع: النظرية. الموضوع. المنهج. دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، 1992، .

24- محمد العوض جلال الدين، بعض قضايا السكان والتنمية في السودان والعالم الثالث، مركز الدراسات والبحوث الإنمائية كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، جامعة الخرطوم، الخرطوم، (بدون تاريخ).

25- محمد الغريب عبد الكريم، السسيولوجيا الراديكالية: دراسة نقدية تحليلية في النظرية الماركسية، المكتب الجامعي الحديث، محطة الرمل - الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1988.

26- محمد عبد الرحمن مرحبا، جديد في مقدمة ابن خلدون، منشورات عويدات، بيروت- باريس، 1989.

27- محمد علي محمد، تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989.

28- مجد الدين عمر خيري خمش، علم الاجتماع: الموضوع والمنهج، مجدلاوي، الطبعة الأولى، 1999.

29- - معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر:دراسة تحليلية ونقدية، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، 1991.

30- ميكافلي، الأمير، ترجمة فاروق سعد، في تاريخ الفكر الاجتماعي، در الآفاق، 1990.

31- مهى سهيل المقدم، محاكمة دوركايم في الفكر الاجتماعي العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1992.

32- نجوى قصاب حسن، التفكير الاجتماعي عند الغرب، مطبعة ابن حيان، دمشق، 1984.

33- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها ترجمة محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1978.

34- نور الدين حقيقي، الخلدونية: العلوم الاجتماعية وأساس السلطة السياسية، ترجمة الياس خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الأولى، 1983.

35- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر القاهرة، (بدون تاريخ).

ثانيا: المراجع الأجنبية

1- Coser, *Lewis A. Masters of Sociological Thought,* Second Edition, Harcourt Brace Jovanovich, Inc. New York 1977.

2- Defleur, L. Melvin, and others, Sociology: Man in society, SCOTT, Foresman and Company 1977 pp. 19-20.

3- Garfinkel, Harold, Studies in Ethnomethodology, Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey 1967.

4- Kinloch Graham, sociological theory, McGraw-Hill Book company1977

5- Larson, Calvin J. Major Themes in Sociological Theory, David McKay Company, Inc. New York, second Edition, 1977

6- Marx, Karl and Friedrich Engels, the communist Manifesto, Washington Square Press Published By Pocket Books, New York 1964.

7- Marx, Karl, Grundrisse: Foundations of the Critique of Political Economy, translated with a Foreward by Martin Nicolaus, Vintage Books a Division of Random House, New York 1973.

8- Ruitenbeek, Hendrik M. (Editor) Varieties of Classic Social Theory, E. P. Dutton& co., Inc. New York, 1963.

تم تنفيذ أعمال التجهيزات الفنية والطباعة

المجموعة العربية للتدريب والنشر

8 أشارع أحمد فخري ـ مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفاكس: 23490242 - 23490419 (00202)

web site: www. elarabgroup. net

E-mail: info@elarabgroup. net

+218 54 5260363 - +218 54 5265704
+218 54 5260361 - +218 54 5262152 674

www.su.edu.ly
info@su.edu.ly
Sert - Libya سرت - ليبيا

9 789959 891242